الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتـــــوري قسنطيـــــة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ وعلم الآثار

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية

في عصر ملوك الطوائف. ق 5هـ / 11م.

مذكـرة مقـدمة لنيـل شهادة الماجستيـر في التاريخ الوسيط

أعضـاء لجنـة المناقشـة:

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفـة
أ.د/ إبراهيم بكير بحاز	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري .قسنطينة	رئيسا
أ.د/ عبد العزيز فيلالي	أستاذ محاضر	جامعة منتوري .قسنطينة	مشرفا ومقررا
د/ يوسف عابد	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر قسنطينة	عضوا

إعداد الطالب :
فضيل بوالصوف

إشراف الأستاذ:
أ.د عبد العزيز فيلالي

السنة الجامعية 1431-1432هـ/2010- 2011 م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

. . .إلى من تكبدت عناء تنشئتي في الصغر

وحملت همّ نجاحي في الكِبَر

إلى أحق الناس بحسن صحبتي من البشر. . .

إلى أمي الغاليـــــة . . .

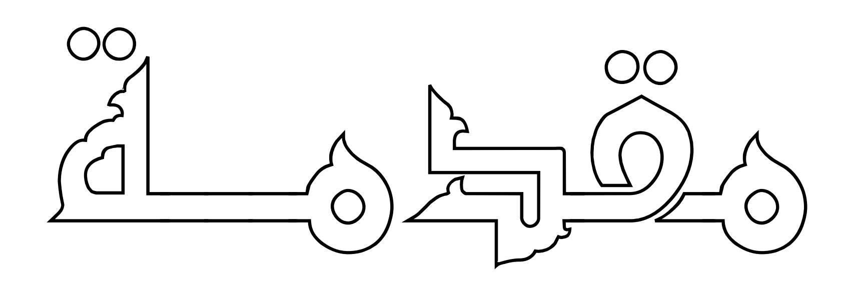
. . .إلى التي وفّرت لي جميع ظروف النجاح

وسهرت الليالي تدعوا لي بالفلاح

إلى رفيقـة دربي وأمّ أولادي. . .

إليهما . . .أهدي باكورة جهدي.

فضيل بوالصوف


مقدمة

مقدمـــــــة:

يكتسي التاريخ الأندلسي أهمية كبيرة في مسار حركة التاريخ الاسلامي في العصر الوسيط، لما يتميز به من صفحات مشرقة وأحداث بارزة باهرة، طبعت الفتح الاسلامي لاسبانيا بطابع خاص وهذا منذ أن وطأت أقدام العرب والبربر الفاتحين أرض اسبانيا ،وقد كُتب النصر للمسلمين حينما تمكّنوا من فتح معظم شبه الجزيرة الايبيرية، و لم يبق إلاّ القسم الشمالي الغربي منها خارج سلطتهم، لا لعجزهم عن مواصلة الفتح، بل استهانة بهذا الجزء واستصغارًا لقدره ، فإذا به يتحوّل إلى عقبة تقف أمام الوجود الإسلامي هناك، وبؤرة لبروز مقاومة اسبانية أخذت على عاتقها مهمّة استرداد اسبانيا كلّها من يد المسلمين، وبدل وجود دولة واحدة تَحكُمُ شبه الجزيرة الايبيرية، ظهرت إمارة نصرانية في الشمال، هي إمارة جليقية يتزعّمها أمير يُدعى « بِلاي »[1]، أو بلايو Pelayo الذي عمل على توسيع حدود دولته على حساب أراضي المسلمين تبعتها تشكُّل ممالك وإمارات نصرانية أخرى، بلغ مجموعها أربعًا في عصر ملوك الطوائف.

إنّ ظهور ممالك نصرانية تُنافس المسلمين في حُكم اسبانيا، قد أفرز احتكاكًا بين الطرفين جرّ إلى التّصادم تارة والهدنة أوالسلم تارة أخرى. لكنّ هذا الصراع لم يكن بارزًا بالقدر الكافي في عصر الولاة أو عصر الدولة الأموية، لأنّ الغلبة كانت للمسلمين في معظم الأحيان.

غير أنّ الدولة الأموية في الأندلس لم تتمكّن من الاحتفاظ بتفوّقها السياسي والعسكري، وظهر الضعف فيها جليا منذ أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، خصوصًا بعد وفاة المنصور بن أبي عامر (366-392هـــ)/(976-1002م)، ثمّ عبد الملك المظفر (392-399هـــ)/(1002-1008م) وانتقال مقاليد الحكم لأحد أبناء هذه الأسرة الضعاف، وهو عبد الرحمان شنجول سنة 399هـــ/1008م، في ظلّ استمرار الحجر على الخليفة هشام المؤيد (366-399هـــ)/(976-1008م)، ومن (400- 403هـــ)/(1009-1012م) الذي كان منزوع السلطة والإرادة لا حول له ولا قوة .

لقد أتاح ضعف خلفاء بني أمية الأواخر لحكام الأقاليم والولايات الأندلسية الفرصة للانفصال بما تحت أيديهم من مناطق، بعدما دخلت الأندلس في حالة من الفوضى والاقتتال الداخلي على السلطة

[1] بلاي أو بلايو pelayo : هو أمير قوطي فرّ أثناء الفتح الاسلامي لاسبانيا إلى أقصى الشمال رفقة مجموعة من أتباعه، وتحصّن هناك ثم شرع في شن هجمات على المسلمين وحقق عليهم انتصارًا في موقعة كوفا دونجا، ثم اقترن اسمه بعد ذلك بحركة الاسترداد . أنظر: حسين مؤنس : **بلاي وميلاد أشتريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال اسبانيا** ، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد11، الجزء1، مايو 1949. من ص57- 83.

في حرب أهلية مدمّرة، اصطلحت عليه المصادر التاريخية الأندلسية اسم الفتنة البربرية، والتي أدّت في نهاية المطاف إلى انقسام الأندلس إلى عدّة ممالك وإمارات مستقلّة، عُرفت باسم دول الطوائف رغم أنّها تفتقد إلى مقوّمات الدولة في مختلف النواحي.

إنّ اختلال ميزان القوة لصالح الممالك النصرانية الاسبانية في عصر ملوك الطوائف، قد طبع العلاقات السياسية بين الجانبين بعدّة مميّزات، وبدل أن تكون المبادرة للمسلمين في توجيه علاقاتهم بنصارى الشمال، كما في عهد الدولة الأموية، أصبحوا أداة طيّعة في يد ملوك اسبانيا، يُجبون لهم الضرائب، ويدينون لهم بالولاء والطاعة والخضوع.

من هنا تبرز أهمية موضوع **العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي**، فهو يكشف لنا عن مواضع القوة والضعف بين الأندلس واسبانيا، والعوامل التي ساعدت على تبادلهما للدّور الرّيادي، ومدى ما كان فيهما من تجانس داخلي أو تنافر، ووحدة أو تفرّق.

إنّ هذا البحث جاء ليركّز على العلاقات السياسية بين طرفين اشتركا في حكم منطقة جغرافية دون إرادة منهما، ويدخل ضمن إطار هذه العلاقات، كل مظاهر الاتصالات الرّسمية بين الكيانات السياسية الإسلامية والممالك النصرانية ، بما فيها البعثات الدبلوماسية والاتفاقيات الثنائية، والإعانات العسكرية، والمواجهات الحربية على اعتبار أنّ الأسلوب العسكري أيضا هو شكل من أشكال ممارسة السياسة الخارجية عن طريق استخدام القوة العسكرية، لأنّ الهدف يبقى في النهاية، هو تحقيق مكاسب سياسية ومادية ومعنوية معينة.

وتعمّدت التركيز في هذا البحث على الطرف الاسلامي في هذه العلاقات لعدّة اعتبارات : أولها فرضها الموضوع في حدّ ذاته، لأنّه من الصّعب إدراك حقيقة العلاقة بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة دون معرفة ظروف تشكّل دول الطوائف وطبيعة علاقاتها ببعضها البعض، وثانيها موضوعي بالأساس، ذلك أنّ المسلمين هم الذين بادروا بالاتصال بملوك اسبانيا منذ أيام الفتنة في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فاسحين المجال لتدخّل نصراني سافر في شؤون المسلمين.

وعليه فقد كان هذا الصراع بين طرفي متناقضين، قُدِّر للجغرافيا أن تجمع بينهما، هما الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية. أمّا الأندلس الإسلامية، ، فهي الممالك والإمارات المستقلة التي ظهرت عقب انهيار الخلافة الأموية بقرطبة، والتي تشغل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الذي كان يخضع لحكم المسلمين آنذاك ، أما اسبانيا النصرانية فهي الممالك النصرانية التي كانت تسيطر على المناطق الشمالية من شبه الجزيرة، والتي ظهرت بها حركة مقاومة نصرانية للوجود الاسلامي سرعان ما اتسع خطرها

في غفلة من المسلمين وضعف منهم بسبب الفتنة الداخلية والجري وراء السلطة .
لهذا لم تكن الحدود بين الطرفين ثابتة أو قارة، بل كانت تخضع لميزان القوة العسكرية، وتفوق طرف على آخر.

أمّا الإطار الزماني لموضوع الدراسة، فهو القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أي عصر ملوك الطوائف، ورغم أنّ الخلاف بين المؤرخين واضح في تحديد بداية عصر الطوائف ونهايته، لكنّي سأعتبر القرن الخامس الهجري كلّه عصر طوائف بالأندلس لأنّ الانقسام والفرقة ظهرت قبل زوال الدولة الأموية بشكل رسمي ونهائي، فظهرت عدّة ممالك طائفية قبل سنة 422هـ/ 1031م كسرقسطة واشبيلية وغرناطة وغيرها، كما أنّ زوال هذه الممالك الطائفية بشكل نهائي كان في سنة 503هـ/1110م بعدما تمكّن المرابطون من دخول سرقسطة والقضاء على حكم بني هود فيها، وهي آخر الممالك الطائفية بالأندلس .

إنّ الدافع الأساسي من دراسة موضوع العلاقات السياسية بين الأندلس واسبانيا خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، هو الإجابة عن العديد من التساؤلات التي فرضت نفسها على الكثير من الباحثين والمهتمّين بهذه الفترة من التاريخ الأندلسي، لذلك حاولت أن أوجّه جهدي لدراسة هذا الجانب من تاريخ الأندلس محاولاً الإجابة عن إشكالية رئيسية لخّصتها في التساؤل الآتي: ما هي طبيعة العلاقات السياسية التي ربطت بين الكيانات السياسية الإسلامية والكيانات النصرانية خلال عصر ملوك الطوائف، وما هي مظاهرها الكبرى؟.

ولا شكّ أنّ لهذا الموضوع إشكالات فرعية أخرى أذكر منها:

- ما هي الدوافع الحقيقية التي جعلت ممالك الطوائف في الأندلس تتقرّب من الممالك النصرانية في الشمال؟.
- ألم تكن الثغور الاسلامية أو الممالك الطائفية الواقعة على التماس مع النصارى، أكثر احتكاكًا من غيرها من الممالك الأخرى بالممالك النصرانية في الشمال، وبالتالي الأقدر على ربط علاقات سياسية معها؟ أم أنّ هذه العلاقات جاءت بحكم الأوضاع الداخلية التي ميّزت كل منها، بصرف النظر عن العامل الجغرافي؟.
- ما هي مكانة العامل الاقتصادي ورغبة ملوك النصارى في تحصيل الجزية من المسلمين في هذه العلاقات؟.
- ما هي الانعكاسات التي ترتّبت عن سياسة ملوك النصارى نحو الممالك الطائفية؟، وكيف أثرت معركة الزلاقة والانتصار الكبير للمسلمين على النصارى في مسار حركة الاسترداد ؟.

- هل كانت هذه العلاقات التي بادر المسلمون بربطها مع نصارى الشمال في خدمة الطرف الاسلامي أم أنّها كانت وسيلة فعّالة، استخدمها ملوك النصارى لتدعيم طموحاتهم في استرداد الأندلس والقضاء على الوجود الاسلامي فيها؟.
- هل لسياسة ملوك الطوائف علاقة بنهاية وجودهم في الأندلس، كنظام سياسي فرض نفسه على الأندلس الإسلامية ما يقارب القرن من الزمن؟.

من الثّابت أنّ عصر ملوك الطوائف في الأندلس، لم يلق نصيبه الذي يستحق من الدراسة والبحث لأنّ كثيرًا من الباحثين اعتبروه فترة تاريخية عابرة، إمّا استمرارًا لعهد بني أمية الذي يسبقه، أو مقدمة لعصر المرابطين الذي يليه[1] ولمّا كانت الفرقة والتشتّت سمة ذلك العصر، الذي تميّز بتعدّد الكيانات السياسية الإسلامية وحتى النصرانية وتداخل الأحداث وتشابكها، فقد كان عصر الطوائف عمومًا فترة ينفر الباحثون والمؤرخون من دراستها، وتبعًا لهذه الأسباب، كان إهمال موضوع العلاقات السياسية بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة.

ومع ذلك، فهناك بعض المحاولات الجادّة التي قام بها بعض المستشرقين في هذا المجال، مثل العالم الهولندي رينهارت دوزي Dozy الذي ركّز اهتمامه على دراسة عصر ملوك الطوائف، وأظهر إعجابه بالرّقي الحضاري الذي بلغه المسلمون في هذا العصر[2]، ورغم الفائدة العظيمة لمصنفات دوزي فهي تفتقد إلى التنظيم ووضوح الرؤية، حيث ضاعت صورة العلاقات السياسية بين المسلمين والنصارى، في ثنايا التفاصيل الدقيقة للأحداث التي ساقها. وحاول المؤرخ الفرنسي بيرسو Buresi إلقاء الضوء على جوانب عديدة من هذا الموضوع في كتابه الحدود بين المسيحية والإسلام في اسبانيا[3] لكنّه ركّز على الفترة التي أعقبت سقوط طليطلة في يد النصارى الاسبان، وبداية التدخّل المرابطي في شبه الجزيرة الايبيرية، أمّا الدراسات العربية لهذا الموضوع، فجاءت مجزّأة تخصّ مملكة

---

[1] ابن عبود امحمد : **التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف**، المعهد الجامعي للبحث العلمي تطوان ، 1983، ص5.

[2] للمؤرخ دوزي عدّة مؤلفات في هذا المجال أخص بالذكر:

-**Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711-1110).** T3.T4. Leyde.1961.

- **Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen age.** T2. Leyde. 1860.

-**Le cid d'après de nouveaux documents.** Leyde. 1860.

[3] Buresi. P. **La frontière entre Chréstienté et Islam,dans la péninsule Ibérique.** éditions publibook. Paris. 2004.

طائفية أو مدينة أندلسية بعينها وعلاقتها بالممالك النصرانية في الشمال، كدراسة سحر عبد العزيز سالم لمدينة بطليوس الاسلامية[1]، أو دراسة أحمد بن عبود للتاريخ السياسي والاجتماعي لمدينة اشبيلية في عهد الطوائف[2]، في المقابل قام رجب محمد عبد الحليم بدراسة العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية في عهد بني أمية وملوك الطوائف[3]، ومع أنّها لا تخلو من فائدة، إلاّ أنّه ركّز على عهد بني أمية و لم يخصص لعلاقات ملوك الطوائف بالنصارى سوى واحد وستين صفحة من كتابه، كما نجده كثيرًا ما ينساق وراء الأحداث التاريخية دون تمحيص وتدقيق ويكتفي بنقل الكثير من الأخبار من المراجع دون أن يكلّف نفسه عناء البحث عنها في المصادر الأصلية .

إنّ الاحاطة بجميع مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية خلال القرن 5هـ/ 11م، أمر صعب المنال إن لم يكن مستحيلاً، ذلك أنّ هذه العلاقة لم تكن بين دولتين بذاتهما، إحداهما اسلامية والأخرى نصرانية، بل كانت بين ممالك وإمارات إسلامية عديدة، بلغ تعدادها ستاً وعشرون مملكة وإمارة، مع بضع دول نصرانية في الشمال الاسباني، لذلك سيتم التركيز في هذا البحث على أهم الممالك الطائفية في الأندلس وعلاقتها بالممالك الإسبانية ، باعتبارها الأكثر بروزًا في ربط العلاقات مع النصارى، ولأنّ الممالك الصغرى –والتي هي أقرب إلى الامارات منها إلى الممالك– كان تأثيرها محدودًا جدًّا في رسم هذه العلاقات، لدرجة أنّ المصادر التاريخية صرفت أنظارها عن الحديث عنها. وبناءً على هذه الاعتبارات التي فرضت نفسها بقوة على الموضوع قسّمت بحثي هذا إلى ثلاثة فصول:

تناولت بالدراسة والبحث في الفصل الأول، موضوع العلاقات السياسية بين الممالك الاسلامية الثغرية و ممالك اسبانيا النصرانية، لأنّ هذه الممالك الثغرية كانت تعيش وضعًا خاصًّا، حتّم عليها الاحتكاك أكثر من غيرها مع النصارى، بحكم موقع الجوار أولاً، والإرث التاريخي الذي حملته هذه الثغور ثانيًا، حيث كانت قبل هذه الفترة (القرن 5هـ/11م)، ولايات ثغرية في عهد الدولة الأموية في الأندلس، مهمتها الأساسية صد العدوان النصراني عن باقي المدن الأخرى، وخطًّا دفاعيًا يحمي العمق الأندلسي من الأخطار الخارجية، وبدأت بالثغر الأعلى، الذي تمثله مملكة سرقسطة، والتي

---

[1] نشر مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، دون تاريخ.

[2] نشر المعهد الجامعي للبحث العلمي، تطوان، 1983.

[3] نشر مشترك بين دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، القاهرة، بيروت، د.ت.

وجدت نفسها محاطة بالممالك النصرانية من عدة جهات، مما حتّم عليها تبني سياسة دقيقة نحو هذه الممالك كي تحافظ على وجودها، سواءً في عهد الأسرة التُجِيبية أو عهد خليفتها أسرة بني هود. أما مملكة الثغر الأوسط طليطلة، والتي كانت تحت حكم أسرة بني ذي النون،فكانت أوضاعها مختلفة نوعًا ما لأنّ التهديد النصراني لها جاء متأخّرًا قليلا عن التهديد الذي لحق بمملكة سرقسطة، لكنّه كان أشدّ خطورة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، بسبب الرغبة الجامحة لملوك اسبانيا في استرجاع طليطلة عاصمة أجدادهم القوط . وفي المقابل أيضا، نال الثغر الغربي نصيبه من الدراسة والبحث، من خلال تتبُّع علاقات مملكة بطليوس مع ملوك اسبانيا النصرانية طيلة حكم أسرة بني الأفطس، وحتى سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس سنة 478هـ/ 1085م.

أمّا الفصل الثاني، فخصّصته للعلاقات السياسية بين أهم الممالك الاسلامية الأخرى غير الثغرية وممالك اسبانيا النصرانية، وركزت على مملكة اشبيلية التي كانت من أقوى الممالك الطائفية وأشهرها، ورغم بعدها جغرافيا على الممالك النصرانية، فإنّ قوة بعض هذه الممالك جعل نفوذها يمتد إلى مملكة اشبيلية ويجبرها في كثير من الأحيان على القبول بشروط النصارى، وقد بدأت هذه العلاقات السياسية بين الجانبين منذ عهد مؤسس هذه المملكة القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد (414-433هـ)/(1023-1041م)، واستمرت حتى فترة حكم حفيده المعتمد بن عباد (461-484هـ)/(1069-1091م) آخر ملوك هذه الأسرة. وبعدها فرغت لدراسة مملكة غرناطة وعلاقتها مع الممالك النصرانية حيث تشابهت أوضاعها بشكل كبير مع أوضاع اشبيلية، لذلك سعت لنفس الأسباب تقريبا في ربط علاقات مع الممالك النصرانية الاسبانية. أما مملكة بلنسية، فكانت أوضاعها خاصة جدًّا، فهي المملكة الوحيدة التي امتدت دراستها في هذا الفصل إلى ما بعد سنة 478هـ/1085م وذلك لأنّ مملكة بلنسية كانت خلال القرن 5هـ/11م عرضة للتجاذبات والمناورات بين الممالك الطائفية في الأندلس والممالك النصرانية الاسبانية، فعرفت نتيجة لذلك محنة شديدة أدت إلى وقوعها فريسة لمغامرات السيد الكمبيادور (القنبيطور)، الفارس المغامر القشتالي طيلة خمسة عشر سنة كاملة.

أمّا الفصل الثالث، فاختلفت طريقة معالجته، حيث تطرقت فيه للعلاقات السياسية بين ملوك الطوائف وملوك اسبانيا في فترة ما بعد معركة الزلاقة 479هـ/1086م، حيث أنّ التقسيم الذي استند إلى أساس جغرافي في الفصلين الأول والثاني لم يعد يجدي نفعًا، بحكم أنّ جميع الممالك الطائفية أصبحت تواجه مصيرًا مشتركًا وتستشعر الخطر المحدق بها، لذلك عرفت العلاقات بين المسلمين والنصارى مرحلة جديدة في ظل تدخل المرابطين في هذا الصراع وبداية النهاية لعصر ملوك الطوائف.

من المعروف أنّ طريق البحث العلمي صعب وشاق ويحتاج إلى صبر وأناة، ولا أريد هنا أن أسترسل في ما اعترضني من صعاب، لأنّها خاصية مشتركة يصادفها كل باحث سيما إذا كان يقتحم غمار البحث التاريخي لأول مرة، لكني سأقتصر على معوّق أساسي اعترض سبيلي في جميع مراحل البحث، وأعني بذلك، شح المصادر والمراجع التاريخية بالمادة العلمية الكافية لمعالجة هذا الموضوع، مما استدعى منّي جهدًا مضاعفًا لجمع كل شاردة وواردة تتعلق بموضوع العلاقات السياسية بين المسلمين والنصارى خلال هذه الفترة، وتطلّب منّي تركيب وترتيب العديد من النصوص التاريخية لاستنباط وتحليل العديد من الأحداث التاريخية.

ولا أدّعي أنّي أوفيت هذا الموضوع حقّه، وإنّما أعتبر نفسي بهذا الجهد أنّي وضعت لبنة أساس من شأنها أن تنير الطريق أمام الباحثين لمزيد من التعمق في هذا الموضوع الشائك من تاريخ الأندلس.

وفي الأخير لا يسعني إلاّ أن أشكر أستاذي الدكتور عبد العزيز فيلالي على ما أحاطني به من رعاية وفضل طيلة مدة إنجاز هذه المذكرة، كما أشكره على علمه وتواضعه، وأسأل الله تعالى أن يجازيه عني وعن العلم والعلماء خير الجزاء. كما لا يفوتني أن أشكر كل من مدّ لي يد المساعدة لانجاز هذا البحث، فلهم منّي جميعًا جزيل الشكر والثناء، والله الموفق والهادي إلى سبيل الرشاد.

ب- عرض وتحليل لأهم المصادر والمراجع:

اعتمدت في إنجاز بحثي هذا على مجموعة كبيرة من المصادر التاريخية العربية، التي اختلفت درجة استعمالها بشكل متفاوت، كما استأنست بالعديد من المراجع المهمة التي لها صلة بالموضوع وسأقتصر هنا على أكثرها أهمية وفائدة لهذا البحث.

1- المصادر:

إنّ مصادر دراسة تاريخ عصر الطوائف عمومًا وفيرة إذا ما قورنت بعصر الدولة الأموية، ومع ذلك نجد اهتمام الباحثين والدارسين لتاريخ الأندلس متجه نحو عهد الدولة الأموية أكثر. مع أنّ هذه المصادر لا تفيدنا في جوانب عديدة من هذا الموضوع، لأنّها ركّزت على التأريخ لملوك الطوائف وأهملت موضوع العلاقات التي ربطت المسلمين بالنصارى إلاّ من تعلّق منها بالأحداث البارزة كمعركة الزلاقة على سبيل المثال. فهناك حقيقة أخرى، وهي أنّ هذه المصادر الموجودة لم تُستغل بطريقة علمية، ولم يتم الاستفادة منها بالقدر الكافي، ربّما لأنّها لا تحتاج إلى معالجة بمناهج معينة ورغم ذلك، فهذه المصادر لا تخلو من فائدة عظيمة خصوصًا تلك المعاصرة للقرن 5هـ/ 11م أو القريبة منه. ومن هذه المصادر نذكر:

أ- كتب التاريخ العام:

- **كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام، وما يجر ذلك من شجون الكلام** للسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة 776هـ/1374م)، ولهذا المؤرخ والوزير والشاعر عشرات الكتب في شتى أنواع المعارف والفنون ما يهمنا منها أكثر، هو كتاب أعمال الأعلام، الذي يعتبر موسوعة تاريخية عامة، عظيمة الفائدة، اعتمدت بشكل أساسي على الجزء الخاص بتاريخ الأندلس الذي نشره المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال سنة 1934م، وأعادت مكتبة الثقافة الدينية نشره مصوّرًا عن طبعته الأولى، ويتضمّن الكتاب، الكثير من التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالأوضاع الداخلية والخارجية لممالك الطوائف خلال القرن 5هـ/11م، والسياسة التي انتهجتها هذه الممالك نحو اسبانيا النصرانية، كما ينفرد كتاب أعمال الأعلام، بين المصادر العربية باحتوائه على مختصر لتاريخ الممالك النصرانية الاسبانية مثل قشتالة وأراغون، والبرتغال[1].

- **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب: لابن عذاري المراكشي** (كان حيا سنة 712هـ/1312م)، ويعتبر هذا الكتاب من المراجع الأساسية في البحث، خاصة الجزء الثالث منه المتعلق بتاريخ ملوك الطوائف. سمح لي هذا الكتاب بوضع تصوّر دقيق حول الفتنة الأندلسية في مطلع القرن 5هـ/11م، أو فتنة محمد بن هشام،كما يحلو له تسميتها، إضافة إلى التفاصيل الهامة التي تعرض لها ابن عذاري، كوقعة بطرنة، أو علاقات بعض الممالك الطائفية بالممالك النصرانية الاسبانية. أما الجزء الرابع، الذي أعاد نشره إحسان عباس، فهو أيضا عظيم الفائدة، ومن المؤسف أنّه وقع بمخطوطة هذا الجزء، خُرم كبير ضاعت به أخبار الأحداث بين عامي (469- 495هـ)/(1076-1101م)، وفيها الكثير من التفاصيل حول علاقة ملوك الطوائف بالنصارى في ظل الوجود المرابطي بالأندلس. ويتميز ابن عذاري بالدقة في كتاباته والتجرد والموضوعية إلى حدّ بعيد، وممّا زاد من قيمة هذا الكتاب اعتماده على عدة مصادر تاريخية معاصرة لفترة ملوك الطوائف، ضاعت معظمها، مثل كتاب المتين للمؤرخ الكبير ابن حيان، وكتاب البيان الواضح عن الملّم الفادح لمحمد بن علقمة، الذي خصصه لسقوط مدينة بلنسية في يد النصارى والمحنة الشديدة التي تعرضت لها.

- **كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء: لابن الكردبوس التوزري**، ومعلوماتنا عن صاحب هذا الكتاب قليلة جدًّا، وكل ما هو معروف عنه أنّه عاش في مدينة توزرْ التونسية في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، أمّا كتابه الاكتفاء، فلا يزال معظمه مخطوطًا، نشر أحمد مختار العبادي الجزء

---

[1] العبادي احمد مختار: **في تاريخ المغرب والأندلس**، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت ، ص342.

الأندلسي منه في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، ونقل لنا هذا الكتاب مادة خصبة حول علاقات ملوك الطوائف بالنصارى الاسبان، تمتاز في مجمله بالدقة وعمق النظر، بل إنّه كثيرًا ما يأتي بمعلومات جديدة لا نجدها في المصادر التاريخية الأخرى.

– **الحلل الموشية في الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول** : لا نعرف شيئا عن مؤلف هذا الكتاب، وقد نُسب خطأً لابن الخطيب، ونسبه آخرون إلى أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء بن سماك المالقي، مع أنّه ليس هناك ما يُثبت ذلك، لكننا نعلم أنّ مؤلف الحلل أندلسي، ألّفه في غرناطة، وكان معاصرًا لابن الخطيب، وعاش على أيام محمد الخامس الغني بالله. والكتاب يقدم لنا معلومات وافرة عن الصراع بين المسلمين والنصارى الاسبان في الفترة التي سبقت التدخل المرابطي في الأندلس، والأحداث التي صاحبت عبورهم إلى هناك[1] أو تلتها، ويركز بشكل واضح على المراسلات التي تمت بين ملوك الطوائف أو المرابطين مع ألفونس السادس ملك قشتالة، والظاهر أنّ منصب صاحب هذا الكتاب، قد سمح له بالاطلاع على العديد من الوثائق، التي استخدمها في كتابه.

– **المعجب في تلخيص أخبار المغرب: لعبد الواحد المراكشي** (المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، الثاني عشر ميلادي)، ويتناول الكتاب في معظمه تاريخ دولة الموحدين التي نشأ المؤلف في كنفها، وقدم له بمقدمة موجزة في تاريخ المغرب والأندلس منذ الفتح العربي فصار كتابه تاريخًا عامًا للأندلس، وقام بتأليف كتابه هذا بالمشرق، بعيدًا عن كتبه ودفاتره التي تركها خلفه في الأندلس، فجاء كتابه متداخل الأحداث مضطرب التواريخ، لأنّه اعتمد على ذاكرته بصورة خاصة في سرد الكثير من الأحداث التي لم يعاصرها المؤلف، ومع ذلك، فالكتاب لا يخلو من قيمة تاريخية هامة في توضيح بعض الجوانب من علاقة مملكة اشبيلية والممالك النصرانية في عصر الطوائف.

2– الكتب الأدبية:

– **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: لابن بسام الشنتريني** (المتوفى سنة 542هـ/1147م)، وهذا الكتاب هو موسوعة أدبية تاريخية تضمنت التراث الأدبي للقرن 5هـ/ 11م في الأندلس لأنّ الهدف من تأليفه هو التعريف بأهل الأدب الأندلسي[2]، ولما كان ابن بسام أديبًا وليس مؤرخًا، فقد اعتمد في الجزء التاريخي من كتابه على كتاب المتين لابن حيان، وعلى بعض الشهادات لمن عايش أحداث القرن

---

[1] أحمد مكي الطاهر: **دراسة ببلوغرافية لكتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية**، حوليات كلية العلوم، جامعة القاهرة، العدد الخامس، 1974/ 1995م، ص29.

[2] بالنشيا أنخيل جونثابث: **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت، ص290.

الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، لذلك جاءت معلوماته التاريخية غاية في الدقة، والكتاب عموما مصدر أساسي لدراسة عصر ملوك الطوائف في الأندلس.

– **قلائد العقيان في محاسن الأعيان: للفتح بن خاقان** (توفي 529هـ/1134م)، وتضمّن هذا الكتاب تراجم لشخصيات أندلسية لم ترد في كتابه الآخر مطمح الأنفس، مثل المعتمد بن عباد ووزيره أبو بكر بن عمار، ولم يهتم بن خاقان بسيرة حياة الشخصيات التاريخية بقدر اهتمامه بإنتاجهم الأدبي من نظم وشعر، ورغم ذلك فهذه المعلومات ذات فائدة في إلقاء الضوء على سياسة بعض الشخصيات البارزة نحو الممالك النصرانية كالوزير أبو بكر بن عمار.

3– كتب السير والتراجم: وهي كثيرة ومتعددة، تختلف درجة استغلالها في هذا البحث من مصدر لآخر أذكر منها كتابين:

– **الحلة السيراء :لابن الأبار البلنسي** (المتوفى سنة 658هـ/1260م)، وتضمّن كتابه الكثير من الأدب والشعر والتاريخ، وهو يتناول أخبار المغرب والأندلس منذ الفتح الاسلامي إلى منتصف القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، استفدت بشكل خاص من الجزء الثاني، الذي ترجم فيه لأبرز الشخصيات التي عاشت في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وعالج بعض الأحداث بمنهج نقدي أقرب ما يكون إلى المناهج الحديثة خاصة ما تعلق منها بسقوط بلنسية في يد السيّد الكمبيادور ومحنة القاضي ابن جحّاف .

– **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لابن خلكان** (المتوفى سنة 681هـ/ 1282م)، وهو كتاب تراجم رتّبه على السنين، تعرّض فيه لعدة شخصيات أندلسية ومغربية إضافة إلى الشخصيات المشرقية بالطبع، وقد أعطى تفاصيل دقيقة حول بعض الأحداث التاريخية التي تدخل في إطار الصراع بين المسلمين والنصارى، كمعركة الزلاقة .

4– المذكرات: ونجد مؤَلَّفًا وحيدًا يرجع إلى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهو **كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة،** للأمير عبد الله بن بُلُّكين بن زيري أمير غرناطة وأحد ملوك الطوائف (حكم ما بين 465–483هـ)/(1072–1090م)، وللكتاب فائدة عظيمة ليس لأنّ مؤلفه عاش في القرن الخامس الهجري فقط، بل لأنّه شارك في الكثير من الأحداث البارزة آنذاك، ويعالج الكتاب قيام دولة بني زيري في غرناطة وتطورها، وصراعاتها الداخلية وصداماتها مع دول الطوائف الأخرى مثل اشبيلية، ويركّز أيضا على علاقات دول الطوائف مع الممالك النصرانية في شمال اسبانيا والسياسات التي انتهجها الطرفان لتحقيق مصالحهما، ورغم أنّ عبد الله

الزيري، عالج بعض القضايا بحذر شديد خاصة ما تعلق منها بيوسف بن تاشفين، إلاّ أنّه تعرّض لقضايا أخرى عديدة بحرية أكبر. وقد اعتمدت على هذا الكتاب في تحليل الكثير من القضايا في الفصل الثالث من هذا البحث.

5- كتب الجغرافية أو المسالك والممالك:

- ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك: لأحمد بن عمر العذري (المتوفى سنة 478هـ/1085م) ، وعاش العذري بمدينة المرية وبها مات، واهتم بعلم الحديث أكثر من اهتمامه بعلم الجغرافية أو المسالك والممالك، ورغم أنّ هذا الكتاب جغرافي بالأساس إلاّ أنّه ضمّ بعض الأخبار التاريخية الهامة، زاد من قيمتها أنّه معاصر لها.

- الروض المعطار في خبر الأقطار: لابن عبد المنعم الحميري (المتوفى سنة 866هـ/1461م)

لا توجد معلومات كافية عن مؤلف هذا الكتاب، وقد عثر الأستاذ ليفي بروفنسال على مخطوطة الكتاب، فانتخب منها المادة الخاصة بالأندلس ونشرها في معجم جليل الفائدة سنة 1938، بعنوان صفة جزيرة الأندلس، والكتاب يضمّ معظم الأعلام الجغرافية الهامة التي يتردّد ذكرها في كتب التاريخ الأندلسي. أفدت منه بشكل خاص في الوقوف على تفاصيل هامة تتعلق بمعركة الزلاقة وفي تخريج أسماء بعض الأماكن الجغرافية في الأندلس.

2- المراجع:

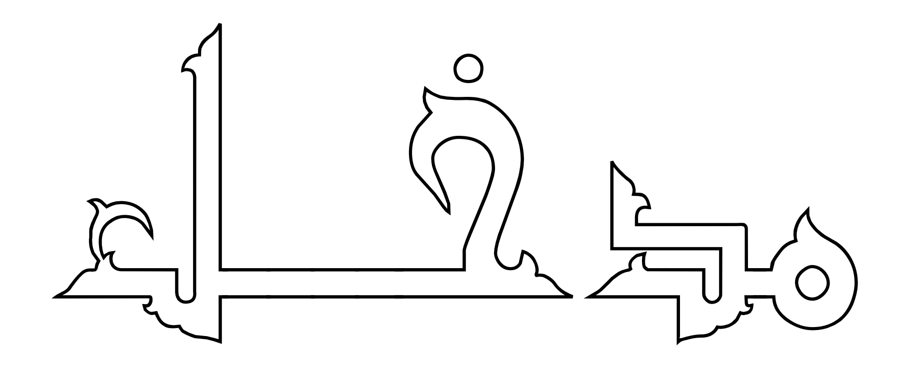
- دول الطوائف لمحمد عبد الله عنان: وهو كتاب ضخم جاء ضمن سلسلة دراسات لدولة الاسلام في الأندلس، اعتمد فيه صاحب الكتاب على مختلف المصادر الاسلامية المطبوعة وبعض المصادر الأخرى التي كانت آنذاك مخطوطة، كما استند في كتابه إلى العديد من المصادر والدراسات الأجنبية، ساعده في ذلك تحكّمه في اللغة الاسبانية، والكتاب عمومًا ذو أهمية بالغة للمهتمين بالتاريخ الأندلسي في عصر ملوك الطوائف

- العلاقات بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، لمحمد رجب عبد الحليم: ورغم أنّ الكتاب في أصله دراسة أكاديمية، إلا أنّ صاحبه لم يولِ اهتمامًا كبيرًا لعصر ملوك الطوائف، واعتبره امتدادًا لعصر بني أمية، فلم يخصص للعلاقات السياسية بين ملوك الطوائف وملوك اسبانيا سوى صفحات قليلة بالنظر لما خصّصه لعصر بني أمية، ورغم ذلك فالكتاب كان مفيدًا في بعض الجوانب التي ناقش فيها المؤلف بعض الأحداث البارزة في علاقات المعتمد بن عباد بالملك ألفونس السادس، كحادثة مقتل ابن شاليب اليهودي وغيرها من القضايا.

– **التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد ملوك الطوائف لامحمد بن عبود**: وهي في أصلها رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ، كتبت أصلاً باللغة الانجليزية ثم قام صاحبها بترجمتها إلى اللغة العربية. وقد شدّني لهذا الكتاب، الأسلوب والمنهج الذي اعتمده المؤرخ المغربي في دراسة تاريخ مملكة اشبيلية في عصر الطوائف وهي دراسة جادة، رغم أنّ صاحبها لم يركّز كثيرًا على علاقات اشبيلية بالممالك النصرانية.

– **السيّد من خلال وثائق جديدة لرينهارت دوزي**: وقد رجعت إلى النسخة الفرنسية من هذا الكتاب الذي فصّل فيه صاحبه في علاقات السيّد الكمبيادور الفارس القشتالي بالمسلمين، وسياسته التي انتهجها في شرق الأندلس واستيلاؤه على مملكة بلنسية، وكان عظيم الفائدة لهذه الدراسة خاصة لإبراز صورة العلاقات السياسية بين مملكة بلنسية والممالك الاسبانية النصرانية.

– **تاريخ المسلمين في الأندلس لنفس المؤرخ الهولندي دوزي،** حيث رجعت إلى الجزء الثالث والرابع منه وقد تضمّن هذا الكتاب الكثير من المعلومات التاريخية الدقيقة خصوصًا أنّ معرفة دوزي باللغة العربية سمحت له بالاطلاع على مختلف المصادر الاسلامية الأندلسية، وتوظيفها في إخراج هذا الكتاب الذي يعتبر أول دراسة جادة لعصر ملوك الطوائف في الأندلس.


مدخل

مدخـــــــــــل:

من النادر في التاريخ الإسلامي أن نجد دولة انهارت وسقطت، وتَمَكَّن أحد من إعادة إحيائها من جديد في منطقة أخرى تبعد عنها آلاف الأميال، كما حدث للدّولة الأموية في دمشق، التي استطاع عبد الرحمان بن معاوية المعروف بالداخل، بعثها في الأندلس منذ سنة 138هــ/755م، و لم يمر على سقوطها في المشرق سوى ستّ سنوات، كما لم يسبق في التاريخ أيضا لدولة ضاربة في الحضارة مثل الدولة الأموية في الأندلس، أن تفكّكت أواصرها الداخلية وانتثرت بنيتها السياسية إلى أجزاء مستقلة، مثلما حصل في الأندلس خلال ق5هــ/11م [1].

لا شكّ أنّ طبيعة المجتمع الأندلسي، الذي تميّز بتعدّد أعراقه وقومياته من عرب وبربر وصقالبة ومولّدين وأسبان، قد ساهم في عدم تجانسه وظهور بوادر الفرقة والاختلاف كلّما سمحت الفرصة بذلك، فقد استطاع المنصور بن أبي عامر (366-392هــ)/(976- 1002م) بدهائه وقوته، احتواء معظم هذه العناصر، وضَرَب بعضها ببعض، واستكثر في جيوشه من البربر للحدّ من نفوذ العرب الذين أصبحوا طبقة أرستقراطية فقدت مزاياها الحربية[2]. فانشغلت بتدبير الدّسائس والمؤامرات، لكنّه زرع بسياسته هذه بذور خلاف بين هذه العناصر المتنافسة، سرعان ما تحوّل إلى فتنة مبيرة أدّت إلى اندلاع حرب أهلية في الأندلس مهّدت للانقسام وظهور ممالك الطوائف.

لقد استطاع المنصور بن أبي عامر مدّ حدود دولة الإسلام في الأندلس إلى مناطق لم تصلها حتى في عهد الناصر (300-350هــ)/(912-961م) والمستنصر(350-366هــ)/(961-976م)، وأجبر بحملاته العديدة، ملوك النصارى في شمال اسبانيا على الخضوع لإرادته والقبول بسلطته[3]. ولئن استمرّ هذا الوضع في عهد خلفه عبد الملك المظفّر (392- 399هــ)/ (1002- 1008م)، الذي نهج نفس سياسة أبيه المنصور، فإنّ الوضع تغيّر بشكل جذري منذ وفاته، وانتقال الحجابة إلى أخيه عبد الرحمان[4] .

---

[1] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 25.

[2] فيلالي عبد العزيز: **العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب**، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، 1983، ص227.

[3] لتفاصيل أكثر حول غزوات المنصور بن أبي عامر وانتصاراته على نصارى الشمال الاسباني راجع:
ابن الخطيب لسان الدين: **كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام** ،تحقيق ليفي بروفنسال نشره تحت عنوان: **تاريخ اسبانيا الإسلامية**، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، 1424هــ/2004م ، ص 59- 83.

[4] أُطلق عليه هذا الاسم من قِبل أمّه تصغيرًا لاسم أبيها شانجة أي سانشويلو **Sanchuelo** (شنجول)كونه كان أشبه الناس به ، ومعروف أنّ أمّ عبد الرحمان كانت بنت شانجة الثاني ابن غرسية الأول ابن شانجة الأول الملقب =

لم يكن عبد الرحمان من صنف أبيه المنصور أو أخيه عبد الملك في الشجاعة والحزم وبُعدِ النّظر وتطلّع إلى ما لم يتطلّعا إليه، وهو وراثة العرش الأموي، والاستئثار بما تبقّى من رسوم الخلافة رغم أنّ مقاليد السلطة كانت بين يديه، فَحَمَلَ الخليفة هشام المؤيد[1] على أن يتعهّد له بولاية العهد، و لم يجد الخليفة هشام بدًّا من تلبية رغبته لضعفه وسوء تدبيره ونقصان فطرته[2].

من الطبيعي أن يُثير هذا التصرّف من عبد الرحمان شنجول مشاعر الأمويين ويزيد من مخاوفهم وحقدهم الشّديد على العامريين، وكان لديهم من الأسباب الكافية لتتغيّر نفوسهم عليهم، فهم قد أُبعدوا من الوظائف الإدارية، وتمّ إقصاؤهم من المناصب الهامة في الجيش لصالح البربر، منذ أيام المنصور بن أبي عامر، وجاء ابنه عبد الرحمان ليقضي على ما تبقى لهم من مكانة معنوية داخل المجتمع القرطبي من خلال استفزازهم والتدخّل في شؤونهم الخاصة[3].

ويبدو أنّ العوامل السابقة مجتمعة، هي الأسباب الحقيقية لظهور الفتنة التي سميت بالفتنة البربرية[4] داخل المجتمع القرطبي، والتي سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية بين الأمويين ومن ناصرهم من

= بأباركا **Sancho Garcés II (Abarca)** ، وكان أبوها قد قدّمها زوجة للمنصور بن أبي عامر فأسلمت وأنجبت له عبد الرحمان. وقد أعقب هذا الزواج حلف بين البشكنس (إقليم الباسك حاليا في شمال اسبانيا) وقرطبة وأقبل شانجة في زيارة رسمية لقرطبة سنة 382هـ/992م. أنظر: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 66 ، ابن الأبار: **الحلة السيراء** تحقيق حسين مؤنس ، ط2، دار المعارف ، القاهرة، 1985م، ج1، ص 272، هامش رقم 1 ، ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، ط3، دار الثقافة بيروت 1983م، ج3، ص 38.

[1] استغلّ المنصور بن أبي عامر صغر سن هشام المؤيد وضعفه، واستأثر بالسلطة دونه، و لم يبق لهشام المؤيد سوى السلطة الروحية باعتباره خليفة المسلمين.

[2] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 38/3، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 90، فيلالي: **العلاقات** ، 251.

[3] يذكر ابن عذاري أنّ عبد الرحمان أمر أعيان قرطبة من الأمويين والعرب أن يتزيُّوا بالزّي المغربي، وأن يخلعوا قلانسهم الطوال المرقشة، التي كانوا يتباهون بها أمام العامة . أنظر: **البيان المغرب**، 48/3.

[4] هناك خلاف كبير بين المؤرخين في تحميل البربر المغاربة لوحدهم مسؤولية هذه الفتنة، والظاهر أنّ التسمية جاءت متأثرة بكتابات بعض المؤرخين من ذوي الميول الأموية كابن حزم الأندلسي(المتوفى سنة456هـ/1066م)، والمؤرخ الكبير ابن حيان القرطبي(المتوفى سنة496هـ/1079م). ويفضّل البعض استخدام مصطلح يُنصفُ البربر كالفتنة القرطبية أو فتنة محمد بن هشام بن عبد الجبار. أنظر على سبيل المثال: ابن عذاري: **البيان المغرب**، 76/3 ، فيلالي: **العلاقات** ، 255. وحول موضوع تحديد المسؤولية في قيام هذه الفتنة ، راجع : بوباية عبد القادر : **البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي): 300-422 هـ/912-1031م**، وهي رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الاسلامي الوسيط، بكلية العلوم الإنسانية والحضارة الاسلامية ، قسم التاريخ وعلم الآثار ، جامعة السانيا ، وهران، لسنة 1423هـ/2002م، ص 394-424.

الأندلسيين، والبربر أو المغاربة الوافدين إلى الأندلس، وقد ساعد على تأجيج هذا الصراع، ضعف السلطة المركزية في قرطبة منذ تولي عبد الرحمان شنجول، وهَوَانِ أمر الخلافة على الناس في ظلّ تنازل الخليفة هشام عن حق الأمويين فيها، والتصرفات الانتقامية العنيفة التي أبداها الخليفة الجديد محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي نحو البربر منذ توليه الخلافة سنة 499هـ/1009م[1].

فتح محمد بن هشام المهدي باب الفتنة على مصراعيه، ولا عجب أن يحمّله ابن عذاري المسؤولية عن حالة الفوضى التي عمّت قرطبة[2]، حيث تسارعت العامة للظفر بالبربر وقتلهم ونهب دورهم بعدما حرّضهم المهدي على التّنكيل بهم[3]، ولمّا أدرك البربر أنّهم فئة قليلة لا قِبَلَ لها بمواجهة العامة فرّوا إلى الثّغر والتفّوا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمان الناصر، وبايعوه بالخلافة وتسمّى بالمستعين بالله وذلك في شوال 399هـ/مايو 1009م[4].وانقسمت بذلك الأندلس إلى حزبين أو فريقين، حزب يؤازر سليمان المستعين[5]، وهم البربر، والحزب الآخر يؤيد محمد بن هشام المهدي وهم الأندلسيون.

كانت هذه الفتنة إلى غاية هذا التاريخ، فتنة داخلية بين المسلمين، لم تتدخّل فيها أطراف خارجية غير مسلمة، ومنذ ذلك الحين بدأت نذر الكارثة تلوح في الأفق حينما وجدت هذه الفتنة من يغذيها ويُلهب نارها، ونعني بذلك تدخل نصارى الشمال الاسباني في شؤون المسلمين بعدما بدأ كل طرف يستعين على خصمه بهؤلاء النصارى، فمهّدوا لهم الطريق لكي يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور، وأن يتعرّفوا على مواطن الضعف عند المسلمين، وأن ينفّذوا سياستهم في ضرب كل فريق بالآخر، وأن يستولوا في النهاية على المعاقل والحصون التي كان الناصر والمنصور قد أفنيا حياتهما في بنائها وشحنها بالسلاح والرجال، هذه الحصون التي كانت خطوطًا أمامية متقدمة لهجماتهما ضدّ

---

(1) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 112.

(2) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 50/3

(3) أمر محمد بن هشام بن عبد الجبار أن يُنادي في الناس : ((من أتى برأس بربري فله كذا، فتسارع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه...)). أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب**، 81/3.

(4) الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، تحقيق: صلاح الدين الهوّاري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت 1426هـ/2005م، ص 31.

(5) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 83/3.

نصارى الشمال وحاجزًا واقيًا يحمي المسلمين من أعدائهم[1].

تُشير المصادر بوضوح إلى سليمان المستعين، كأول من بادر إلى الاستعانة بالنصارى الاسبان لمحاربة الأندلسيين، للوصول إلى عاصمة الخلافة، فتمّ الاتصال بالكونت شانجة بن غرسية بن فرديناند Sancho Garcia (385-407هـ/(995-1017م) المعروف في المصادر العربية باسم (ابن مامة دونه) أمير قشتالة، الذي كان يُعدّ أقوى أمراء الشمال الاسباني آنذاك، وتمكّن البربر والنصارى من دخول قرطبة ،ووجد النصارى الفرصة مواتية للانتقام من المسلمين فأمعنوا في القرطبيين قتلاً، حتى قيل أنّ عدد القتلى تجاوز ثلاثين ألف شخص، وهي الوقعة التي تعرف بوقعة قنتيش[2]. وبذلك استطاع سليمان بن الحكم الوصول إلى السلطة في قرطبة وبُويع بالخلافة، فقامت دولته الأولى بفضل حراب الجنود النصارى، وعلّق ابن حيان على ذلك بقوله: ((دولة كفاها ذمًّا أن أنشأها شانجة))[3].

لا شكّ أنّ استعانة المسلمين بالنصارى ضدّ بعضهم البعض،كانت سابقة خطيرة، أثّرت بشكل أساسي على مجريات الصراع في الأندلس، لأنها أتاحت الفرصة لجيوش النصارى التوغل في قلب بلاد المسلمين والإطلاع عيانًا على ضعفهم وتفرّق كلمتهم، فكان من النتائج المباشرة لذلك سقوط هيبة المسلمين في أعين النصارى[4].

وكان من الطبيعي ألاّ يجد الطرف المهزوم بدوره حرجًا في اللّجوء إلى النصارى ما داموا قادرين على حسم الصراع لطرف دون آخر، وبالفعل اتّصل المهدي بأمراء برشلونة لطلب المساعدة، ورغم أنّ ريموند البرشلوني Raymond de Barcelone وأرمقند Armongol de Urgel ، قد أجابا المهدي إلى طلبه، لكنهما اشترطا في المقابل شروطًا قاسية على المهدي، منها تسليم مدينة سالم قاعدة

---

[1] عبد الحليم رجب محمد: **العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف** دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، القاهرة، بيروت، د.ت ، ص264.

[2] ذكر ابن حيان أنّه أُبيد في هذه الوقعة ما يزيد عن ثلاثة عشر ألف مسلم على أيدي النصارى. أنظر: ابن بسام: **الذخيرة في محسن أهل الجزيرة**،تحقيق سالم مصطفى البدري،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م القسم الأول، المجلد الأول ، ص25، ابن عذاري: **البيان المغرب،** 83/3، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 113.

[3] ابن حيان برواية ابن بسام: **الذخيرة،** ق1، مج1، 21.

[4] سمع بعض الناس عن شانجة بن غرسية بعد دخوله قرطبة في صحبة المستعين أنّه قال: ((...كنّا نظنّ أنّ الدين والشجاعة والحق من أهل قرطبة، فإذا القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم، وإنّما اتفق لهم من الظّهور والنصر بفضل ملوكهم، فلما ذهبوا انكشف أمرهم)). أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب،** 89/3 ، 90.

الثغر الأوسط[1]،والالتزام بدفع دينارين في اليوم لكلّ جندي نصراني، ومائة دينار للملك (القومس) وتوفير ما يلزمهم من طعام وشراب، وأن يكون لهم الغنائم من عسكر البربر ونسائهم وأموالهم، ومن الغريب أنّ المهدي وواضح الصقلبي قبلا بهذه الشروط المهينة في سبيل تحقيق أطماعهما الشخصية[2] .

استطاع المهدي وأنصاره بفضل هذه المساعدة العسكرية النصرانية[3]، هزيمة سليمان المستعين عند موضع يسمى عقبة البقر[4] El vacar في شوال سنة 400هـ/ 1010م[5] ، وتمكّن البربر من إحراز النصر في البداية، لكنّ فرار زعيمهم من المعركة أضعف روحهم القتالية، فانسحبوا من ميدان القتال وعادوا إلى مدينة الزهراء لأخذ عيالهم وأموالهم وتحرّكوا إلى جهة الجزيرة الخضراء. لكنّ المهدي صمّم على القضاء النهائي عليهم، فلاحقهم والتقى بهم عند وادي آره Guadiaro[6] في ذي القعدة عام 400هـ/ 1010م، ورغم التفوق العددي للأندلسيين وحلفائهم الإفرنج، كانت الهزيمة عليهم وذكرت بعض المصادر أنّ عدد قتلى الإفرنج بلغ ثلاثة آلاف قتيل[7]. ويبدو أنّ النصارى الإفرنج الذين دخلوا في هذه الحروب بناءً على مكاسب مادية، أقرب ما تكون إلى الارتزاق، لم يعودوا

---

[1] مدينة سالم: Madinaceli تقع شمال مدريد بنحو 153 كم، أخذت هذه المدينة اسم زعيم مغربي مصمودي اسمه سالم، منذ أيّام الفتح الإسلامي لاسبانيا. أنظر: ابن الكردبوس: **كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، حققه ونشره أحمد مختار العبادي رفقة نص آخر بعنوان: **تاريخ الأندلس لابن الكردبوس**، ووصفه لابن الشباط، نصّان جديدان معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ، 1971، ص60 ، هامش رقم (1).

[2] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 94/3.

[3] جاء في البيان المغرب أنّ عدد النصارى الذين انظمّوا للمهدي كان نحو تسعة آلاف رجل. أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب**، 96/3.

[4] عقبة البقر، تسمى اليوم El vacar ،وهو حصن على عشرين كم شمال قرطبة، وذكر كل من الادريسي وعبد الواحد المراكشي هذا الموقع باسم: دار البقر. أنظر: الادريسي: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، 1422هـ/ 2002م، ج2 ، ص580، عبد الواحد المراكشي: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة ، 1414هـ/ 1994م، ص47 ،أنظر أيضا: ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 8/2 هامش رقم (1)، فيلالي: **العلاقات** ، 258، هامش رقم (1).

Dozy.R. . **Histoire de Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête, de l'Andalousie par Almoravides (711-1110) .T.3.** .Leyde. 1861.p 295.

[5] الضبي: **بغية الملتمس** ، 30.

[6] وادي آره Guadiaro : يقع إلى الجنوب من مدينة رندة، ومتفرع عن وادي اللبن Guadalevi، ويصب في البحر المتوسط شمالي جبل طارق. أنظر: فيلالي: **العلاقات** ، 259، هامش رقم (2).

[7] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 98/3 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 115.

قادرين على تحمّل المزيد من الخسائر البشرية، فقرّروا العودة إلى بلادهم[1]. ومن المظاهر الغريبة التي تركت وقعًا كبيرًا على أحد المؤرخين، تحسّر أهل قرطبة وحزنهم الشديد على مفارقة النصارى حتى أنّهم كانوا يتبادلون بينهم عبارات العزاء أسفًا على رحيلهم وجزعًا من سيطرة البربر عليهم بعد ذهاب حماتهم النصارى[2].

بعد هذه الهزيمة فضّل المهدي تبنّي خطّة دفاعية عن طريق بناء خندق حول المدينة لمنع البربر من دخولها، وحاول حاجبه واضح الصقلبي[3] تنفيذ مناورة سياسية خطيرة داخل المدينة كلّفته حياته بعد ذلك، حيث انقلب على سيّده المهدي وتآمر مع بعض العبيد لقتله وبعث برأسه إلى البربر علّه يستميلُهُم ويقضي على الفتنة بعدما أخرج هشامًا المؤيّد وأجلسه على كرسي الخلافة، لكنّ البربر استمرّوا في مهاجمة قرطبة، فلجأ واضح إلى شانجة أمير قشتالة وعقد معه اتفاقًا باسم الخليفة هشام المؤيد، يقضي بتقديم أمير قشتالة المساعدة العسكرية لأهل قرطبة، مقابل تسليمه جميع الحصون التي استولى عليها الحكم المستنصر ومحمد المنصور وابنه عبد الملك المظفر، وكانت تزيد عن مائتي حصن[4] وتمّ تنفيذ هذا الاتفاق بحضور الفقهاء والقاضي والعدول، وكُتِبَت شروط التسليم فخرج الناس مستبشرين لمّا ضمنوا مساعدة النصارى[5].

ومن الضروري هنا، الوقوف قليلاً لتحليل بعض جوانب سياسة شانجة أمير قشتالة، لندرك أبعادها الحقيقية ودرجة تأثيرها على مستقبل الصراع بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

لقد قامت خطة شانجة على السعي لإطالة أمد الصراع بين المسلمين في الأندلس وتركهم يستنزفون قواهم الداخلية عن طريق الاقتتال، فنجده يبادر في البداية لمحالفة البربر ويقوي عزائمهم بما

---

[1] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 96/3 ، أنظر أيضا: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 116.

[2] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 99/3 ، رجب عبد الحليم : **العلاقات** ، 266 ، 267.

[3] واضح الصقلبي ، كان من موالي بني عامر ، لذلك سميّ أيضا واضحا العامري ، كان أيام الفتنة واليا على مدينة سالم والثغر الأوسط، تحالف مع محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي ، ثم تآمر عليه فقتله ، وتولى الحجابة لهشام المؤيد في دولته الثانية .أنظر : ابن عذاري: **البيان المغرب**، 76/3 ،85-91.أنظر أيضا : المراكشي : **المعجب** 47، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 114-116.

[4] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 103/3 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 117.

هذا و لم تذكر المصادر الاسلامية شيئًا عن أسماء هذه الحصون أو مواضعها، لكنّ المؤرخ الهولندي دوزي ذكر بعضًا منها معتمدًا على المصادر اللاتينية ومنها: **Coruna del conde, San-Estevan , Gormaz, Osma** . أنظر: **Dozy. R. Histoire. T.3.Leyde. 1861.p. 303**

[5] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 103/3 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، **117**.

قدّمه من مساعدات مختلفة، مكّنتهم من الاستمرار في مقاتلة الأندلسيين، ويرفض في المقابل محالفة الأندلسيين[1]، ثمّ يغيّر سياسته بشكل جذري، ويقبل التحالف معهم على أمل الحصول على العديد من الحصون، وليبعد الأندلسيين عن التحالف مع فرنجة برشلونة. وبذلك يكون شانجة أوّل من سنّ سياسة ضرب المسلمين بعضهم ببعض لإضعافهم من جهة والحصول على أكبر قدر من المكاسب من جهة أخرى، وستكون هذه الخطة في صميم السياسات الخارجية لملوك قشتالة بعد ذلك.

وبعد تسلّم شانجة المدن والحصون التي طالب بها، ترك حلفاءه القرطبيين يواجهون مصيرهم دون أن يتقدم لمساعدتهم. وحاول الحاجب واضح الصقلبي مصالحة البربر، فكان مصيره القتل[2] واستمرت الفتنة بين الأندلسيين والبربر حتى تمكن سليمان المستعين في شوال سنة 403هـ/1012م من دخول قرطبة في دولته الثانية[3].

استمرّ سليمان المستعين في حكم قرطبة مدة زادت عن ثلاث سنين[4] حتى قام عليه بنو حمّود[5] وقتلوه، وأقاموا خلافتهم في قرطبة في المحرم 407هـ/ يونيو 1016م[6]، وأظهر عليّ بن حمّود اللين والعدل بين سكّان قرطبة، ثمّ انقلب عليهم ومال إلى حزبه البربري، لمّا أحسّ ميلهم إلى الخليفة

---

(1) ابن عذاري: **البيان المغرب**،86/3.

(2) نفسه، 3/ 105.

(3) الحميدي(محمد بن أبي نصر): **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر** تحقيق: صلاح الدين الهواري،ط1، المكتبة العصرية، بيروت ، 1425هـ/ 2004م، ص31.

(4) ابن غالب (محمد بن أيوب): **فرحة الأنفس**: نشر المحقق قطعة منه بعنوان: **نص أندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة النفس لابن غالب**، تحقيق لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد1، الجزء2، ربيع الأول 1375هـ/نوفمبر 1955م ، ص 309.

(5) من أشهر أبناء هذه الأسرة، علي وأخوه القاسم أبناء حمود بن ميمون، من سلالة الأمير أبي حفص عمر بن إدريس الثاني، الذي كان يحكم بلاد غمارة بشمال المغرب الأقصى، وقد لاذ الحموديون كغيرهم من الأدارسة بالاختفاء في بلاد المغرب بين القبائل البربرية خشية على أنفسهم من فتك بني أمية وحلفائهم، واضطروا أن يتخلّوا عن نسبهم الادريسي العلوي، فاندمجوا في الوسط البربري وتخلقوا بأخلاق البربر وطبائعهم، حتى أصبحوا يتكلمون بلسانهم البربري الزناتي. أنظر: ابن بسام: **الذخيرة**: ق1، مج1، 59 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ،121 . فيلالي: **العلاقات** ، 262.

(6) الحميدي: **جذوة المقتبس** ، 32.

المرتضى[1] الذي أقامه خيران الصقلبي[2] بشرق الأندلس. وتجدّد الصراع بين العصبيتين الأندلسية والبربرية ، واعتبر الخليفة المرتضي من غدر القشتاليين لهشام المؤيد وتخلّفهم عن نصرته رغم ما أخذوه من حصون، وفضّل الاتّصال بفرنجة برشلونة، وأتى ريموند Rymond كونت برشلونة بنفسه مع منذر بن يحي التُّجيبي صاحب سرقسطة لمساعدة المرتضي في صراعه ضدّ بني حمود ومن حالفهم من البربر. ويسوق لنا ابن عذاري تفاصيل المؤامرة التي دبّرها خيران للتخلّص من المرتضي، وانتهت المواجهة بانتصار البربر وهزيمة الأندلسيين لما راموه من الغدر بخليفتهم [3].

وبعد هذا التدخّل الأخير لكونت برشلونة، لم تأت المصادر التاريخية، الإسلامية أو النصرانية على ذكر أي شكل من أشكال التدخّل النصراني في شؤون الأندلس في عهد خلفاء بني أمية الأواخر، حتى انتهت خلافتهم بشكل رسمي ونهائي سنة 422هـ/1031م، وجاء إعلان إلغاء الخلافة في قرطبة فرصة مواتية ليستقلّ كلّ قائد أو رئيس بناحيته ويؤسس لنفسه إمارة أو مملكة، فانقسمت الأندلس إلى عدّة إمارات وممالك متناثرة، عُرفت بدول الطوائف.[4]

وأتاح هذا الانقسام والتجزؤ الذي أصاب الأندلس الفرصة لنصارى الشمال الاسباني ليفرضوا إرادتهم على المسلمين، وينطلقوا في إحياء هدفهم القديم، ألا وهو استرداد الأندلس من أيدي المسلمين فيما عُرف في التاريخ الأندلسي بحرب الاسترداد، وهي الحلقة البارزة والمميزة للعلاقات التي ربطت المسلمين بالنصارى الاسبان طيلة القرن 5هـ/ 11م .

---

[1] هو عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله أحد أحفاد عبد الرحمان الناصر، أقامه خيران الفتى العامري سنة 407هـ/1016 لمناهضة الحزب البربري الذي يقوده علي بن حمود. أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب**، 121/3 رجب عبد الحليم : **العلاقات** ، 268.

[2] خيران الصقلبي: من فتيان الدولة العامرية الذين استبدّوا بحكم شرق الأندلس بعد ظهور الفتنة ، وحكم كورة مرسية. أنظر: ابن الأبار : **الحلة السيراء**، 63/1، الهامش.

[3] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 126/3 ، 127.

[4] Lévi Provençal .E . **L'Espagne Musulmane au Xême siècle**. Larose. Paris .1932. p.122.

حول الأصول العرقية لملوك الطوائف، راجع: Terrasse. H. **Caractères généraux des émirats espagnols du XI siècle.** Revue de l'occident musulman et la Méditerranée .Année 1966.volume2,Numéro1.pp.190-191.

الفصـــــل الأول :

الممالك الثغرية الإسلاميـــــة في الأندلس وعلاقاتها بممالك اسبانيا النصرانية.

1- التعريف بمدن الثغور (الحدود).

2- علاقات مملكة الثغر الأعلى بالممالك الاسبانية.

3- مملكة الثغر الجوفي وعلاقات طليطلة بمملكة قشتالــة.

4- مملكة بطليوس قاعدة الثغر الغربـــي وعلاقتها بالممالك النصرانيـــة.

1/ التعريف بمدن الثغور أو الحدود :

سقطت الخلافة الأموية بقرطبة سنة 422هـ/ 1031م[1] ، ونتج عن هذا السقوط ، تفكك الأندلس إلى عدة دويلات – كما سبق وأشرنا – حيث استقل كل أمير بمنطقته ، وأعلن عن حقّه فيها فدخلت الأندلس بذلك في عصر الطوائف أو عصر الفرق[2].

وكانت شبه الجزيرة الإيبيرية آنذاك مقسمة إلى شطرين، سيطر النصارى على الجزء الشمالي وبقي الجزء الجنوبي تحت سلطة المسلمين ، غير أن اللافت للنظر هو التغيُّر المستمر في الحدود الفاصلة بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة ، تبعًا لاتّساع حركة الاسترداد النصراني أو تراجعها ، فتبادل المسلمون والنصارى النصر والهزيمة مرات عديدة.

ولقد شاع ذكر الحدود الفاصلة بين بلاد المسلمين وبلاد النصارى باسم الثغور، فما هو مفهوم الثغور؟ وكيف تأثّرت بحركة الاسترداد النصراني، وهل استخدم مؤرخو الأندلس هذا المصطلح وذكروه في مؤلفاتهم ؟.

نحاول هنا في هذا الجزء من البحث أن نتعرض بالدراسة لمدن الثغور في الأندلس حتى نأخذ خلفية جغرافية عن سير الأحداث التاريخية التي عرفتها الأندلس خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ، وحتى نستوعب أيضا الدور الذي قامت به هذه المدن الاستراتيجية في تحديد العلاقة بين المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة الايبيرية ، ذلك أن هذه المناطق كانت أكثر احتكاكا من غيرها بنصارى الشمال الاسباني ، وكان لها السبق من غيرها من مدن وحواضر الأندلس الأخرى ، في ربط العلاقات السياسية أو القيام بمواجهات عسكرية ضد الممالك النصرانية المجاورة.

لذلك كانت الأندلس منذ فتحها المسلمون في نهاية القرن الأول الهجري ، دار جهاد وحرب وإذا كانت الغلبة للمسلمين طيلة القرون الأولى ، فإن الأمر بدأ يختلف مع مطلع القرن الخامس الهجري، وأضحى اختلال التوازن في القوة واضحًا ، فاتسعت حركة التوسع النصراني نحو الجنوب وأضحت الأندلس بذلك ثغرًا إسلاميا في مواجهة شبه دائمة مع الأعداء .

ولعلّ هذا المفهوم يتقاطع بشكل كبير مع ما ذكره ابن منظور في تعريف كلمة الثغر إذ يقول : ((...الثغر، الموضع الذي يكون حدًّا فاصلا بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من

---

(1) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 185/3.

(2) العبادي أحمد مختار: **صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس**، ط1،منشأة المعارف، الإسكندرية،2000 ص 93.

أطراف البلاد...))[1].

وبهذا المفهوم أيضا تناقل مؤرخو الأندلس هذا المصطلح وتداولوه في كتاباتهم ، فهذا المؤرخ الكبير ابن حيان يصف بطليوس بالثغر الغربي[2]، وعلى نهجه سار الجغرافي أحمد بن عمر العذري الذي أشار إلى توسط سرقسطة مدن الثغر[3]. لكن الأمر جاء أكثر وضوحًا في كتابات بعض المؤرخين المتأخرين كابن الأبار الذي فصل فيه حينما أشار إلى مدينة بطليوس وثغر الغرب[4] ، وابن خلدون الذي يصف صراحة مدينة طليطلة على أنها قاعدة الثغر الغربي[5]، فيما يذكر المقري في مواطن عديدة من كتابه نفح الطيب كلمة الثغر ، كلما أشار إلى مدن الحدود كطليطلة قاعدة الثغر الجوفي[6]. أو سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى[7].

وهذه عينة بسيطة جاءت في كتابات بعض المؤرخين، وهي تؤكد بما لا يدع مجالاً للشّك أن هذا المفهوم ، كان متداولاً في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ، أي في عصر ملوك الطوائف وما يزيد من قوة هذا الاستنتاج أن بعض هذه الكتابات لمؤرخين أندلسيين عاشوا خلال القرن الخامس الهجري، ومنهم ابن حيان (المتوفى سنة 469هـ/1076م).

ومن المهم هنا التأكيد على أنّ مصطلح الثغر أو الثغور كان شائعا منذ حكم الأمويين في الأندلس فهو إذن ليس وليد عصر الطوائف ، بل يعود إلى فترة أسبق ، ومن الضروري أن نعود قليلا إلى الوراء لنقف على تنظيم هذه الثغور وحدودها الجغرافية ، وقد انقسمت هذه الثغور أيام الأمويين إلى أربع جبهات :

---

[1] ابن منظور : **لسان العرب** ، دار المعارف ، القاهرة ، د .ت ،ج1،ص 486 ، (مادة : ثغر).

[2] ابن حيان نقلا عن ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2، مج2 ، 383.

[3] العذري : **نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار،والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك** ، تحقيق :عبد العزيز الأهواني،منشورات معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد، 1965 ، ص24.

[4] ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 96/2 ، 97.وتجدر الإشارة هنا أنّ ابن الأبار وابن خلدون والمقري جاءوا متأخرين عن القرن الخامس الهجري ، لكنهم أخذوا عن مؤرخين عاصروا هذه الفترة.

[5] ابن خلدون : **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، نشره المحقق باسم تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة ، دار الفكر، بيروت، ج4،ص206.

[6] المقري : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1408هـ/1988م ج1، ص440.

[7] نفسه ، 460/4.

أ- **الثغر الأعلى**: وهو الخط الدفاعي الأول في الشمال ، يمتد على طول وادي الابروEpro وقاعدته مدينة سرقسطة ، وكان هذا الثغر في مواجهة مملكة أراغون وإمارة برشلونة (قطالونيا) في شمال شرق اسبانيا.[1]

ب- **الثغر الأوسط**: وقاعدته مدينة سالم شمالي شرق مجريط (مدريد) ، في أعالي وأواسط نهر دويرة Duero.[2]

جـ- **الثغر الأدنى** : هو الخط الذي يلي الدويرة جنوبا ، ويمتد على نهر التاجو Tajo ، وقاعدته مدينة طليطلة ، وكان يواجه مملكة ليون ومنطقة جليقية في شمال غرب اسبانيا.[3]

د- **الوادي الكبير Gadalquivir** : وهو الوادي الذي تقع عليه عواصم الأندلس الكبرى مثل قرطبة واشبيلية[4].

على أنه يلاحظ أنّ هذا التقسيم ، قد طرأ عليه بعض التغير خلال عصر الطوائف تبعًا لما تقتضيه خصوصية تلك المرحلة ، فإذا كانت طليطلة وسرقسطة قد حافظتا على مكانتهما كقاعدتين للثغر الأدنى والأوسط ، فإن مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط قد فقدت هذه المكانة بعدما تحولت إلى مجرد مدينة تتبع مملكة طليطلة قاعدة الثغر الأدنى. كما نجد في المقابل ظهور مملكة بطليوس كقاعدة لثغر جديد في الغرب وهو الثغر الغربي ، الذي وجد نفسه في مواجهة غير متكافئة مع الممالك النصرانية التي ازداد خطرها على المسلمين بعد اتحادها تحت سلطة الملك فرديناند (427-458هـ)/(1035-1065م) ثم خليفته ألفونس السادس (465-502هـ)/(1072-1109م) من بعده، حيث شكل النصارى جبهة موحدة جعلت حركة الاسترداد في مقدمة أولوياتها[5].

شكّلت هذه الثغور خطًا دفاعيا يمتد من البحر المتوسط شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا على شكل قوس دائرة لا يلبث أن يتراجع نحو الداخل كلما استعاد النصارى المدن والحصون من المسلمين.

وتجدر الإشارة هنا إلى ظاهرة بارزة في الجغرافية الأندلسية ترتبط أساسا بالتقسيم الإداري الذي كان نقطة ضعف في ثغور الأندلس زمن الطوائف بقدر ما كان عامل قوّة في عصر الدولة الأموية أيام

---

[1] العبادي : **صور من حياة الحرب**. 14.

[2] نفسه، 14.

[3] نفسه، 14.

[4] نفسه، 14 .

[5] حول تاريخ مدينة بطليوس في عصر الطوائف ، راجع : سالم عبد العزيز سحر : **تاريخ بطليوس الإسلامية أو غرب الأندلس في العصر الإسلامي** ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ،د.ت ، في جزأين .

مجدها،حيث اختلف مفهوم المدينة في الأندلس عنها في المشرق،ويبدو أنّ الأندلسيين قد أقرّوا التقسيم الإداري الروماني الذي كان قائما منذ أيام الفتح الإسلامي ، فالمدينة عند الرومان لم تكن مجرّد مدينة بأرباضها وقصبتها وأسوارها ، بل كانت المدينة وما يتبعها من مدن وأقاليم أخرى[1].

وهذا يعني أن المدينة كانت مثل الكورة تمامًا تتبعها عدة مدن أخرى فضلا عن العاصمة أو الحاضرة الرئيسية[2]، ونلمس هذه الإشارة بوضوح عند العذري [3]حينما ذكر كورة سرقسطة.

لكن ارتباط مدن الثغور وقواعدها وتجاورها بعضها مع بعض في خطوط دفاعية ، قد ساعد على انهيار تلك الخطوط عقب سقوط قواعدها الرئيسية.

وعلى كل حال فقد استمر هذا التقسيم سائدًا طيلة عصر الطوائف ، حيث تحولت الولايات التي كانت تخضع في أوقات كثيرة للسلطة المركزية في قرطبة أيام الدولة الأموية إلى ممالك طائفية شكلت ثلاث منها ، ما يعرف بالثغور الأندلسية.

أ– مملكة الثغر الأعلى: كانت سرقسطة قبل انهيار الخلافة وظهور عصر الطوائف ، تُعرف بولاية الثغر الأعلى ، وتشمل هذه المنطقة جغرافيا ، مدينة سرقسطة Zaragoza، وأعمالها تُطيلة Tudela ووشقة Huesca، وبربشترBabastro ولاردة Lerida ، أفراغة ،وطركونة Tarragona، وطرطوشة Tartosa، أي معظم المنطقة الواسعة ، والخصبة التي يخترقها نهر إبرو Epro من مصبه عند مدينة طرطوشة ، حتى مدخله عند مدينة قلهرة Calahora في ولاية نافار(نبره) Navarra [4] وهي منطقة واسعة جعلت سرقسطة أعظم ممالك الطوائف في الأندلس وأكثرها أهمية ، زاد من قيمتها هذه امتداد حدودها مع عدة إمارات وممالك نصرانية في الشمال الاسباني ، كإمارة برشلونة ومملكتي نافار(نبره) وقشتالة ، فكانت بمثابة الحصن الأمامي الذي تحتمي خلفه المدن الاسلامية في شرق الأندلس ، فاستطاعت بذلك سرقسطة أن تحافظ على مكانتها كعاصمة لمنطقة الثغر الأعلى في عصر الطوائف.

ب– مملكة الثغر الأوسط: وجاءت في بعض المصادر باسم الثغر الجوفي[5] ، تشمل مملكة طليطلة

---

(1) العبادي : **صور من حياة الحرب**. 15.

(2) نفسه،15.

(3) العذري : **ترصيع الأخبار** ، 22- 25

(4) عنان محمد عبد الله : **دول الإسلام في الأندلس (العصر الثاني):دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي** ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـــ/1988م،ص265 . العبادي : **صور من حياة الحرب** ، 15.

(5) ابن خلدون : **العبر** ، 206/4، (طبعة دار الفكر).

وأعمالها تميزت بدورها بشساعة الرقعة الجغرافية ، وبموقعها الممتاز وتوسطها شبه الجزيرة الايبيرية أي في جوفها . وهو ما يفسر لنا وصفها بالثغر الجوفي ، تتاخم حدودها الشمالية مملكة قشتالة وليون وتتصدى لعدوانها[1] .

كانت طليطلة في بداية الحكم الاسلامي للأندلس ، تُعرف بالثغر الأدنى، وبعد انهيار الخلافة وتمزق الأندلس ، قامت مملكة بني ذي النون في طليطلة ، فاستطاعت المحافظة على أهميتها القديمة ، في عصر الطوائف، فكانت جغرافيا تمتد من قورية Coria شرق مملكة بطليوس Badajos، حتى قلعة أيوب Calatayud وشنتمرية الشرق Albarracin في جنوب غرب مملكة الثغر الأعلى ، ومن قشتالة القديمة Castilla في الشمال حتى حدود مملكة قرطبة Cordoba جنوبا عند مدينتي المعدن والمدوّر تتوسطها العاصمة طليطلة Toledo، وتتبعها عدة مدن ، كمدينة سالم Medinaceli، ووادي الحجارة Guadalajara وقونكة Cuenca، ووبذة Huete وإقليش وطلبيرة Talavera وترجالة وغيرها[2].

ج– مملكة الثغر الغربي : لم تكن لمدينة بطليوس أيام الخلافة الأموية المكانة التي كانت سرقسطة أو طليطلة ، ورغم أنها كانت تجاور مملكتين نصرانيتين هما: جليقية Galicia وقشتالة Castilla،فإن من حسن حظّها أن السلطة المركزية في قرطبة كانت قوية وقادرة على التدخل وصدّ العدوان ، وأنّ جيرانها النصارى كانوا في حالة من الضعف والحروب الداخلية والتنافس على السلطة ، فاتخذوا موقف المدافع الذي يطلب السلم ويتودد من أجله ، أكثر من موقع المهاجم القادر على التأثير ، لكن هذا الوضع سرعان ما يتبدل في عصر الطوائف حيث برزت مملكة بطليوس في غرب الأندلس كثغر إسلامي يواجه خطر الزحف النصراني في ظل تعاظم قوة الممالك النصرانية واتحادها.

أما جغرافيا فكانت مملكة بطليوس تجاور مملكة إشبيلية من الجنوب وتفصلها عنها جبال الشارات Sierra Morena، وكانت هذه المملكة تشمل رقعة جغرافية كبيرة تمتد من غرب طليطلة حتى المحيط الأطلسي ، تشمل أراضي البرتغال كلها تقريبا حتى مدينة باجة Beja في الجنوب ، أما العاصمة فكانت تتوسط هذه الرقعة الكبيرة ، تتبعها عدة مدن هامة أخرى ، منها: ماردة Merida ويابرة Ivora، وأشبونة Lisbona وشنترين Santarem، وشنترة Cintra وقُلمرية Coinbra

---

[1] عنان : **دول الطوائف** ، 95.

[2] نفسه، 95.

وبازو Viseoوغيرها من المدن في غرب الأندلس[1] .

ومجمل القول ، أنّ هذه الثغور التي ساهم موقعها الجغرافي واحتكاكها الدائم بالممالك النصرانية في الشمال الاسباني في ربط علاقات سياسية معها ، قد كانت بلا شك أكثر المدن الأندلسية عرضة للخطر النصراني ، وكان عليها تحمل العبء الثقيل الذي حملته ، فإن كان الهدف ليس حماية المدن الأندلسية الأخرى ، فحماية نفسها من هذه الأخطار ، وعلى هذا النهج سارت معظم الممالك الطائفية في الأندلس، كما سيتّضح في علاقات هذه الثغور مع نصارى الشمال الاسباني.

---

[1] عنان : **دول الطوائف** ، 81.

2/علاقات مملكة الثغر الأعلى بالممالك الاسبانية :

كانت مملكة سرقسطة قاعدة الثغر الأعلى من أعظم ممالك الطوائف وأهمها،ليس باتساع مساحتها وحسب بل بموقعها الجغرافي الخطير أيضا بين الممالك الاسبانية، فاتصال حدودها مع مملكة قطالونيا (برشلونة) من الشرق ونافار (نبرة) من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب[1] جعلها في مواجهة دائمة مع الأعداء، ودفع بها إلى إتباع سياسة دقيقة نحو جيرانها النصارى .

تُعدّ مملكة سرقسطة أقدم الدول الأندلسية المستقلة ، بحكم موقعها المنعزل في شمال شرقي الجزيرة، استقلت أسرة بني تُجيب بهذه المنطقة منذ وقوع الفتنة.[2]

أ- سرقسطة تحت حكم بني تُجيب :

بنو تجيب أسرة عربية أصلهم من دروقة Daroca [3]، وقلعة أيوب Calatayud [4] ، ملكت سرقسطة والثغر الأعلى منذ نهاية القرن الثالث الهجري، على يد زعيمهم أبي يحي محمد بن عبد الرحمان التجيبي المعروف بالأنقر حيث أقرّه الأمير عبد الله(275-300هـــ)/(888-912م) على حكم سرقسطة وأعمالها كسبًا لولائه[5].

استمرت هذه الأسرة في حكم الثغر الأعلى بإظهار الطاعة لحكومة قرطبة تارة ، والخروج عنها تارة أخرى ، حتى قيام الفتنة وانتثار سلك الخلافة الأموية ، وكان يحي التجيبي ممّن شهد الفتنة البربرية ، وعكف على إبعاد بلاده عن أطماع النصارى ،حتى وفاته سنة 408 هـــ/989م ،وخلفه في الحكم ولده المنذر بن يحي التُجيبي [6].

برزت في عهده صورة علاقات حسن الجوار بين مملكة سرقسطة والممالك النصرانية، وإذا كنا نجهل الكثير من التفاصيل حول سياسته نحو جيرانه النصارى ، إلا أنّ المؤرخ الكبير ابن حيان قد نبّه إلى جوانب منها ، واحتفظت لنا كتب التاريخ بنُقولات هامة من كتاباته[7] .

---

(1) عنان :**دول الطوائف** ،264.

(2) نفسه ،264.

(3) دروقة Daroca : من عمل قلعة أيوب تبعد عنها ثمانية عشر ميلا ، وبينها وبين سرقسطة خمسون ميلا.أنظر : الحميري :**صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار**،تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1937،ص76،77.

(4) ابن حزم: **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق ليفي بروفنسال، دار المعارف ، القاهرة ، 1948، ص465.

(5) ابن عذاري : **البيان المغرب**، 2 /137،138 ، عنان :**دول الطوائف** ،265.

(6) عنان: **دول الطوائف**، 266.

(7) من المؤرخين الذين اعتمدوا على ابن حيان. أنظر: ابن بسام : **الذخيرة**، ق1، مج1، 112، 113، 197. =

كان المنذر بن يحي فارسا لَبِق الفروسية ، تحالف مع الفتيان العامريين وشاركهم في قتال البربر وزعيمهم علي بن حمود ، واستعان بفرقة من المرتزقة النصارى بقيادة الكونت رامونRaymond أمير برشلونة، ورغم هزيمته في هذه المعركة وعودته إلى بلاده ، فقد ظلت علاقاته متينة بجيرانه النصارى خاصة رامون برنجير Raymond Bérenger أمير برشلونة والملك شانجه Sancho (391-416هــ)/(1000-1035م) حاكم نافار ، وسعى لاسترضائهم بالهدايا والتحف الجليلة فصرف أنظارهم عن بلاده، وحُفظت أطرافه والثغر مسدود لا ثغرة فيه كما يقول ابن بسام[1].

ويبدو أن هذا الأمير قد بالغ في استمالة ملوك النصارى والتودّد لهم إلى درجة أنه نظّم عقد مصاهرة بين أمير برشلونة وملك نافار في قصره وحضر الحفل طائفة من أهل الملّتين[2].

لكنّ هذا العمل جرّ على المنذر بن يحي سُخط سكان سرقسطة ونقمتهم عليه ونعتوه بأبشع الصفات، ليس لطبيعة الفعل الذي قام به في حدّ ذاته ، بل لأنهم رأوا في ذلك سعيا لتوحيد النصارى [3] كيف لا وهذه المصاهرة بين ملك نافار وأمير برشلونة قد تساهم في توحيد المملكتين فتشكلان جبهة قوية تهدّد المسلمين في سرقسطة وغيرها من مناطق الثغر الأعلى.

وتجدر الإشارة هنا إلى العبارات المهمة التي أوردها ابن حيان في شرح سياسة الحاجب المنذر بن يحي وطريقة تعامله مع جيرانه ملوك النصارى حيث يقول: ((... فآثر الموادعة ما سَتر به العورة وسدّها بيسير الكُلفة، واختدع به عظيم الجلالقة ريمندة و شانجه المحدثين أنفسهما يومئذ بمناهضة أهل الأندلس ، فألهاهما عن الحرب وحبّب إليهما الدَعة ، وأغنم أهل الثغر في ذلك الوقت ، عاجل السلامة...))[4].

فكان من نتائج هذه السياسة ، أن عاشت البلاد في رخاء ، وتفرغ الناس للبناء والإعمار. ورغم أنهم لم يقدّروا لأميرهم ذلك في حياته ، لكنهم أدركوا بُعد نظره وحسن تقديره للأمور بعد وفاته[5].

= ابن عذاري : **البيان المغرب**، 3/ 177، 178، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 197.

(1) **الذخيرة** ، ق1، مج1، 112.

(2) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 177/3 .

(3) أسقط ابن الخطيب عبارة مهمة حينما اقتبس أخبار المنذر بن عيسى في كتاب **أعمال الأعلام** ، 197، لكنه استدرك الأمر وأورد عبارة (لسعيه في نظم سلك النصارى) في كتاب الإحاطة ،راجع : **الإحاطة في أخبار غرناطة** تحقيق يوسف علي طويل، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هــ/2003م، ج3،ص215، ابن عذارى : **البيان المغرب** ،177/3، ابن بسام : **الذخيرة** ، ق1،مج1، 113.

(4) ابن عذاري: **البيان المغرب** ،177/3، راجع أيضا : ابن بسام : **الذخيرة**، ق1،مج1،113.

(5) ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 177/3، عنان: **دول الطوائف**،268.

لم تلبث العلاقات أن توترت بين سرقسطة وجيرانها النصارى ، فما كاد أميرها الجديد يحي بن المنذر (414-420هـ/1023-1029م) يستلم الحكم حتى أغار صاحب برشلونة الكونت رامون برويل على بعض أطراف الثغر الأعلى وأجبر الأمير يحي على التنازل عن بعض الحصون والقلاع[1]، وقد تكون السياسة التي انتهجها مع برشلونة سبباً لذلك ، وإن كنا لا نستطيع الجزم في هذا الأمر ، لكن ابن عذاري يشير إلى ضعف هذا الأمير وقلة خبرته لذا لم يستطع أن يسد الفراغ الذي تركه رحيل والده يحي[2].

اختلف مؤرخو الطوائف المسلمين في تحديد آخر أمراء الأسرة التجيبية وأخلطوا كثيرا في الأسماء فبينما يجعل ابن عذاري[3] ، وابن خلدون[4] ، يحي بن المنذر آخرهم ، يحاول ابن الخطيب أن يصحح هذا الخطأ من خلال افتراض أن يكون ليحي بن المنذر أخ أو ابن يسمّى المنذر، خَلَفَ أباه يحي في حكم سرقسطة[5]، وهو ما نميل إليه، خصوصا أن ابن الأبار قد أشار بوضوح إلى ذلك[6] .

تَصمُت المصادر التي بين أيدينا صمتا مطبقا عن الحديث عن هذه الفترة من حكم المنذر بن يحي وعن سياسته نحو جيرانه دون أن نعلم سببا لذلك ، ومن حسن الحظ أنّ انتقال الحكم من الأسرة التجيبية إلى أسرة بني هود، قد دفع بالكثير من المؤرخين إلى الاهتمام بتتبّع أخبار مقتل هذا الأمير الذي دامت مدة حكمه عشر سنوات وانتهت باغتياله على يد أحد قواده من أبناء عمومته[7].

تختلف الروايات التاريخية في تفاصيل هذه الجريمة ، وكيف زال حكم التجيبيين وانتقال مقاليد السلطة إلى أسرة أخرى ، تنتمي بدورها إلى بيت عربي عريق وهي أسرة بني هود ، جدّهُم الأعلى هو هود،وهو الداخل إلى الأندلس ، وهم من الأَزْد[8]، فيذكر ابن عذاري أنّ أعيان سرقسطة بعثوا إلى سليمان بن هود ليولّوه الإمارة بعد مقتل أميرهم يحي بن المنذر الملقب بالحاجب معزّ الدولة[9]

---

[1] عنان : **دول الطوائف**، 268.

[2] ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 177/3.

[3] نفسه ، 221.

[4] **العبر**، 209/4،(طبعة دار الفكر).

[5] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ،200 ،201.

[6] ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 2/ 246.

[7] راجع تفاصيل مقتل المنذر بن يحي التجيبي في: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق1،مج1 ،ص114 ، 115.
ابن عذاري: **البيان المغرب**، 221/3.

[8] ابن خلدون: **العبر**، 4/ 209 (طبعة دار الفكر).

[9] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3/ 221، 222.

ويدعّمه ابن خلدون في ما ذهب إليه فيقول : ((فتغلّب سليمان على المظفّر يحي بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين ، ومَلَكَ سرقسطة والثغر الأعلى))[1].

وإذا كانت رواية ابن سعيد لا تضيف للأمر جديدا، وتُقاسم الروايتين السابقتين بعض التفاصيل[2]، وتزيد الأمر غموضا ، وجدنا من الضروري البحث عن رواية أخرى يمكنها أن تزيل هذا الغموض ، حتى عثرنا على نص في غاية الأهمية لمؤرخ الطوائف الكبير ابن حيان — وهو المعاصر لهذه الأحداث — أورده ابن بسام في ذخيرته جاء فيه ((...وكان سليمان بن هود الجذامي صاحب لاردة وقته مقيما بتُطيلة بجمعه ، فسارع إلى سرقسطة ساعة سمع بخبر منذر (يعني مقتل المنذر بن يحي على يد عبد الله بن حكم) رجاءًا في دخولها...))[3].

وبالاستناد إلى هذه الرواية التي يصعب التشكيك في صحتها - تبين لنا أن القتيل كان المنذر بن يحي التجيبي آخر أمراء هذه الأسرة ، وأن مقاليد الحكم قد انتقلت إلى إسماعيل بن هود الذي تلقب بالمستعين بعد امتلاكه سرقسطة والثغر الأعلى عدا طرطوشة Tartosa التي كانت بيد بعض الفتيان العامريين[4].

ومن الغريب أنّ ابن عذاري الذي اعتمد على رواية ابن حيان في جزء من كتابه[5]، وعاد بعد ذلك وذكر رواية تخالفها دون التعليق عليها[6]، وانساق محمد عبد الله عنان وراء ذلك دون أن ينتبه إلى الأمر[7] .

ومهما يكن من أمر ، فإن ما يهمنا في الموضوع هو طبيعة العلاقات التي ربطت بين حكام سرقسطة الجدد وجيرانهم ملوك النصارى.

---

(1) ابن خلدون: **العبر**، 209/4 (طبعة دار الفكر).

(2) ابن سعيد: **المغرب**، 353/2 ، ترجمة رقم (618).

(3) ابن بسام : **الذخيرة** ، ق1، مج1، 115.

(4) عنان: **دول الطوائف** ، 271

(5) ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 178/3، 179.

(6) نفسه ، 221/3 ، 222.

(7) عنان : **دول الطوائف**، 270.

ب- سرقسطة في عهد بني هود:

كان أولهم سليمان بن محمد بن هود الجذامي (431-438هـ/1039-1046م)[1] المتغلب على سرقسطة ، والذي دخل في حرب مع المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة[2] ، وتعود أسباب الخصومة بين الرجلين إلى عاملين أساسيين هما :

أولا: أنّ سليمان بن هود باستيلائه على سرقسطة يكون قد سبق المأمون بن ذي النون إلى المدينة التي كان يطمع فيها خصوصا أنه خال المنذر بن يحي القتيل ويرى أنه أحق الناس بها من غيره .

وثانيا: تصادم المصالح بين الطرفين نتيجة السياسة التوسعية المنتهجة من كليهما ، وتنازعهما السيطرة على بعض المدن الحدودية الفاصلة بين المملكتين .

كانت مدينة وادي الحجارة الحدودية من أعمال طليطلة ، فطمع سليمان بن هود فيها ،وتمكن من دخولها بمساعدة أهلها ، ولما بلغ ذلك المأمون يحي بن ذي النون (435-467هـ)/(1043-1075م) قامت قيامته وأسرع عائدا لاسترجاع المدينة[3]،لكنه هُزم على يد أحمد بن سليمان بن هود قائد جيوش مملكة سرقسطة ووليٌّ عهد سليمان بن هود.

حزّت هذه الهزيمة في نفس المأمون بن ذي النون ، ودفعته لطلب العون والمساعدة من فردلند (427-458هـ)/(1035-1065م) ملك قشتالة ، و لم يكن ذلك دون مقابل طبعا، بل اشترط مبلغا كبيرا من المال ثمنا لخدماته ، وتوجهت سرايا من قوات العدو فعاثت فسادا في بلاد الثغر الأعلى،وابن هود متحصن بالمدينة لا يقوى على دفاعهم ، و لم يكتفوا بما سلبوه من سبيّ ومتاع، بل نهبوا الحصاد ونقلوه إلى بلادهم، حتى قال ابن الخطيب عن فردلند وجنوده: ((فلم يَدَعْ ما يقتاته الطائر))[4] في إشارة إلى نهب النصارى لأقوات المسلمين .

ويبدو أنّ هذه السياسة التي انتهجها ملوك الطوائف باستعانتهم بالنصارى ضد بعضهم البعض،قد أتاحت الفرصة للأعداء للوقوف على عورات المسلمين ومواطن الضعف فيها، وامتدت آمالهم إلى التغلب عليها إذا لم يقف أحدٌ لصدهم[5] ،لكن ملوك الأندلس وأمرائها لم يكن يهمهم سوى تحقيق

---

[1] الحجي عبد الرحمان علي : **التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة**، ط5، دار القلم ، دمشق 1418هـ/1997م ، ص356.

[2] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 178

[3] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 277/3، 278.

[4] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ،178.

[5] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3 / 278.

أطماعهم وتلبية رغباتهم حتى لو كان ذلك على حساب مصلحة الإسلام والمسلمين، يؤكد ذلك ما فعله سليمان بن هود ، الذي لم يجد بدوره حرجا في شراء عون النصارى ومساعدتهم له في حربه مع المأمون، وأرسل الأموال الجمّة والهدايا الجليلة إلى فردلند (فرناندو الأول Fernando I) ملك قشتالة وسأله الخروج إلى بلد ابن ذي النون بجيشه بنيّة الانتقام و استعادة ما فقده من أراضي[1] .

ومن المهم هنا أن نشير إلى طبيعة السياسة التي اتبعها الملك القشتالي فرناندو والذي تسميه المصادر الإسلامية (فردلند)، بضرب ملوك الطوائف بعضهم ببعض وتغذية الصراع بينهم أكثر فأكثر، ونهب أموالهم وأخذ حصونهم وقواعدهم حتى يضعفوا، فتعود البلاد للنصارى بأقل التكاليف ، وسيتضح خطر هذه السياسة لاحقا.

كانت لهذه الحروب بين هذين الأميرين المشئومين –كما وصفهما ابن الخطيب- آثارا قبيحة على المملكتين، فقد أفنت الكثير من الأموال والرجال، وغلت الأسعار وسئم الناس هذه الحال ، لكن طليطلة فيما يبدو كانت أكثر تضررا من غيرها، فاضطر أهلها أن يبعثوا إلى سليمان بن هود يطلبون المصالحة والمهادنة ، ودخل عليه في سرقسطة وفد منهم يعظه ويذكّرُه ، ويُبصّرُه بالخطر الذي يتهدد الأندلس وما تهيّأ العدو من النصر والظفر على المسلمين ، ثم عرضوا عليه الصلح بينه وبين المأمون بن ذي النون،والظاهر أنّ صاحب طليطلة انقاد لهذه الضغوط ورَدَّ النصارى المظاهرين له إلى بلادهم[2].

لم تدم حالة السلم طويلا ، فسرعان ما نقض سليمان بن هود هذا الصلح، وجمع طائفة من النصارى (جنود من قشتالة) وهاجم مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط في عهد بني أمية) ،وهي إحدى المدن التابعة لمملكة طليطلة ،وخرج ابن ذي النون بخيله ورجاله للدفاع عنها فهُزم وفقد بعض الحصون ، عندئذ فقد الأمل من حليفه السابق فردلند ، فتوجّه إلى طلب العون من غرسية (427-446هـ) /(1035-1054م) حاكم نافار أخو فردلند وألدّ أعدائه ، الذي أمدّه بالرجال ، وتوجّه به إلى الثغر الأعلى من عمل ابن هود فعاث في المدن مابين تُطيلة [3] ووشقة[4] ،ولازم قلعة قلبرة[5] حتى

---

[1] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 178.

[2] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3 /280.

[3] تُطيلة Tudela : تقع إلى الشمال الغربي من سرقسطة، يُنسب إليها الشاعر المعروف ، الأعمى التُطيلي.أنظر: الحميري: **الروض المعطار** ، 64.

[4] وشقة Huesca:تقع بين سرقسطة وتُطيلة،بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا.أنظر:الحميري:**الروض المعطار**،194

[5] يبدو لي أنّ الصواب قلعة قَلَهُرَّة Calahorra لأنه لا توجد بالأندلس قلعة تسمى قلبرة، و قَلَهُرَّة مدينة من أعمال تُطيلة في شرقي الأندلس، أنظر : العذري : **ترصيع الأخبار**، 32 ، ابن عذاري : **البيان المغرب**، 281/3 ياقوت الحموي: **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م،ج4، ص392.

دخلها واستولى عليها في عام 437هـ/1045م[1].

دامت هذه الفتنة بين هذين الأميرين، ابن هود وابن ذي النون مدة ثلاث سنوات، من سنة خمس وثلاثين وأربعمائة إلى آخر سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ، و لم تنقطع إلاّ بموت سليمان بن هود في سنة 438هـ/1046م[2].

أراد سليمان بن هود قبل وفاته أن يجنّب أبناءه مخاطر الصراع والحرب بينهم ،فقسّم مملكته بينهم[3] ،وغلبت عليه عاطفة الأبوّة على ما تقتضيه السياسة من حكمة وحُسن تدبير ، فزرع بجهله بذور حرب أهلية بين أبنائه ، وانتهى الصراع بتغلب أحمد المقتدر على باقي إخوته عدا يوسف المظفر حاكم لاردة الذي وقف بحزم ضدّ أطماع أخيه[4].

اجتمعت صفات القسوة والغدر وحب الانتقام في المقتدر بن هود ، وأضمر السوء لأخيه يوسف المظفر ، سيما بعد أن خرجت معظم القواعد التي اغتصبها عن طاعته، وانظمت لأملاك أخيه المظفر فلم يبق له سوى سرقسطة، وجاءته الفرصة مواتية للانتقام حينما تعرضت تُطيلة للمجاعة والغلاء فاستعان أهلها بأمير لاردة ، فجمع الأطعمة والمؤن ليرسلها لسكان تُطيلة، وخشي من اعتراض جنود المقتدر للقافلة فراسل ابن رُدمير ملك أراغون (وهو سانشو راميريث Sancho Ramirez (455-487هـ)/(1063- 1094م) وليس غرسية Gacia ملك نافار كما ذكر أحدهم)[5] يستأذنه السماح بمرور المؤن عبر بلاده مقابل مبلغ من المال، لكن المقتدر ضاعف المبلغ لسانشو راميريث حتى يمكّنه من قافلة أخيه، وانتهى الأمر بمذبحة مروعة على أيدي جنود صاحب سرقسطة وغَنِم النصارى القافلة[6] .

---

[1] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3/ 281 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**،178.

[2] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3/ 282 ، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ،178.

[3] قسّم سليمان بن هود بلاده على أبنائه الخمسة ، فولى أحمد مدينة سرقسطة ، ويوسف على مدينة لاردة ، أما محمد فعيّنه على قلعة أيوب ، وكانت وشقة من نصيب ولده لُب ، بينما كانت تطيلة لابنه المنذر. راجع: ابن عذاري: **البيان المغرب**، 222/3.

[4] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 222/3.

[5] ظنّ محمد عبد الله عنان أن المقصود بابن ردمير الذي ورد في نص ابن عذارى ، هو غرسية ملك نافار ، والصحيح ما أثبتناه في المتن ، ذلك أن غرسية كان ابن شانجة غرسية الثالث الملقب بالكبير ، أما سانشو راميريث فكان أبوه راميرو ملك أراغون، وهو المعروف عند المؤرخين العرب بردمير .راجع : عنان: **دول الطوائف**، 273. وانظر أيضا :ابن الكردبوس : **كتاب الاكتفاء** ،80، هامش رقم (02).

[6] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3/ 223، 224.

تصوّر لنا هذه الحادثة حالة التفكك والانقسام الذي أصاب الأندلس، فإذا كان هذا حال المقتدر بن هود مع أخيه المظفر، فلنا أن نتخيّل الوضع مع الممالك الطائفية الأخرى ، ولعلّ هذا العمل المشين قد وجد استنكارًا من سكان الثغر الأعلى خاصة النخبة منهم ، فحمل لنا أحد المؤرخين عبارات السخط والاستنكار في كتاباته[1].

إلى هنا لم تتضح صورة العلاقات السياسية بين مملكة سرقسطة والممالك النصرانية، ولا سيما وأنّ مؤرخي هذه الفترة قد شُغلوا بذكر الأحداث الكبرى وتتبع انتصارات المسلمين أو هزائمهم وأغفلوا الأخبار الأخرى التي طبعت علاقات المسلمين بنصارى الشمال الاسباني، فبعد اثنين وعشرين سنة من حكم المقتدر بن هود ، لا نجد غير هذه الحادثة التي تلقي ضوءا خافتا على علاقاته بملوك اسبانيا باستثناء المساعدة التي قدمها المقتدر لحليفه غرسية ملك نافار، الذي كان في حرب مع أخيه فرديناند الأول سنة 446هـ/ 1054م، ولنا أن نفترض في غياب النصوص التاريخية أن العلاقات بين الجانبين قد سادها جوّ من التفاهم ، خاصة وأن مملكة سرقسطة قد تحول حلفها ناحية فرديناند ملك قشتالة وليون ، تُؤدي له الجزية وتدين له بالطاعة والولاء ، ولما هاجم ردمير الأول (435-455هـ /1043-1063م) ملك أراغون أراضي سرقسطة عام 455هـ/1063م، طلب أميرها المقتدر بن هود العون من حليفه فرديناند الأول الذي هبَّ لنجدته ووقعت معركة عند بلدة جرادوس Gradus، قُتل فيها راميرو الأول[2]، وقد أثار مقتله الشعور الديني المسيحي ضدّ المسلمين في الثغر الأعلى ، فكان من نتائج ذلك،الحملة الصليبية التي استولت على بربشتر[3] عام 456هـ/1064م[4]، وإن كان سقوط هذه المدينة لا يدخل بصورة مباشرة في رسم العلاقات الأندلسية الاسبانية بحكم أن هذه الحملة كانت أوروبية فرنسية تحديدا ، لكن مشاركة النصارى الاسبان فيها يجعلها مهمة، لتوضيح هذه العلاقات.

---

(1) أنظر : ابن عذاري: **البيان المغرب**، 224/3

(2) Conde .M.J. **Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal depuis l'invasion de ces peuples jusqu'à leur expulsion définitive**.Paris.1825. t2.p.183.

(3) بربشتر Barbastro : مدينة حصينة على بعد 60 كم شمالي سرقسطة ، تقع على أحد فروع نهر الإبرو Epro وهي ليست المنطقة التي تقع في جنوب الأندلس، والتي هرب إليها عمر بن حفصون أثناء ثورته على الأمير عبد الله. أنظر : ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 72، هامش رقم (6).

(4) ابن الكردبوس :**الاكتفاء** ، 71، هامش رقم04.

ج- سقوط بربشتر وأزمة المقتدر بن هود:

كانت بربشتر من مدن الثغر الأعلى الفائقة الحصانة والامتناع[1]، تعرضت لحملة عسكرية دعا إليها البابا إسكندر الثاني(453-464هـ)/ (1061-1073م)[2]، عقب مقتل ردمير أو راميرو الأول ملك أراغون على يد المقتدر بن هود سنة455هـ/ 1063م . وإن اختلفت الرواية العربية في ظروف هذه الحملة والطريق الذي سلكته للوصول إلى بربشتر فإنها تتفق في كونها قد نُظِّمت في شمال فرنسا وفي إقليم نورمانديا تحديدا ، لذلك عُرف جنودها بالنورمانيين أو الأردمانيين.[3]

لكن ما يهمنا من الأمر هو أن هذه الحملة كلّلت بالنجاح ، وتمكن النورمانديون من دخول المدينة بعد مقاومة باسلة لسكانها ، حتى أوشكوا على الهلاك عطشا ، بعدما فُرضَ الحصار عليها مدة أربعين يوما ، وفاوضوا قائد الحملة على التسليم مقابل منحهم الأمان ،لكن الفرنج كما تسميهم الرواية العربية لم يوفوا بعهودهم وأعملوا سيوفهم في سكانها قتلا وتشريدا وسبيا، وارتكبوا مجازر مروّعة قلَّ أن نقلت لنا كتب التاريخ مثيلا لها ، ووردت أصداء هذه الأحداث إلى ربوع الأندلس فأيقظت الهمم وأحيت العزائم ، وحركت مشاعر الحماس الديني لدى بعض ملوك الطوائف ، ووصف لنا مؤرخ الأندلس الشهير ابن حيان[4] هذه المأساة بعبارات مبكية تقطر حزنًا وأسى[5].

---

[1] الحميري: **الروض المعطار**،39.

Gayangos.P. **The history of the Mohammedan dynasties in Spain**. Vol2. London . p.265.

[2] عنان :**دول الطوائف**.274.

[3] مجهول: **كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،** تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م، ص76، راجع أيضا: ابن عذاري: **البيان المغرب،** 225/3-228 الحميري:**الروض المعطار** 39-40، وابن الكردبوس:**الاكتفاء،**71- 73، دوزي: **المسلمون في الأندلس،** ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية لصناعة الكتاب، القاهرة ، 1995م،ج3، ص82 ، 83 .

راجع أيضا : Dozy. R. **Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne .pendant le moyen âge** .T2.Leyde. 1860.p.356.

[4] يقول ابن حيان: ((...وآل بجماعتهم آخرا أن ألقوا إلى المشركين بأيديهم فارين من الظمأ مع أمان ، فلما رأى الطاغية كثرتهم وانتشارهم ، هاله ذلك وخاف أن تدركهم حميّة ...فأمر أصحابه ببذل السيف فيهم...فقُتل منهم يومئذ خلق عظيم ، تُحُدّث أنهم نيّفوا على ستة آلاف قتيل...)) إلى أن قال: ((... فإنّ عُداة الله كانوا يومئذ يتولّعون بهتك حُرم أسراهم وبناتهم بحضرتهم وعلى أعينهم، إبلاغا في تعذيب قلوبهم ، يغشون الثيب ويفتضون البكر، وزوج تلك وأبو هذه موثق بقيد إساره...)). أنظر : ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3، مج 3 ، 118،119.

[5] لتفاصيل أكثر حول هذه الحملة راجع أيضا : ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3، مج 3 ، 118- 120 ، ابن عذاري : **البيان المغرب،** 225/3-228، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 171.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنّ هذه الحملة العسكرية اتخذت طابعًا صليبيا واضحا ، بداية بدعوة البابا لها في روما ، وانتهاءًا بمشاركة سانشو راميريث ملك أراغون بقواته فيها.

ومع ذلك فقد ترك يوسف بن سليمان بن هود المدينة لمصيرها المحتوم دون بذل أيّ جهد للدفاع عنها رغم كونها من ممتلكاته وتحت سلطانه ،ويمكن أن نرجع ذلك إلى ضعفه وقلة جنوده ، لكن أحمد المقتدر تخلى بدوره عن واجبه في الدفاع عن المدينة وردّ العدوان عنها انتقاما من أهلها لميلهم لأخيه يوسف[1] .

كان سقوط هذه القلعة الحصينة مدوّيًا في جميع أرجاء الأندلس ، وكان وقعها شديدا على الأندلسيين عامة وسكان الثغر الأعلى خاصة ، ويبدو أن الناس قد ألقوا باللائمة على المقتدر بن هود الذي وجد نفسه في أزمة حقيقية تمس سمعته تحديدا وتؤثر على مكانته ، وهو الذي يعتبر نفسه من أعظم ملوك الطوائف[2] ، فحاول أن يتدارك هذا الأمر ،وطلب العون من حليفه المعتضد بن عباد ملك اشبيلية (433-461هـ)/(1042-1069م) الذي لم يتردد في إرسال فرقة من جنوده قدّرها بعض المؤرخين بخمسمائة فارس[3] . واحتفظ لنا كلّ من ابن بسام والمقري بعبارة في غاية الأهمية لابن حيان ، تُشير إلى أزمة المقتدر بن هود ومعاناته من تقاذف ألسنة الناس له بسبب تهاونه وعدم إسراعه في صدّ الأعداء عن مدينة بربشتر، ممّا دفعه لإصمات سوء القالة عنه[4] .

ويبدو أن سوء القالة هذه قد تحولت إلى مدح وثناء على صاحبها بعد تمكّنه من استرجاع المدينة عام 457هـ/1064م حتى وصل بعضهم إلى القول أن أحمد بن سليمان بن هود قد تسمّى بالمقتدر بالله بعد استرجاعه لمدينة بربشتر.[5]

د- المقتدر بن هود يستعين بالنصارى في توسعاته :

لقد علا نجم المقتدر بن هود بعد استرجاعه بربشتر من أيدي الصليبيين ، وتطلعت نفسه إلى التوسع على حساب الممالك الإسلامية الضعيفة التي تجاوره ، فبعد سقوط طرطوشة في يده سنة

---

[1] ابن حيان نقلا عن ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3،مج3، 122.

[2] نفسه ،ق3 ،مج3، 122.

[3] نفسه ،ق3 ،مج3، 122.

[4] نفسه ،ق3 ،مج3، 122 ، المقري: **نفح الطيب** ، 454/4.

[5] الحميري : **الروض المعطار** ،41 . راجع أيضا : Gayangos .P. op.cit. vol 2.p.269.

452هـ/1060م وإجبار الفتى نبيل[1] على التنازل عنها. وقعت خلافات بينه وبين صهره (زوج ابنته) عليّ إقبال الدولة (436-468هـ)/(1044-1076م) صاحب مملكة دانية وجزر البليار[2]،ويذكر ابن بسام في سبب الخلاف بينهما أن عليًّا إقبال الدولة قد غدر بصهره وأرسل إلى عماله على الحصون يحضّهم على القتال بعد وعد قطعه المقتدر بالتنازل له عن هذه الحصون والمعاقل القريبة من طرطوشة ، فتحركت جيوش سرقسطة تحت قيادة المقتدر وفرضت الحصار حول مملكة دانية وذلك في سنة 464هـ/1076م[3]، والغريب في الأمر هو سقوط المدينة واستسلامها في يوم واحد رغم ما اشتهرت به من الحصانة والامتناع ، ويفسر أحد الباحثين[4] ذلك بوجود تواطؤ بين المقتدر وأنصار له في دانية وأنّ عليّا إقبال الدولة لم يشك يوما أنّ أطماع صهره قد تصل إلى حدّ التطلع لامتلاك عاصمة مُلك زوج ابنته ، رغم أنّ تحرك جيوش المقتدر قد أفزعت جميع ملوك وأمراء الأندلس[5] باستثناء أمير دانية الذي اتّكل على حرمة المصاهرة التي تربطه مع صاحب مملكة سرقسطة[6].

لم تقف أطماع المقتدر عند حدود دانية ، بل يمَّمَ أنظاره نحو مملكة بلنسية ، وزينت له بطانته أمرها -كما يروي ابن بسام – لأهمية موقعها ووفرة غلاتها ، فاتصل بملك قشتالة[7] ، ودفع له مبلغًا كبيرًا من المال قدّره ابن بسام وغيره[8] بمائة ألف دينار ، ولم يشترِ المقتدر هذه المدينة بهذا القدر من المال إلاّ ويعلم عظيم جبايتها وكثرة خيراتها[9] .

---

[1] هو من الفتيان العامريين الذين فروا إلى شرق الأندلس أثناء الفتنة وحكموا عدة مدن هناك مثل طرطوشة. أنظر : ابن عذاري : **البيان المغرب**، 250/3.

[2] جزر البليار أو الجزائر الشرقية: تتكون من ثلاث جزر رئيسة هي: يابسة Ibiza ميورقة Mallorca منورقة

[3] مجهول : **ذكر بلاد الأندلس**، تحقيق لويس مولينا ، مدريد ، 1983، ج1 ، ص217.

[4] سيسالم عصام سالم : **جزر الأندلس المنسية (التاريخ السياسي لجزر البليار)**،ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1984 ص188، 189.

[5] ابن بسام : **الذخيرة** ،ق1 ، مج4 ، 160،عبد الله بن بلكين : **كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة** ،تحقيق علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ، 1427هـ/2006م،ص 100 ،101.

[6] سيسالم : **جزر الأندلس**، 189.

[7] هو ألفونسو (أذفونش) السادس ملك قشتالة وليون ، اعتلى عرش المملكة بعد مقتل أخيه سانشو ،واستيلائه على أملاك إخوته ، وحّد اسبانيا وتلقب بالإمبراطور ذي الملتين ، قاد حربا شعواء ضد المسلمين في الأندلس وتزعم حركة الاسترداد في هذه الفترة .

[8] ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3 ،مج3 ،25. راجع أيضا : Piquet .v. **L'Espagne des Maures**. Paris.1945.p.141.

[9] بلغت جباية المدينة في عهد مظفر ومبارك سبعين ألف دينار في الشهر ، وإن صدقت الرواية ، فهي دليل على =

وإذا كانت المصادر العربية التي بين أيدينا لا تربط هذا التحالف الذي جمع بين المقتدر وألفونس بتاريخ محدد دقيق فإن أحد المستشرقين قد حدّده سنة 1075م /468هـ[1] ، اعتمادا فيما يبدو على الرواية القشتالية.

ومهما يكن من أمر، فإن ألفونس السادس(458-502هـ)/(1065-1109م) خرج بجيشه قاصدا بلنسية ، فسارع إليه صاحبها أبو بكر بن عبد العزيز وأَلانَ له القول واعترف بطاعته وسأله أن يبقيه عاملا على بلنسية، فقبل الملك النصراني منه ذلك لا لإعجابه بأبي بكر كما في إحدى الروايات[2] ،بل لتعاظم قوة المقتدر واتساع ملكه ، وقد يفكر في الخروج عليه ، فعاد ألفونس بقواته من حيث أتى ، وسَلِمت بلنسية من أطماع المقتدر[3].

لم يلبث المقتدر بن هود ملك سرقسطة والثغر الأعلى أن مات في عام 474هـ/1081م ، بعد محاولته الفاشلة في ضم بلنسية و لم يختلف عن ملوك عصره بارتكابه نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه من قبل فقسّم مملكته بين ولديه ، فخص ولده الأكبر وهو يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها ، وأما الأصغر وهو المنذر فحصل على لاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية.

هـ-اندلاع الحرب الأهلية وعودة التدخل القشتالي:

لم تَطُل المدة حتى اندلعت الحرب الأهلية بين الأخوين ، واستعان كل منهما بالنصارى الاسبان فكان المؤتمن يعتمد على حليف أبيه القديم (السيّد) [4] وجنوده من المرتزقة القشتاليين، أما المقتدر فمال إلى سانشو راميريث (455-487هـ)/(1063-1094م) ملك أراغون ورامون برنجير (427-469هـ)/(1035-1076م) أمير برشلونة[5].

= عظيم ثراء هذه المدينة . راجع : عنان : **دول الطوائف** ، 218.

(1) Piquet.v. op.cit. p.141.

(2) كان ألفونسو يقول : ((رجال الأندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وشَشَنَنْد Sisnando)). راجع ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3، مج3، 26.

(3) ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3، مج3، 26.

(4) اسمه الحقيقي رودريغو دياث البيباري Rodrigo Diaz Vivar El Cid Campeador ، فارس ومغامر قشتالي من ضواحي مدينة برغش ، اكتسب هذا اللقب من مخالطة المسلمين ، فكان ينادى يا سيدي ، وتحول مع مرور الوقت إلى السيّد ، ويُرف في المصادر الاسلامية باسم السيّد القمبيطور أو الكمبيادور، حكم بلنسية وفرض هيمنته على شرق الأندلس من سنة 487هـ/1094م إلى سنة 493هـ/1099م.

(5) Dozy. R .**Le cid d'après de nouveaux documents**. Leyde. 1860. p. 118.

راجع أيضا : عنان: **دول الطوائف** ، 285 ، رجب عبد الحليم : **العلاقات** ،343 .

وقعت أول مواجهة بين هذين الأخوين عند قلعة المنار قرب لاردة[1] ، عندما سار المنذر رفقة حلفائه من النصارى في مقدمتهم أمير برشلونة ، وحاصروا القلعة ، وهبّ المؤتمن وحليفه(السيّد) لإنجادها وانتهت المعركة بهزيمة قوات المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون برنجير[2].

لم تتطرق المصادر الإسلامية التي بين أيدينا إلى أخبار المؤتمن باستثناء ابن الخطيب الذي عالجها بكثير من الاقتضاب ، خصوصا وأن فترة حكمه لم تتعدّ أربع سنوات ، بينما أفاضت المصادر الاسبانية في هذه التفاصيل وأدخلتها في تمجيد أعمال السيد الكمبيادور ، لذا لم تترك صفة نبيلة إلاّ وقرنتها بهذا الفارس القشتالي.

وعلى كل حال عاد المؤتمن إلى سرقسطة ونشوة النصر تغمره ، كما حظي باستقبال كبير اعترافًا بدوره البارز في هذا النصر.

وبعد ذلك بقليل وقع أمر أوشك أن يقطع حبل العلاقة التي ربطت السيد ببلاط سرقسطة، ذلك أنّ حاكم روطة[3] اتفق سرّا مع سجينه المظفر- المهزوم على يد المقتدر ، والمسجون في أحد حصون مدينة روطة- على الثورة وتسليم المدينة لألفونس السادس ، لكن وفاة المظفر المفاجئة وهو في حماية الملك القشتالي، أضعف موقف حاكم المدينة ، الذي سارع للتقرب من المؤتمن في خطة للغدر بألفونس. زعم ألفونس السادس ملك قشتالة أن المظفر قد نزل له قبل موته عن نصيبه المغتصب من أراضي الإمارة ، وهاجم روطة ، وأوشك أن ينال مراده لولا أن يوسف المؤتمن وحليفه الكمبيادور وضعا لألفونس ورجاله كمينا في مضيق على الطريق ، وأوقعوا عليهم الحجارة فهلك منهم عدد كبير ولم ينج ألفونس إلاّ بصعوبة ، وأراد السيد أن يبرّئ نفسه من هذه المؤامرة ، وتقرب من سيّده القديم يسأله العفو ، فعفا عنه وعاد بصحبته إلى قشتالة[4] .

بقي ألفونس متوجسا من السيد ، وشعر السيد بتغيره عليه ، مما دفعه إلى تركه مجددا والتّوجه نحو المؤتمن صاحب سرقسطة يعرض عليه خدماته من جديد .

---

[1] لاردة Lerida : وهي من مدن الثغر الأعلى في شمالي شرق الأندلس. أنظر: الحميري: **الروض المعطار** ، 168.

[2] Dozy . **Le cid**. P.119.

[3] رُوطَة Rueda: حصن حصين جدا يقع على وادي شَلُون، وهي من أعمال سرقسطة.أنظر:ياقوت:**معجم البلدان**، 96/3.

[4] Dozy. **Le cid**. P.119.

قارن رواية دوزي مع روايات أخرى تختلف معها في بعض التفاصيل. أنظر : مؤنس حسين : **الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1413هـ/1992م،ص15 ، وعنان : **دول الطوائف** ، 235.

يرفض الكثير من المستشرقين الاعتراف بأن السيد خدم لدى أمراء سرقسطة ، ويذهب المؤرخ الاسباني منندات بيدال Menendez Pidal إلى أبعد من ذلك ، فيقول بأن تردد هذا الفارس المغامر على سرقسطة كان نوعا من التدخل في شؤون المسلمين على الطريقة القشتالية[1] .

عاد السيد إلى عمله القديم ، واشترك مع قوات المنذر لمهاجمة أراضي أراغون ، لكن سانشو راميريث ملك أراغون ردّ بسرعة ، واستولى على حصن جرادوس Gradus.

أصبح السيد الكمبيادور يشكل خطرا حقيقيا على الإمارات النصرانية المجاورة لسرقسطة وأخذ سانشو راميريث يفكر جديا في كبح جماح هذه القوة المتزايدة ، فتحالف مع المنذر أخو المؤتمن وسارت قوّاتهما لمحاربة السيد ، ومنع وقوع مدينة موريلا Morella القريبة من طرطوشة في يد السيّد ، لكن الهزيمة كانت في صفّه ، وتم أسر مايزيد عن ألفي جندي من جيوشهما ، وعاد السيّد إلى سرقسطة فهبّ المؤتمن وبنوه لاستقباله بعد هذا النصر الكبير[2].

أثبتت الانتصارات المتوالية مدى قوة السيد الكمبيادور وشجاعته ،وأخذ المؤتمن يعتمد عليه أكثر فأكثر فنال حُظوة كبيرة لديه وأصبح لا يقطع أمرا دون استشارته ، وتحول من جندي يرتزق من خدماته ، إلى قائد ذي شأن يفرض نوعا من الحماية على مملكة سرقسطة كلها[3].

لم يمض وقت طويل حتى توفي المؤتمن عام 478هـ/1085م[4]، بعد حُكمٍ دام أربع سنين فقط فخلفه ولده أحمد وتلقب بالمستعين ، وتعرف فترة حكمه هزّات عنيفة ألّمت بالمسلمين في الأندلس لعل أعظمها سقوط طليطلة في يد النصارى عام 478هـ/1085م، وسيأتي تفصيل تداعيات هذا السقوط على الأندلس كلها في الفصل الثالث من هذا المبحث.

---

(1) منندات بيدال نقلا عن عنان : **دول الطوائف** ، 285.

(2) Dozy. **Le Cid**. P.122.

(3) عنان : **دول الطوائف** ، 286.

(4) القلقشندي : **كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1322هـ/1915م، ج5 ص255.

3/ مملكة الثغر الجوفي (الأوسط) وعلاقات طليطلة بالممالك النصرانية :

لم تكن طليطلة أقلّ أهمية من مملكة سرقسطة ، فقد عُرفت كقاعدة للثغر الأوسط أو الجوفي[1]،لها حدود واسعة مع مملكة قشتالة وليون ، ويزيد من أهميتها الإستراتيجية توسطها ممالك الأندلس وباعتبارها دار ملك القوط قبل الفتح الإسلامي ، لذا كان الصراع الإسلامي النصراني على أشدّه من أجلها ، كما سنوضح ذلك.

أ- أولية بني ذي النون :

حافظت طليطلة على أهميتها بعد انهيار الخلافة وتمزّق الأندلس إلى دويلات طوائف رغم ما مرّ بها من محن ، وتختلف المصادر الاسلامية الموجودة بين أيدينا في تحديد أول من استقل بها بعد انفراط عقد الخلافة الأموية، فابن عذاري[2] يذكر أن الوالي على المدينة كان عبد الرحمان بن متيوه ، خلفه بعد وفاته عبد الملك بن عبد الرحمان ، فأساء السيرة في الرعية فخلعوه ، وكان أهل طليطلة يميلون إلى الاستقلال والخروج عن الحكام ، فكانوا لا يخضعون لحاكم حتى يخرجون عليه ، واستمر الحال معهم حتى أرسلوا إلى ابن ذي النون وكان بشنت برية[3] ، فوجّه إليهم ابنه إسماعيل أميرا عليهم .

لكن ابن سعيد[4] والنويري[5] وغيرهما[6] يجعلون من أبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش[7] قاضي المدينة، أول من ثار بها أيام الفتنة ، فلم تطل مدة ولايته حتى خُلع وجيء بإسماعيل بن ذي النون ليَحكُم المدينة وأعمالها.

---

[1] ابن خلدون : **العبر** ، 206/4 ،(طبعة دار الفكر).

[2] **البيان المغرب** ، 276/3.

[3] شَنْت بَرِيَّة: مدينة متصلة بحوز مدينة سالم، وهي شرقي قرطبة.أنظر : ياقوت: **معجم البلدان**، 366/3.

[4] **المغرب**، 12/2.

[5] النويري : **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق أحمد كمال زكي،الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة،1980م ج23، ص440.

[6] أنظر : ابن الأثير : **الكامل في التاريخ**، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407هـ/1987م، ج8، ص110، ابن خلدون: **العبر** ،207/4 (طبعة دار الفكر) ، القلقشندي :**صبح الأعشى**،252/5.

[7] أنظر ترجمته في : ابن بشكوال :**كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس**، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط1،المكتبة العصرية، بيروت،1423هـ/2003م، ص529 ، ترجمة رقم (1523). وانظر أيضا : ابن الأبار : **الحلة السيراء** 37/2 ، 38 ، هامش رقم **(5)**.

وإذا كانت هذه المصادر تختلف بشكل كبير في تحديد بداية حكم بني ذي النون[1] ، فإنها تشترك جميعها في جعل إسماعيل بن عبد الرحمان بن ذي النون أول أمراء هذه الأسرة في هذا الثغر.

وتشير مصادر أخرى إلى الأصل البربري لهذه الأسرة ، وأنّ اسم جدّهم الحامل لهذه الاسم إنما هو زنّون فتصحّف بطول المدّة فصار ذو النون[2] ، وقد تكون الأسرة نفسها من حوّل هذا الاسم حتى ينسجم مع اللفظ العربي للكلمة ، ولا غرابة في ذلك فقد تعرّب الكثير من البربر في الأندلس حتى أن بعضهم ادّعى صراحة النسب العربي[3] .

لم تدم فترة حكم إسماعيل بن ذي النون – على اختلاف الروايات[4]- ، وقد تزامنت مدّته مع وفاة شانجة الكبير ملك نافار[5] (391-426هـ)/(1000-1035م)، الذي قسّم مملكته بين أبنائه[6]

---

(1) يجعل كل من ابن خلدون (**العبر**، 207/4 ،طبعة دار الفكر) ،والقلقشندي (**صبح الأعشى**، /252) من سنة 427هـ/1035م بداية حكم إسماعيل بن ذي النون لطليطلة.

(2) ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 276/3 ، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام**، 177 ، مجهول : **مفاخر البربر**، تحقيق عبد القادر بوباية، ط1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ، 2005،ص133، أنظر أيضا : الدراسة التي قام بها حقي حول البربر. حقي محمد : **البربر في الأندلس** ، دراسة لتاريخ مجموعة إثنية من الفتح الإسلامي إلى سقوط الخلافة (92هـ/711م- 422هـ/1031م)، ط1، شركة المدارس للنشر والتوزيع الدار البيضاء 1422هـ/2001م ،ص229.

(3) ادّعى بنو الأفطس ملوك بطليوس أيضا النسب العربي ، أنظر : ابن الخطيب ، **أعمال الأعلام** ، 182.

(4) كانت وفاة إسماعيل بن ذي النون سنة 427هـ/1035م، حسب رواية ابن خلدون و القلقشندي. أنظر : ابن خلدون : **العبر** ، 207/4 (طبعة دار الفكر) ، القلقشندي : **صبح الأعشى**،252/5 ، أما ابن الأثير فيجعل وفاته سنة 435هـ/1043م أنظر : ابن الأثير : **الكامل** ،110/8 ، ويسانده في ذلك بعض الباحثين .أنظر أيضا : عنان : **دول الطوائف** ، 97 ، وهو ما نميل إلي خصوصا بعد أن وقفنا على نص لابن الخطيب جاء فيه ((الفتنة بين الأميرين المشؤومين (يعني يحي بن إسماعيل بن ذي النون وسليمان بن هود) على المسلمين من سنة 435هـ إلى سنة 438هـ)) وهذا يعني أن بداية حكم يحي بن إسماعيل كانت في نفس السنة التي توفي فيها أبوه إسماعيل. أنظر: ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 178.

(5) Circourt .A. **Histoire des Mores Mudéjares et des Morisque , ou des Arabes d'Espagne sous la domination des Chrétiens** T1.Paris. 1846.p.87.

(6) قسّم شانجة الملقب بالكبير مملكته بين أبنائه قبل وفاته ، تفاديا لصراع قد يقع بينهم ، فحصل أكبرهم وهو غرسية على مملكة نافار ،و راميرو مَلَك أراغون ، بينما حَكَم فرديناند قشتالة ، ومنح منطقة سوبراب لولده الرابع غونصالو . أنظر : Circourt. A . op. cit .p.87-88.

و لم يَطُل الأمد بهم حتى اندلعت الحرب الأهلية بينهم ، وخَلُصت إلى تفوق فرديناند الأول على إخوته[1] ، ومن حسن حظ المسلمين أن هذه الحرب قد عطّلت –ولو لفترة وجيزة– حركة الاسترداد التي قادها هذا الملك ضدّ المسلمين وهو ما يفسر لنا صمت المصادر عن التعرض لعلاقة إسماعيل بن ذي النون بالممالك النصرانية عموما . هذا إذا افترضنا وجود نوع من العلاقات السياسية بين الجانبين خلال هذه الفترة .

مَلَكَ يحي بن إسماعيل طليطلة وتلقب بالمأمون ، وجرى على سبيل أبيه في استعمال قانون العدل بين الرعية ، فاستقامت طاعته واتّسع ملكه[2] ، وبلغ الترف في عهده منتهاه ، فبنى القصور ولبس الذهب والديباج ، وأقام إعذارا لحفيده يحي القادر ، أصبح مضرب الأمثال في الإسراف وكثرة الإنفاق حتى سُمِّي بالإعذار الذّنوني[3] .

غلبت صورة الحروب والصراعات على فترة حكم المأمون الطويلة التي جاوزت اثنين وثلاثين عاما، وكان محركها الأساسي التوسع على حساب الإمارات الضعيفة المجاورة حيناً أو التدخل لمساندة حلفائه وتحقيق مبدأ التوازن في القوة حينا آخر ، وكان ذلك يقضي إقامة علاقات متينة مع ملوك النصارى في شمال اسبانيا ، بدفع الجزية لهم والاعتراف بسيادتهم عليه حتى يتفرّغ لمحاربة إخوانه في الدين من المسلمين .

كان ابن هود صاحب سرقسطة والثغر الأعلى ، وابن عباد صاحب اشبيلية من أقوى المنافسين للمأمون بن ذي النون ، وقد سبق الحديث عن الصراع الذي حدث بينه وبين سليمان بن هود ودفع بهما للاستعانة بملوك قشتالة ونافار وأمراء برشلونة.

ب– محالفة النصارى في خدمة السياسة التوسعية :

عرفت السنوات الأولى من حكم يحي بن اسماعيل بن ذي النون،حروبا طاحنة واجه خلالها أطماع سليمان بن هود على أطراف مملكته ، وكانت مدينة وادي الحجارة الحدودية سببا لبداية الخصومة بينهما[4]، ويبدو أن الحرب الأهلية التي نشّطها أبناء شانجة الكبير قد ألقت بظلالها على هذين الأميرين، فنرى المأمون يسعى إلى تقوية أواصر الصداقة مع فرديناند ملك قشتالة فيغمره بالهدايا

---

[1] Viardot. L. **Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne** .T1.paris. 1851.p.217.

[2] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 177 ، 178.

[3] ابن بسام : **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ، 81-84.

[4] ابن عذاري : **البيان المغرب**، 277/3.

والتحف ويدفع له مبالغ ضخمة من الأموال ، فيدعمه فرديناند تارة وينقلب عليه تارة أخرى وهو في هذا كلّه يسلبه ماله ويستنفذ موارده ، وقد سبق أن فصلنا ذلك كلّه في موضعه[1] .

لم يكن في استطاعة المأمون بن ذي النون أن يحارب خصمين في آن احد ، ابن هود من الشرق وابن عباد من الغرب، ورأى أنّ محالفة المعتضد بن عباد ملك اشبيلية قد تجعل منه عوناً له على أعدائه، فسارع إلى الدخول في الدعوة الهشامية[2] منذ سنة 436هـ/1044م والتي رفضها أبوه من قبل[3] .

أسند المأمون بن ذي النون تصريف أمور بلاده إلى وزيره ابن الحديدي[4] يعاونه ثلاثة وزراء آخرين ، وهم الحاج بن محقور[5] ، وابن لبون[6] ، وابن سعيد بن الفرج[7] ، وتفرغ هو لتوسيع حدود مملكته وبسط نفوذه و لم يمض غير عام واحد حتى تمكن من ضمّ قلعة قَلَهُرَّة[8] لأملاكه سنة 437هـ/1045م وكانت تابعة للثغر الأعلى قبل أن يستولي عليها النصارى[9].

في هذه الأثناء كان ملك قشتالة وليون فرديناند الأول(425-458هـ)/(1035-1065م) يخوض حربا طويلة ضدّ إخوته،وتمكن منذ سنة 435هـ/1044م من توحيد مملكتي قشتالة وليون[10] ، وقاد عدّة حملات في بلاد المسلمين لم تسلم منها مملكة طليطلة ، الأمر الذي دفع المأمون بن ذي النون إلى

---

[1] راجع المبحث الثاني من الفصل الأول، ص21.

[2] ادّعى القاضي إسماعيل بن عباد أنّه عثر على الخليفة هشاما المؤيد ، ودعا ملوك الطوائف لتجديد البيعة له ، وكان ممّن اعترف بهذه الدعوة المأمون بن ذي النون .أنظر : ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 3/197- 200.

[3] ابن عذاري: **البيان المغرب،** 3/220. أنظر أيضا: Piquet.V. op. cit. p.117.

[4] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 177 ، أنظر ترجمة ابن الحديدي في ابن بشكوال : **الصلة** ، 515 ترجمة رقم **(1478)**.

[5] لم أقف له على ترجمة بين كتب التراجم التي اطّلعت عليها.

[6] هو لُبّون بن عبد العزيز بن لُبّون ،كان من وزراء المأمون بن ذي النون . أنظر : ابن الأبار : **الحلة السيراء** 2/167 ، 168.

[7] هو أبو عامر بن فرج ذو الوزارتين كان من بيت رئاسة لدى أسرة بني ذي النون .أنظر : ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 2/171، 172.

[8] **Calahora** : من أعمال تُطيلة في شرقي الأندلس ، أنظر : ياقوت : **معجم البلدان، 4**/393.

[9] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 178.

[10] Conde. Op. cit. p.160.

محالفة المظفر بن الأفطس ملك بطليوس لمواجهة هذا الخطر المشترك[1] .

وعدا هذه الرواية ، لا تأتي المراجع التي بين أيدينا على أيّة إشارة قد توحي بوجود علاقات سياسية بين مملكة طليطلة والممالك النصرانية ، وتستمر هذه الحالة مدّة تزيد عن ستة عشر عاما ، أي حتى سنة 454هـ/1062م[2] ، ولا نستبعد أن تكون حروب المأمون بن ذي النون مع جيرانه المسلمين وانشغال فرديناند بتوحيد مملكة أبيه، أسبابا تقف وراء ذلك.

و لم تمض سوى فترة وجيزة حتى تمكن فرديناند من إعادة الوحدة إلى مملكة اسبانيا ، ووجّه اهتمامه من جديد نحو ملوك و أمراء الأندلس ، وكان يطمح لإخضاعهم ، وسلبِ أموالهم مدفوعا بما يمتلكه من الحماسة الدينية والروح القتالية التي يفتقدها أعداؤه المسلمون[3] .

كان فرديناند يدرك جيّدا أنّ حرب الاسترداد الشاملة لم يحن أوانها بعد ، و أنّ التخلص من المسلمين يجيء على مراحل ، أوّلها استتراف أموالهم وسلبهم حصونهم وقلاعهم ، حتى إذا فنيت أموالهم أُخِذت البلاد بلا مشقة .

وتنفيذا لهذه السياسة ، أعدّ جيوشه وهاجم مملكة طليطلة في أطرافها الشمالية والشرقية فعاثت جنوده في مدينة سالم ووادي الحجارة ، ووصلت حملته إلى قلعة الحنش Alcalà de Hénarès[4] التي استغاث سكانها بالمأمون بن ذي النون وأبلغوه أنهم سيُسلّمون للنصارى إن لم يسارع لإنقاذهم وبدل أن يلبي المأمون نداء الاستغاثة ، عجّل بالخروج بنفسه إلى معسكر الملك النصراني، وألقى إليه بمقادير كبيرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة واعترف بطاعته وتعهّد بتقديم الجزية أسوة بملك سرقسطة وملك بطليوس[4]،ولاشكّ أنّ ملك طليطلة قد وظّف هذه المحالفة الجديدة أو الخضوع بالأحرى للملك فرديناند في خدمة مشروعه التوسعي ، وكانت مملكة بلنسية هدفه هذه المرّة.

---

(1) Conde. Op. cit. pp.160-161.

وتجدر الإشارة إلى ضرورة التعامل مع رواية كوندي بحذر شديد، فمن جهة لا نعلم مصدره في هذه الرواية ، كما عرف عنه أيضا إهماله للمصادر الإسلامية والاعتماد فقط على المدوّنات القشتالية من جهة أخرى.

(2) Altamira .R. **A History of Spain from the begining to the present day** . translated by Munna Lee .fourth printing. New York .p.141.

(3) Dozy.R. **Histoire** .T4. p.118

(4) قلعة الحنش : وردت عند ابن الخطيب باسم قلعة عبد السلام ، وهي قلعة قريبة من مدينة وادي الحجارة ، تتبع مملكة الثغر الأدنى طليطلة ، أنظر : ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 209، أنظر أيضا : ابن الكردبوس: **الاكتفاء**، 82 هامش رقم (1).

(4) Dozy.R. ibid. p.119.

كانت بلنسية يومئذٍ تخضع لحكم عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر (452-457هـ)/(1060-1065م) ، الذي خلف أباه عبد العزيز منذ سنة 452هـ/1060م وكانت تربطه علاقة مصاهرة بالمأمون بن ذي النون ، تزوج ابنته بعد وفاة أخيه عليها ، فأساء عشرتها وأهانها ، وبلغ خبرها إلى أبيها فحقد عليه ، وسعى للإطاحة به وضمّ بلنسية إلى أملاكه بالتواطؤ مع الوزير[1] أحمد بن أبي عبد الله بن عبد العزيز[2] .

تختلف المصادر بشكل واضح وتتعدد رواياتها حول سقوط هذه المدينة في يد المأمون بن ذي النون، وأكثر الروايات شيوعا تلك التي ذكرها ابن عذاري[3] ، مفادها أن ملك طليطلة قَدِم في زيارة لصهره عبد الملك ، وأقام عنده مدّة ، ثم غدر به وقبض عليه ثم نقله إلى شنت برية وهي مدينة من أعمال طليطلة ، وذلك في سنة 458هـ/1065م ، غير أنّ مؤرخ أندلسي آخر نجهل اسمه[4] يجعل من يوم الجمعة الثامن ذي الحجة سنة 457هـ/1064م تاريخا لهذه الحادثة .

كما تفاجئنا المصادر المسيحية برواية أخرى مخالفة تماما للرواية العربية ، نقلها بعض المستشرقين في كتاباتهم ، تشير بوضوح إلى اتساع الخلاف بين المأمون وصهره ، بعد رفض عبد الملك دعم ملك طليطلة بالجند لمحاربة ابن عباد ، فجهّز المأمون جيشه سرّا ،بعدما تحالف مع الملك النصراني فرديناند وانقضّت قوّاتهما على بلنسية التي لم تلبث أن سقطت في ذي الحجة458هـ/أكتوبر 1065م[5] .

والغريب في الأمر أنّ هذه الرواية تسمّي هذه الحادثة (وقعة بطرنة)[6] Paterna ، التي جاء ذكرها أيضا بشكل مفصّل عند ابن بسام[7] ، وابن عذاري[8] ، مع اختلاف كبير في التفاصيل

---

[1] هو أحمد بن محمد بن عبد العزيز ، كان وزيرا لعبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر ، ساعد المأمون بن ذي النون على دخول بلنسية والاستيلاء عليها ، فكافأه على صنيعه بأن عيّنه والٍ عليها ، ولا توجد صلة قرابة بينه وبين ابن أبي عامر سوى تشابه في الأسماء . أنظر :ابن الأبار: **الحلة السيراء** ،155/2 ، هامش رقم 01.

[2] ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 266/3 ، 267.

[3] **البيان المغرب** ، 266/3 ، 267.

[4] أنظر **ذيل الجزء الثالث من البيان المغرب** ، لكتاب مجهول العنوان والمؤلف ، 303 ، ابن الأبار : **الحلة السيراء** 129/2 ، مع اختلاف بسيط في اليوم ، وهو ما نميل لترجيحه.

[5] أشباخ يوسف : **تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين**، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي القاهرة،1417هـ/1996م، 52 ، **53**. Dozy.R. **Histoire** . T4. pp.126.127.

[6] بطرنة: بلدة ضواحي بلنسية ، أنظر : عنان : **دول الطوائف** ، 102.

[7] **الذخيرة** ، ق3، مج3 ،557-559.

[8] **البيان المغرب** ، 252/3 ، 253.

مقارنة بما جاء في الرواية المسيحية.

ويحاول أحد الباحثين جَعْلَ سقوط بلنسية في يد المأمون بن ذي النون ، كنتيجة لوقعة بطرنة[1] وهذا ما لا يمكن قبوله إطلاقا ،وذلك للاعتبارات الآتية :

أولها عدم ذكر المؤرخين المسلمين الذين كتبوا عن بطرنة لأي نوع من التعاون بين الملك فرديناند والمأمون بن ذي النون في إسقاط المدينة مثلما تدّعي المصادر الأوربية[2] .

وثاني هذه الاعتبارات تحمِلُها الرواية الاسبانية نفسها ، التي تؤكد خروج الملك فرديناند بنفسه لمحاصرة المدينة والسّعي لإسقاطها لفائدة طليطلة ، وهل من السّهل القبول بأن الملك الاسباني فرديناند الذي تلقّب بالإمبراطور[3] ، يخرج بقواته إلى بلنسية لمجرد مساعدة أحد أتباعه في تحصيلها ، وكان يمكن أن يكتفي بإرسال فرقة من جنوده ، وما يزيد من اضطراب الرواية المسيحية أيضا ، أنّها تذكر أنّ فرديناند رفع الحصار عن المدينة وقفل راجعا إلى ليون ، بعد أن شعر بالمرض يتسلل إلى جسده دون أن يحقّق هدفه في إخضاع بلنسية.

وعليه ، فسياق الأحداث يحتاج إلى إعادة بناء حتّ يستقيم ، اعتمادًا على الاعتبارات السابقة وبهذا نرجح أنّ فرديناند ، كان يعمل لحسابه الخاص في هذه الحملة ، ولم يخرج لمساعدة المأمون، وأنّ وقعة بطرنة وهزيمة عبد الملك بن عبد العزيز وجيشه على يد الجنود القشتاليين ، دفعت به لطلب العون من صهره المأمون بن ذي النون ، الذي هبّ لنجدته آمِلاً في استخلاص المدينة لنفسه،وساعده الحظ حينما غدَرَ بصهره وأسره ،فسلّم له سكان المدينة ، خصوصا أنّ فرديناند ربما يكون قد رفع الحصار عن بلنسية بعد أن شعر بِدُنُوِّ أجله ، وسارع في العودة إلى مملكته ، قبل أن يصل المأمون إليه[4] .

بعد ضمّ بلنسية أضحت مملكة طليطلة من أكبر ممالك الطوائف مساحة وأعظمها شأنا، ورأى صاحبها أن لاشيء يعدل هذا الانتصار سوى ضمّ قرطبة عاصمة الخلافة الأموية.

ج- اللّجوء السياسي كمظهر للعلاقات غير الرسمية:

بعد ثلاث سنوات من سقوط بلنسية في يد المأمون بن ذي النون ملك طليطلة ، توفّي حليفُه

---

(1) رجب عبد الحليم : **العلاقات**، 374 .

(2) أنظر : Dozy.R. **Histoire** . T4.p.127.

(3) Circourt.A. op. cit. p.93. ، ابن الكردبوس : الاكتفاء، 75.هامش رقم(2) .

(4) يبقى ذلك مجرد افتراض ، ولا نستطيع الجزم به في غياب النصوص التاريخية ، ومع ذلك يمكن دعم هذا الافتراض بما جاء في كتابات أحد الباحثين . أنظر : Piquet .V. op .cit .pp.117-118.

فرديناند الأول ملك قشتالة وليون أشتوريش سنة 458هـ/ 1065م ، الذي يبدو أنّه لم يستوعب الدرس جيّدًا فوقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه والده شانجة الكبير من قبل ، وقبل وفاته بعام قسّم مملكته الكبيرة بين جميع أبنائه إرضاءً لأطماعهم ولمنع أي نزاع محتمل قد يقع بينهم[1].

فاختصّ شانجه (سانشو) أكبر أبنائه بمملكة قشتالة وحق الجزية على مملكة سرقسطة ، ومنح ألفونس (ألفونسو) ليون وأشتوريش وحق الجزية على مملكة طليطلة ، وحصل أصغرهم غرسية على جليقية والبرتغال وحق الجزية على اشبيلية وبطليوس ،أمّا حق الإشراف على الأديرة فأوكلها إلى ابنتيه إلفيرا وأوراكه ، واختصّ أوراكه فوق ذلك بمدينة سمورة "Zamora" الحصينة أمّا إلفيرا Elvira فمنحها والدها مدينة تورو Toro ومناطق أخرى على نهر دويره[2] .

وسرعان ما برزت الأطماع بين الإخوة ، وتحولت بعد وفاة والدهم إلى نزاع مسلح ، ودخلت اسبانيا النصرانية في حرب أهلية استمرت عدة سنوات ، بدأها شانجه أكبر أبناء فرديناند والطامع في توحيد اسبانيا تحت لوائه ، فهاجم أخاه ألفونس السادس وهزمه في موقعتين ، الأولى موقعة اللاّنتادا في 25 رمضان سنة461هـ/19جويلية 1068م والثانية في موقعة جولبيخيرا عام465هـ/ 1072م وفيها أُسر ألفونس وسُجن في برغش[3] ، و لم يلبث أن فرّ إلى طليطلة لاجئًا إلى أميرها المأمون بن ذي النون الذي كان وقتئذٍ يدفع الجزية لمملكة ليون[4].

ومن المؤسف أنّ المصادر العربية لاتُطلعنا عن تفاصيل هذه الأحداث ، وتكتفي ببعض الإشارات التي لا تفي بالغرض ، وكأنّ ابن الخطيب قد تنبّه للأمر ، وأراد أن، يفصّل فيه ، لكنه لم يجد ما يغنيه في كتابات من سبقوه من المؤرخين المسلمين ، فاعتمد على الرواية الاسبانية فيما يبدو ، وفي ذلك يقول: ((...وأمّا أخوه دون ألفنش فجعله مُونّجًا في موضع عبادة على رسم الزُّهاد ، مرَقّبًا عليه بموضع يقال له سَفَقَنْد ، واحتال ، فهرب منه ، ولحق بطليطلة ، وبها يومئذ المأمون بن ذي النّون فآواه ، وأجاره ، وسكن عنده ، وسكناه بطليطلة واطلاعه على عوراتها هو الذي أوجب تملّك

---

(1) Altamira.R. op. cit. p.143.

(2) Circourt.A. op. cit. pp. 94-95. Viardot.L. op. cit. p.223.

Conde.J. op. cit .p.180. Terrasse.H. **Islam d'Espagne. Librairie plon**. Paris .1958 . p.128.

(3) برغش **Burgos** : تقع إلى الشمال من شبه الجزيرة ،وهي قريبة من مدينة ليون ، وكانت في هذه الفترة عاصمة لمملكة قشتالة وليون. أنظر : الحميري : **الروض المعطار** ، 44.

(4) ليفي بروفنسال : **الإسلام في المغرب والأندلس،** ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية، 1990، ص125 ، 126.

النصارى بها ...))[1].

وتذهب الرواية المسيحية أبعد من ذلك وتحاول أن تعطي بُعدًا دينيا لهذه العلاقة ، فتذكر مدونة سيلوس Cronica de silos [2] على سبيل المثال ، أنّ نفي ألفونس قد هيأته العناية الإلهية ، فلم تَعُدْ طبوغرافية طليطلة تخفى عليه ، وأنّه استمع ذات يوم لحديث بعض رجال المأمون في طريقة الدفاع عن المدينة بقولهم أن لا سبيل لتغلب العدوّ عليها إلاّ بطول الحصار[3].

وإذا كنا نفتقد إلى دوافع قوية تحملنا إلى الأخذ بهذه الرواية كما هي ، فإنّنا في المقابل نجد رواية أخرى لابن عذاري تؤكد جانبا من الرواية السابقة[4].

وتُشيد العديد من الدراسات الغربية الحديثة بسلوك المأمون بن ذي النّون وحُسن إكرامه لضيفه حيث بالغ في توفير أسباب الراحة له فأنزله دارًا بجوار قصره ، وخصّص له أخرى خارج المدينة ذات حدائق للتنزه فيها ، فكان يعيش أحسن الظروف وأكرمها[5].

ومّما لا شك فيه أن إقامة ألفونس في طليطلة مدة تسعة أشهر ، قد أتاحت له فرصة التعرف على دروبها والوقوف على نقاط ضعفها ، وأنّ فكرة استرداد عاصمة أجداده كانت تسيطر على تفكيره طيلة هذه الفترة.

و لم تكد تنقضي هذه المدة حتى بلغه خبر مقتل أخيه شانجه على يد أحد الفرسان حينما كان يحاصر قلعة سمورة يريد انتزاعها من يد أخته أوراكه([6] ، و لم يستبعد الكثير من المؤرخين أن يكون

---

[1] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ،330.

[2] مدونة تنسب إلى راهب من دير سيلوس ، وهو مستعرب إسباني من طليطلة مجهول الاسم عاش في القرن السادس الهجري /الثاني عشر الميلادي ، وقد تضمّن كتابه الكثير من الروايات والأساطير التي كانت متداولة في الأندلس في ذلك الوقت ، كما اهتمّ بإبراز مآثر الملك ألفونس السادس واستيلائه على طليطلة عام 478هـ/ 1085م. أنظر : العبادي أحمد مختار : **من التراث العربي الاسباني** ، مجلة عالم الفكر ، المجلد8 ، عدد1 ، وزارة الإعلام، الكويت 1977 ، ص85.

[3] بروفنسال : **الإسلام في المغرب والأندلس** ، 127 ، ولمزيد من التفاصيل حول الرواية الاسبانية أنظر : Circourt.A. op. cit. p.97.

[4] ابن عذاري :**البيان المغرب** ، 232/3.

[5] Conde.J. Op. cit. p.187. Piquet.V. op. cit. p.118. Circourt.A. op. cit. p.96.

[6] (أشباخ: **تاريخ الأندلس** ،25. أنظر أيضا : Circourt.A. op. cit. p97.

هذا الاغتيال قد تمّ بتدبير من أوراكه التي كانت تميل إلى أخيها ألفونس[1].

وهنا أيضا تختلف الروايات حول رجوع ألفونس إلى بلاده ، بعد وقوفه على خبر مقتل أخيه شانجه فتقول بعضها إنّ ألفونس حينما علم بالخبر أخفاه عن المأمون وأراد مغادرة طليطلة خلسة ، لكن المأمون تفطّن لهذه الحيلة فمنعه بل وألزمه قَطع العهود له ولوليّ عهده بعدم مهاجمة بلاده ، حينئذ صمّم ألفونس على الفرار ونجح في ذلك ، وهي رواية ضعيفة لا يمكن الأخذ بها ، أما الرواية الأخرى فهي الأوثق والأكثر انسجاما مع سياسة المأمون نحو الملك المهزوم ، فتُقِرُّ بأن ألفونس قد أبلغ المأمون بالنبأ ، وأعرب له عن عزمه في الرجوع إلى مملكته ، فقام المأمون وقدّم له المال ، وأرفق معه قوّة من الجند تحرسه حتى حدود بلاده[2].

عاد ألفونس إلى ليون في سنة 465هـ /1072م ، واستعاد عرشه المغتصب ، وأقسم على براءته من دَمِ أخيه القتيل ، فورث عرش قشتالة ، ولجأ إلى الخديعة والمكر ضدّ أخيه الآخر غرسية ، فسجنه وسلبه جليقية[3]، فتوحّدت من جديد مملكة أبيه فرديناند بعد أن مزّقتها الحروب الأهلية.

وتشير بعض الروايات ، بأن ملك إسبانيا الجديد قد عبّر عن عرفانه للمأمون بن ذي النون فساعده ببعض قوّاته في احتلال قرطبة وانتزاعها من يد المعتمد بن عباد ، لكن الرواية الإسلامية واضحة بشأن سقوط قرطبة في يد ابن ذي النون ، وأنّ الفضل في ذلك يعود إلى مغامر قرطبي يدعى حَكَم بن عكاشة[4] الذي دبّر مؤامرة مع سكان قرطبة لدخول المدينة والإطاحة بحكم بني عباد[5].

لم يهنأ المأمون كثيرا بهذا النصر الجديد ، وسرعان ما انتشر خبر وفاته المفاجئ في قرطبة في ذي

---

[1] أنظر: ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 330/2 ، أشباخ : **تاريخ الأندلس**، 25 ، عنان : **دول الطوائف**392. الحجي : **التاريخ الأندلسي** ، 330 ، ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 76 ، 77 ، هامش رقم (2).

[2] Circourt.A. op. cit. pp 97.98. , Conde. Op. cit. p.188.
عنان : **دول الطوائف**: 393. ، رجب عبد الحليم : **العلاقات** ، 375 ، 376.

[3] جليقية Galicia : وهي المنطقة الواقعة في الشمال الغربي من اسبانيا ، منحها الملك فرديناند لولده غرسية قبيل وفاته بعد أن قسّم مملكته بين أبنائه.أنظر : الحميري : **الروض المعطار**، 66.

[4] أخطأ الكثير من المؤرخين في تحديد اسم هذا المغامر القرطبي ، فجعله كل من كوندي Condé وفياردو Viardot وأشباخ ،حريز أو حارث بن الحكم بدل الحكم بن عكاشة ، والمعروف أن هذا الأخير هو الذي اعتمد عليه المأمون في أخذ قرطبة من بني عباد ، أما حريز فكان ابنه وُلِّيَ قلعة رباح أيام حُكم القادر بن ذي النون ، وقد أوضح ابن الأبار هذه المسألة حينما ترجم له ولابنه . أنظر : **الحلة السيراء** ، 176/2 ، 177.

[5] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**،151/2. Viardot. L. op. cit. p.225, Conde.J. op. cit.p.193.

القعدة سنة 467هـ/28 جوان 1074م ، بعد ستة أشهر فقط من دخولها[1] ، واستغل المعتمد بن عباد الفرصة لاسترجاع المدينة من جديد[2].

د- مملكة طليطلة بين ضعف ملكها يحي القادر والهيمنة القشتالية:

توفي المأمون بن ذي النون وترك خلفه مملكة واسعة أقامها بالغدر والخديعة ومحالفة النصارى - مع أنّ الغدر والخديعة كانت سمة ذلك العصر - وأورث ملكه لحفيده يحي[3] الذي سُمّي باسم جدّه وتلقب بالقادر، وصفه ابن الكردبوس أنه كان ((...ضعيف المنّة قليل المعرفة ، رُبِّيَ في أحجار النساء والدايات ، ونشأ بين الخصيان والغانيات، وحَكَمَ عليه كل خصيّ ومولود...))[4].

والظاهر أن المأمون كان يدرك مدى ضعف حفيده وقلة تجربته ، فاستوصى به الفقيه ابن الحديدي وأخذ المواثيق عليه في شدّ أزره ، وتثبيت أمره[5].

لم يلبث القادر أن وقع تحت تأثير عبيده ومواليه ، فأخذوا يُوغرون صدره على وزيره ابن الحديدي الذي سبق له أن أشار على المأمون بسجن جماعة من وجوه القوم تجنّبًا لشرّهم وما يمكن أن يُثيروه من فتن واضطرابات[6] ، لكن سفاهة القادر جعلته يُصِرُّ على قتل الوزير ابن الحديدي ، ولما كان يدرك مقدار حُظْوَة وزيره ومكانته بين الناس ، فقد أسند الأمر إلى سجناء جدّه المأمون فأخرجهم من السجن وأدخلهم المدينة سِرًّا ، ولم تطل المدة حتى فتكت هذه الجماعة بابن الحديدي

---

(1) ابن الخطيب : **أعمال الأعلام**، 152/2. Piquet.V. op. cit. p.118.

(2) ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 176/2 ، 177 ، أشباخ : **تاريخ الأندلس** ، 58 ، 59.

(3) توهّم الكثير من الباحثين ، أن يحي القادر كان ابنا للمأمون بن ذي النون ، بينما كان المأمون في حقيقة الأمر جده وليس أباه ، ولعلّ سبب هذا الخطأ هو اعتماد بعض المستشرقين على الرواية الاسبانية ، واكتفى باحثون آخرون بالاعتماد على رواية ابن الأثير (**الكامل** ، 110/5) ولم يكلّفوا أنفسهم عناء البحث في المصادر الأندلسية الأصلية.

أنظر على سبيل المثال : يحي أبو المعاطي محمد عباس : **الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس** (238-488هـ) / (852- 1095م) ، دراسة تاريخية مقارنة ، وهي رسالة مقدمة لنيل الدكتوراه بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، سنة2000 ، ص232 ، الحجي : **التاريخ الأندلسي** ، 335. أنظر أيضا : Piquet.V. op. cit. p.119. Viardot.L. op. cit. p.225

ثم قارن ذلك مع رواية : ابن بسام : **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ، 93 ، ابن بلكين: **التبيان**،99، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 176 ، وكلها تؤكد أن القادر كان حفيد المأمون.

(4) **الاكتفاء** ، 79.

(5) ابن بلكين : **التبيان** ، 99.

(6) تآمر بنو اللَّوَارِنكي ، وبنو مُغيث على القادر عقب إخراجهم من سجنهم في وبذة ، أنظر : ابن بلكين: **التبيان**،99 ، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 179.

وتم نهب دوره وأمواله ، وذلك في المحرم عام 468هـ/1075م[1] .

ظنّ القادر أنّ الحُكم أضحى في يده وحده بعد أن تخلّص من سلطة وزيره ونفوذه ، ولم يَدْرِ أن الجماعة الحاقدة قد تنقلب عليه وتنتقم منه نكاية في جدّه المأمون ، وبالفعل بدأت هذه الجماعة في إثارة الناس على حُكم بني ذي النون ، وأصبحت بوادر الثورة تلوح في الأفق.

لم تكن هذه الثورة أزمة القادر الوحيدة ، فهناك أيضا طمَعُ جيرانه ملوك الطوائف في بلده ،وأوّلهم المعتمد بن عباد الذي استغل ضعف الملك الجديد ، وتمكن من استرجاع قرطبة منه ،كما أشرنا إلى ذلك سابقا ،كما قام المقتدر بن هود ملك سرقسطة والثغر الأعلى بدوره إلى مدينة شنتبرية Santáver وحصن مُلينة[2] واستولى عليها بمساعدة حليفه سانشو راميريث[3].

أفقدت هذه الاضطرابات هيبة القادر في طليطلة ، ووصل صداها حتى مدينة بلنسية ، فلم يتردد واليها أبو بكر بن عبد العزيز في شق طاعة القادر ، ونصّب نفسه أميرًا على بلنسية[4] ، ورغم أن المصادر التاريخية المختلفة التي أوردت الخبر لم تضبطه بتاريخ محدد، فإننا نرجح أن يكون في سنة 468هـ/1075م ، أي بعد وفاة المأمون وتولي حفيده القادر شؤون طليطلة.

ضاقت طليطلة بالقادر على رحابتها ،و ورأى أن خلاصه يكمن في تدعيم علاقاته بألفونس السادس ملك قشتالة وليون ، فخاطبه من مدينة قونكة[5] Cuenca ، يلتمس عونه ويُذَكِّرُه بقديم الصداقة التي ربطت بينهما أيام محنة هذا الملك ولجوئه إلى طليطلة[6] ، فاستجاب له ألفونس وهو يعلم أن الوقت قد حان كي ينفّذ مشروعه الكبير في استرداد طليطلة.

تغيّرت علاقات ألفونس مع طليطلة بعد وفاة المأمون بن ذي النون ، ويبدو أن الوعود التي قطعها له من قَبْل بأن يصون مملكته وأن لا يعتدي عليها، قد أحرجت موقفه بشكل واضح[7] ، وبدأ يختلق

---

[1] ابن بسام : **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ، 96.

[2] مُلينة Molina : توجد عدة أماكن في اسبانيا بهذا الاسم ، لكن المقصود هنا حصن في مقاطعة كونكا أو قونكة Cuenca شمالي شرق طليطلة ، يُعرف بملينة أراغون، أنظر : ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 80 هامش رقم (4).

[3] ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 80.

[4] ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 129/2.

[5] قونكة أو كونكة Cuenca ، كانت من أمنع الحصون في منطقة الثغر الأدنى طليطلة ، فرّ إليها القادر حفيد المأمون بعد ثورة العامة عليه بطليطلة ، واحتمى عند أشياعه بني الفرج. أنظر : ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3 ،مج3،57 ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 81 ، هامش رقم(1).

[6] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 181.

[7] Lafuente نقلا عن عنان: **دول الطوائف**، 395.

الحجج والذرائع للتّنصل منها ، ورأى في القادر ذلك الملك الضعيف الذي لا يقوى على شيء ، وأنه ليس من صنف جدّه المأمون ، وأنّ الظروف باتت مواتية لتنفيذ طموحاته ، وهذه دوافع واهية ، نرى أن ليفي بروفنسال قد أجهد نفسه في إظهارها ليُبرّر سياسة ألفونس الجديدة نحو طليطلة[1].

كانت هذه السياسة غاية في المكر والدهاء ، كرّس لها الملك النصراني كل إمكاناته السياسية والعسكرية ، فقد كان يدرك جيدا أن الحصول على مملكة كطليطلة ليس أمرا سهلا ، وأنه لا طاقة له بحرب ملوك الطوائف دفعة واحدة ،فالحرب آنذاك كانت حرب قلاع وحصون وليست مواجهة عسكرية مباشرة قد تُحسم نتيجتها في معركة واحدة ، لذا حاول ألفونس أن يستغلّ أطماع المعتمد بن عباد التوسعية ليضمن حيادَهُ في غزو طليطلة كخطوة أولى[2] ، ثم أخذ يُغِير على أطراف طليطلة يخرّب ويقتل ويأسر، ثم ضرب الحصار عليها ، واشترط على القادر أن يسلّمه بعض القلاع والحصون نظير هذه المساعدة[3] .

ونشكّك في رواية ابن الخطيب التي تذكر أن القادر ((... قد عاقده على أن يُخلّي بينه وبين المدينة إذا أبلغه أمله من دخولها ...))[4] ، ونرى أن مطالب ألفونس اقتصرت على أخذ الأموال وبعض الحصون التي كانت مع الأسف خطوط الدفاع الأمامية لمدينة طليطلة ، وإنّ وقوعها في يد النصارى سوف يُمهِّد لسقوط طليطلة نفسها ، ويبقى استسلامها مجرد وقت فقط.

ترك فرار القادر فراغًا سياسيا خطيرا في طليطلة ، عبّر عنه ابن بسام بأسلوبه الأدبي البديع فقال : ((...وأقام أهل طليطلة بعده أياما كالسائمة المهملة ...ليس عليهم أمير ، ولا فيهم إلى الصواب مُشير...))[5]، لكن يوسف بن القلاس البطليوسي[6] كان قد أشار في ما يبدو على أعيان طليطلة بدعوة المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ليحكم مدينتهم، فكان له ذلك ، ودخل المتوكل طليطلة

---

[1] بروفنسال : **الإسلام في المغرب والأندلس** ، 135.

[2] أشباخ : **تاريخ الأندلس** ، 60.

[3] يظهر بوضوح هنا أنّ ابن الخطيب نقل هذا الخبر من ذخيرة ابن بسام ، الذي اشتهر بسلاطة لسانه ، ونقده الحاد لملوك الطوائف وسياستهم ، كما أن سياسة ألفونس في حصار طليطلة وإرهاقها ، لا توحي باتفاق مسبق مع القادر للتنازل عنها إذا ما تم دخولها. أنظر: ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 18، ابن بسام : **الذخيرة**، ق4، مج4، 100.

[4] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 181.

[5] ابن بسام : **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ،98.

[6] هو أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسي، كان مقربا من المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس.أنظر: ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ، مج4 ، 98.

في 472هـ/1079م[1] .

شنّ ابن بسام حملة لاذعة ضدّ المتوكل وعاب عليه انغماسه في الملذات وحياة اللهو والترف التي كانت دأبه طيلة تسعة أشهر،مدة إقامته بطليطلة[2]، لكنه ما كاد يسمع باقتراب القادر وحليفه ألفونس حتى ملأ يده من ذخائر بني ذي النون وعاد بها إلى حاضرته بطليوس تاركا طليطلة تواجه قدرها المحتوم ((...كالسفينة خانتها الريح والجسد بان عنه الروح ،بين ناب الطاغية أذفونش وظفره...))[3].

عاد القادر إلى طليطلة تحت حماية ألفونس وجنده ، على شروط للنصارى لا يُطاق حَمْلُها على قول ابن الخطيب[4]، ومن حسن الحظ أنّ الأمير عبد الله الزيري قد فصّل لنا في هذه الشروط ،وكان معاصرا لهذه الأحداث ممّا يزيد من قيمة روايته فقال : ((...أشدّها ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونش على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدي[5] من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه ، أخذها من أهل بلده حتى ضعُفُوا...))[6] .

فشلت المقاومة في طليطلة واستقر القادر على عرشها من جديد ، وما لبث ألفونس أن أماط اللثام عن نواياه ، وأخذ يرهق القادر بطلب المزيد من المال ، وينتسف الحصن بعد الحصن ، ورأى أن شن الهجمات وتخريب أطراف طليطلة سوف يعينه على تحقيق غايته ، فملّ الناس هذه الأوضاع وشكا بعض الأعيان سوء الحال للملك النصراني مع أنّ كلامهم لم يخل من نبرة تهديد الضعيف ، فلم يبال بهم ، وكشف لهم حقيقة ملوكهم وأمرائهم وما هم عليه من ضعف وخضوع ، وأن أحدًا منهم لم يتخلف عن إحضار رسله وإرسال الهدايا والتحف ، وكلهم يسأله الصداقة ويخطب ودّه[7]،حينئذ أيقنوا الهلاك ، وأدركوا أن ألفونس ينوي أخذ البلاد بعد أن كان يكتفي بأخذ الأموال والحصون

---

[1] ابن بسام **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ، 98 . ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 180.

[2] ابن بسام **الذخيرة**، ق4 ، مج4 ، 98.

[3] نفسه ، ق4 ، مج4، 100.

[4] **أعمال الأعلام** ، 181.

[5] المدي : هو المُدي القرطبي زنته ثمانية قناطير والستة أقفزة هي نصف مدي، زنته أربعة قناطير. أنظر : ابن غالب : **فرحة الأنفس**، 301. أبو مصطفى كمال السيد: **تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين** مركز الإسكندرية للكتاب ، د.ت ، ص 325.

[6] ابن بلكين : **التبيان** ، 99.

[7] ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ، مج4 ، 101 ، 102.

و لم تلبث طليطلة أن سقطت في يد النصارى في المحرم عام 478هـ/ ماي1085م[1] ، بعد وعدِ الملك النصراني للقادر أن يُملّكه بلنسية بدلا عنها ، واسترجع النصارى هذه المدينة ، واتسع نفوذهم بذلك إلى ما وراء نهر التاجو Tajo ، فكان سقوط طليطلة كارثة عظمى على المسلمين في الأندلس ، إذ لم يلبث خط التاجو بما فيه من مدن وقلاع أن انهار بعد انهيار قاعدته الرئيسة طليطلة[2].

ويمكن أن نتساءل عن اختيار ألفونس لطليطلة كي تكون أول الممالك الإسلامية التي تستهدفها حركة الاسترداد ، رغم أنها لم تكن أضعف هذه الممالك ؟ ، وكيف تسقط مدينة بحصانة طليطلة بهذه السهولة ، وقد كانت من أعظم دويلات الطوائف في عهد المأمون ؟.

مما لا شك فيه أن أزمة الملك يحي القادر قد أتاحت الفرصة لألفونس ليفرض نوعًا من الوصاية على طليطلة بحجة حماية ملكها الضعيف ، بينما كان في واقع الأمر يخطط في هدوء لتحصيلها .

أما الدافع الآخر وهو الأقوى والأكثر أهمية في نظرنا ، فيستند إلى رمزية طليطلة وما تمثله بالنسبة للمسلمين والنصارى فهي واسطة سلك الأندلس وثغره الأدنى من جهة ، وعاصمة القوط القديمة من جهة ثانية ، وإنّ استرجاع النصارى لها سوف يلهب حماستهم الدينية ويزيد قوتهم المعنوية[3] عكس ما قد يترتب عن ذلك من مرارة وألم وخوف في نفوس المسلمين ، وتكريس الروح الانهزامية لديهم، وبالفعل لم يلبث الأدب الأندلسي أن عبّر عن حالة اليأس التي ارتسمت على وجوه المسلمين في الأندلس ، فقال أحد الشعراء[4]: [البسيط]

يا أهل أندلس حثّوا مطيتكم	فما المقـــام بها إلاّ من الغلـــط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسُولا من الوسط[5] .

كما أن الإجابة عن التساؤل الثاني ، تقضي منّا البحث والتنقيب في ظروف سقوط طليطلة

---

(1) الضبي : **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**،تحقيق صلاح الدين الهواري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت1426هـ/ 2005م ، ص180 ، النويري : **نهاية الأرب** ، 442/23 ، ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 85 الحميري : **الروض المعطار** ، 135.

(2) ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 87 ، هامش(2).

(3) حول الضعف المعنوي الذي أصاب الأندلس في زمن ملوك الطوائف أنظر : السحيباني حمد بن صالح : **الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم** ، **عصر ملوك الطوائف في الأندلس أنموذجا** ، دار الكتب، القاهرة ، 2002.

(4) صاحب هذه الأبيات الشاعر الأندلسي أبو محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال ، أنظر : ابن بشكوال :**الصلة** ، المقري : **نفح الطيب** ، 352/4 ، ابن سعيد : **المغرب في حلى المغرب**، تحقيق خليل المنصور،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1997م ،ج2، ص18 ، 19.

(5) المقري : **نفح الطيب** ، 325/4 ، ابن سعيد : **المغرب** ، 19/2

والكشف عن العوامل التي عجّلت باستسلامها .

لقد سبق وأشرنا إلى ضعف السلطة الزمنية في هذه المملكة، وكيف استنجد يحي القادر بألفونس ، أضف إلى ذلك الضعف المعنوي الذي كان السمة الغالبة لمسلمي الأندلس في ذلك الوقت فلم يتجرأ أحد منهم على نجدة إخوانهم في طليطلة[1] ، ذلك أن ملوك الطوائف لم يكتفوا بالتخاذل والإحجام عن نصرة سكانها فحسب ، بل تواطأوا مع ألفونس وهو يحاصر المدينة ، فزوّدوه بالمؤن والأقوات وقد حاصرته الثلوج فقطعت عنه الإمدادات ، فجدّ في حصار طليطلة حتى تمكن من دخولها[2] .

أما العامل الآخر ، فجسّدته السياسة الماكرة لألفونس نفسها ، الذي استفاد من إقامته في طليطلة والإطلاع على تحصيناتها ، فرأى في الحصار السبيل الوحيد لإجبارها على التسليم ، وحتى يعجّل في أخذ المدينة وجّه عدة هجومات تخريبية على أطرافها ، فأضعف قدراتها الدفاعية ، فقلّت الأقوات و لم يستطع الناس الصمود[3] .عندئذ اتفق أعيان المدينة مع ألفونس على شروط تسليم المدينة ، وقد لخّص ابن الكردبوس هذه الشروط بقوله : ((...بعد أن شرط عليه من فيها من المسلمين أن يؤمنهم في أنفسهم وأموالهم وبنيهم ، وأن من أحب منهم الخروج لن يمنع منه ، ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص ، وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تَعَرُّضٍ عليه ولا في كثيره ولا في قليله ، فعاهدهم على ذلك ، وأعطاهم صفقة يمين وأقسم لهم أنه لا يغدر في ذلك ولا يمين...))[4] .

دخل ألفونس السادس (458-502هــ)/(1065-1109م) طليطلة تشاركه قوات من مختلف الممالك النصرانية ، من قشتاليين وليونيين وجليقيين ، وحتى من نافار و أراغون ، وهو ما يؤكد الطابع الصليبي الواضح في استرداد طليطلة، كما سارع إلى تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة متجاهلا نصائح وزيره المستعرب ششنند[5] ، وتلقب بالإمبراطور ذي الملتين الإسلامية والنصرانية

---

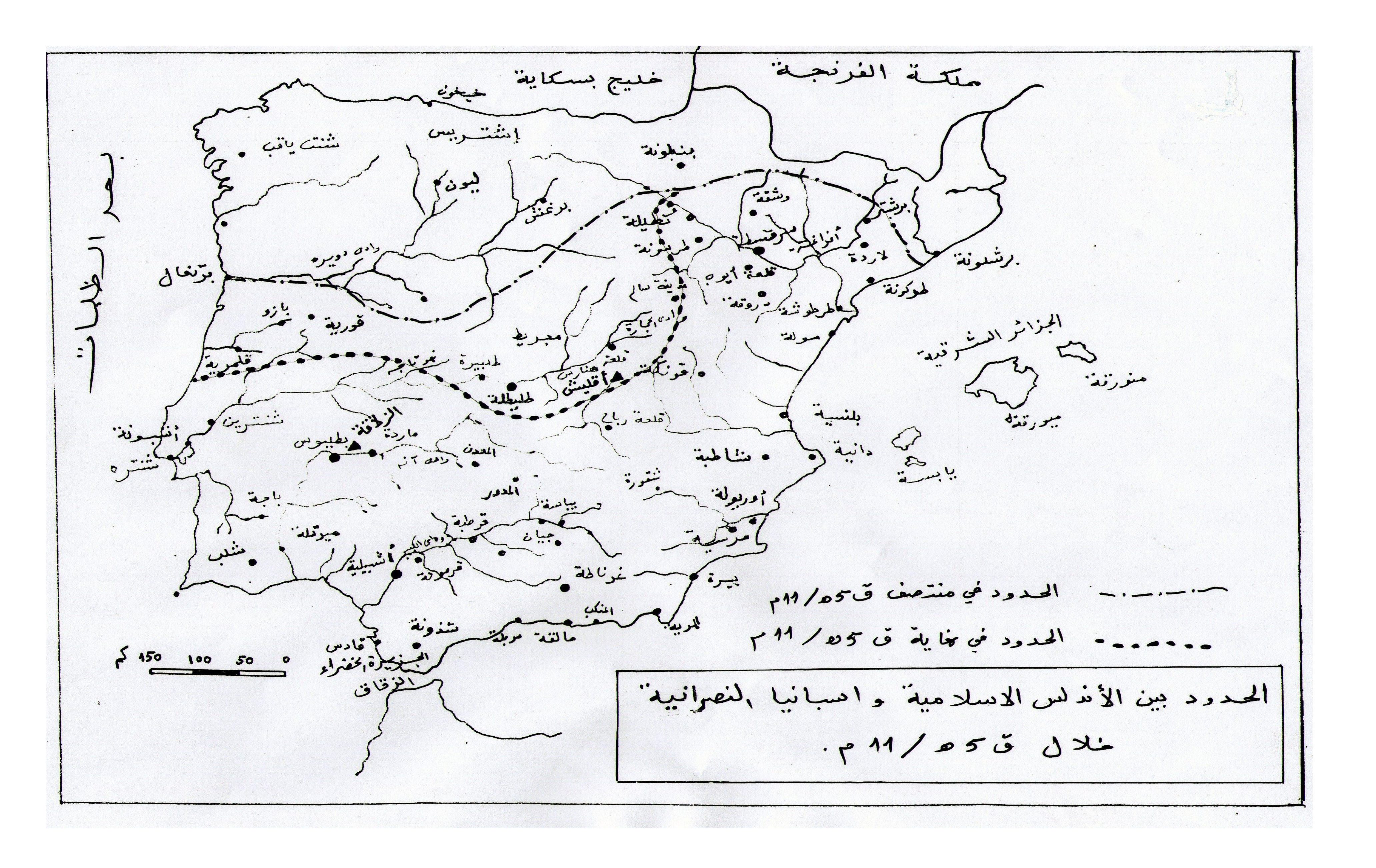
[1] يذكر الأستاذ عبد الله عنان ، أن عمر المتوكل ملك بطليوس قد سعى لنجدة طليطلة والتصدي لألفونس ، لكن اختلال ميزان القوة حال دون ذلك ، أنظر : **دول الطوائف** ، 332.

[2] ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ، مج4 ، 101.

[3] ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ، مج4، 101 ، سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ،29/2.

[4] ابن الكردبوس : **الاكتفاء**، 85.

[5] ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ، مج4 ، 103 ، عبادة كحيلة : **تاريخ النصارى في الأندلس** ، ط1 ، نشره المؤلف على عاتقه ، 1414هــ/1993 م ،ص 246 ، Altamira.R. op. cit .p.143.
الحجي : **التاريخ الأندلسي** ، 334 ، عباس إحسان: **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين**، ط7=


الحدود بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية
خلال ق ٥هـ/١١م.
الحدود في منتصف ق ٥هـ/١١م
الحدود في نهاية ق ٥هـ/١١م
مملكة الفرنجة
خليج بسكاية
بحر الظلمات
الجزائر الشرقية
برتغال
بنبلونة
ليون
إشتربس
شنت ياقب
طليطلة
سرقسطة
بلنسية
شاطبة
أوريولة
مرسية
المرية
غرناطة
قرطبة
أشبيلية
شذونة
الجزيرة الخضراء
قادس
الزقاق
مالقة
مربلة
بطليوس
ماردة
الزلاقة
شنترين
أشبونة
شنترة
باجة
شلب
قلمرية
قورية
بازو
مجريط
أقليش
لاردة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
دانية
بيرة
ميورقة
منورقة
يابسة
150 100 50 0 كم

وأخذ يكاتب أمراء المسلمين قائلا : ((من الإنبراطور ذي الملتين الملك المفضل الأذفنش بن شانجة...))[1]، وأظهر احتقاره لملوك الطوائف والاستهزاء بهم[2] ((...وداخله الإعجاب ما احتقر به كل ماش على التراب...))[3] ، ِ 47 العزم على استئصال ملوك الطوائف واسترداد اسبانيا كلها و لم تكن مدينة بطليوس بمنأى عن هذه الأطماع كما سنوضح ذلك في علاقات هذه المملكة مع نصارى الشمال الاسباني.

= دار الثقافة بيروت، 1985م ، ص 22.

(1) ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 88 ، 89 ، مجهول : **الحلل الموشية** ، 38 ، أنظر أيضا : أحمد أبو الفضل محمد : **تاريخ مدينة المرية في العصر الاسلامي**، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية، 1996 ، ص119 ، وتجدر الإشارة هنا أن ألفونس لم يكن ابن شانجة بل كان ابن فرديناند وهو خطأ واضح من المؤلف.

(2) من هنا تبرز حنكة ودهاء هذا الوزير باعتماد سياسة الدهاء والمكر ، فما إن عينه ألفونس حاكما على طليطلة،حتى أظهر العدل بين الناس وسهل دخولهم عليه كسبا لقلوبهم وضمانه لغيرهم وإبرازا لسخف ملوك الطوائف وجورهم وبقدر ما يبرز ذكاء ششنند وبعد نظره ، يتّضح لنا حمق ألفونس وسوء تقديره للعوائق ، فما إن شرع في تنصير طليطلة حتى هبّ ملوك الطوائف للاستنجاد بالمرابطين بعد أن وقفوا على حجم الأخطار المحدقة بهم .

(3) بعد سقوط طليطلة مباشرة هبّ ملوك الطوائف إلى ألفونس مهنئين ، ومظهرين علامات الطاعة والخضوع يتوسلون له كي يبقيهم عمالا لديه يجبون له الأموال ، حتى أن حسام الدولة ابن رزين حاكم شنتمرية الشرق أو السهلة ، أحضر هدية جليلة لألفونس، فكافأه بقرد كان يطفر أمامه ، و لم يشعر هذا الأمير بأدنى غضاضة ، ورأى في هذه الهدية جنته ، وأخذ يفخر بها أمام غيره من ملوك الطوائف . أنظر : ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 311/3 ابن الكردبوس : **الاكتفاء** 88 ، دوزي : **المسلمون في الأندلس** ، 128/3.

4- مملكة بطليوس قاعدة الثغر الغربي وعلاقاتها بالممالك النصرانية :

بعد انهيار الدولة العامرية وتفرّق الأندلس إلى دويلات طوائف ، استقلّ الفتى سابور بناحية بطليوس ، ولّما كان هذا الفتى غفلا عَطِلاً عن سائر أنواع المعارف ، فقد أوكل مسؤولية إدارة البلاد لوزيره عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس ، فلما هلك سابور سنة 413هـ/ 1022م ورث هذا الوزير مُلكه واستولى على الأمور في بطليوس، وتلقب من الألقاب السلطانية بالمنصور[1] .

يعود بنو الأفطس إلى قبيلة مكناسة البربرية[2] ، ومع ذلك ادّعت هذه الأسرة النسب العربي وقد علّق المؤرخ ابن حيان على هذا الادّعاء فقال : ومن النادر الغريب انتماؤه في تجيب (يعني به المظفر بن الأفطس)، وبهذه النسبة مدحته الشعراء إلى آخر وقته ، ومنهم ابن شرف القيرواني حيث يقول :

يا مَلِكًا أمست تُجيب به تحسد قحطان عليه نزار

لولاكَ لم تشرُف مَعَدٌّ بها جلّ أبو ذرّ فجلّت غفار[3]

وقد أكّد الكثير من المؤرخين هذا الأمر[4] ، في حين أسقط ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب أسرة بني الأفطس، و لم يذكرهم في من ذكر من بيوتات البربر في الأندلس ، دون أن ندري سبب ذلك، والثابت أن هذه الأسرة قد تعرّبت بطول مقامها في الأندلس، وأصبحت من أهل البلد وقد يكون طموحها السياسي دافعا وراء انتحالها النسب العربي وإن كنا لا نستطيع أن نؤكد هذا الافتراض.

أ- علاقة مملكة بطليوس بمملكة ليون في عهد المنصور بن الأفطس:

استبدّ المنصور بن الأفطس بحكم بطليوس ونواحيها،والظاهر أن علاقاته بالممالك النصرانية كانت محدودة،فلا نجد في المصادر التاريخية إلاّ الإشارات النادرة عن وجود اتصال سياسي أو تصادم عسكري بين مملكة بطليوس والممالك النصرانية الأخرى رغم التجاور الحدودي بينها وبين مملكة ليون.

---

(1) ابن حيان نقلا عن ابن بسام : **الذخيرة**، ق2 ، مج2 ، 379.

(2) نفسه، ق2، مج2، 379.

(3) نفسه ، ق2 ، مج2 ، 379 ، ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 97/2.

(4) أنظر : ابن عبد الملك المراكشي : **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** . تحقيق إحسان عباس ، السفر الخامس القسم الثاني ، دار الثقافة ، بيروت ، د.ت ، ص 446 ، ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 2/ 96 ، ابن بسام **الذخيرة** ق2، مج2 ، 379 ، مع العلم أن ابن بسام وابن الأبار يؤكدان هذا النسب بالاستناد إلى رواية ابن حيان ، أنظر أيضا : ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 182 ، 183.


اسبانيا النصرانية في النصف الأول
من القرن 14 م / 8 هـ
حدود الممالك الاسبانية
خليج بسكاية
مملكة الفرنجة
جبال البرنيه
مملكة نافار (نبرة)
بنبلونة
مملكة أراغون
مملكة قشتالة وليون
إشتوريس
ليون
شنت ياقب
برتغال
بحر الظلمات
شلمنقة
سرقسطة
طليطلة
مجريط
برشلونة
طركونة
لاردة
طرطوشة
بلنسية
دانية
مرسية
الجزائر الشرقية
منورقة
ميورقة
يابسة
البحر المتوسط
شنترين
شنترة
بطليوس
ماردة
باجة
ميرتلة
قرطبة
اشبيلية
قرمونة
غرناطة
جيان
بياسة
مالقة
المرية
بيرة
شذونة
قادس
450 كم 100 50 0

ولكي نوضح طبيعة العلاقة بين الجانبين، ينبغي أولاً إلقاء الضوء على أوضاع مملكة ليون خلال هذه الفترة من تاريخها.

كانت اسبانيا النصرانية في مطلع القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي تتكون من ثلاث ممالك هي : مملكة نافار يحكمها شانجه الثالث الملقب بالكبير (391-426هـ)/(1000-1035م) ،وكانت يومئذ أكبر الممالك النصرانية رقعة ، اشتملت فضلا عن الوطن الأصلي عدة ولايات مثل كنتبريا، وسوبراب، ورباجورسا[1] .

وفي هذا الوقت لم تكن قشتالة قد وصلت إلى مرتبة المملكة بعد، فهي إلى الإمارة أقرب ، خضعت لسلطة شانجه غرسية حتى وفاته سنة412هـ/ 1021م بعد حكم دام ربع قرن[2] .

أما مملكة ليون فكانت تحت حكم ألفونس الخامس منذ 999م/ 390هـ ، وهو الذي وجّه حملاته نحو أراضي بطليوس في شمال البرتغال ، واقتحم بعض نواحيها، وحاصر مدينة بازو Viseo، لكن سكانها – فيما يبدو- استطاعوا فك الحصار عن مدينتهم بل وألحقوا الهزيمة بالجيش الليوني المحاصر لهم ، حيث تذكر إحدى الروايات أن أحد الرماة المسلمين قد أصاب بسهمه المسموم الملك النصراني فتسبب في مقتله سنة 418هـ/ 1027م/ [3]، وهي الحادثة الوحيدة التي نجد لها ذكرا في كتب التاريخ حول بداية الصدام بين مملكة ليون ومملكة بطليوس في عهد ملكها المنصور بن الأفطس .

امتدت فترة حكم هذا الملك حتى سنة 437هـ / 1045م[4]، ومع ذلك لم يتقصّ المؤرخون أخباره ولم يفصِّلُوا فيها ، فعدا الحادثة السابقة مع مملكة ليون، وصراعه ضد القاضي اسماعيل بن عباد صاحب اشبيلية (414-433هـ)/(1023-1042م) ،لا نجد شيئا من أعماله تستحق الذكر،ويبدو أن علاقة مملكة بطليوس بالممالك النصرانية في الشمال آنذاك، قد سادها جوّ من التباعد والفتور، في ظل انشغال كل طرف بما هو أهم،فاسبانيا النصرانية كانت غارقة في الحرب الأهلية عقب وفاة شانجه الكبير، أما المنصور بن الأفطس، فكان يتوجس من نوايا جاره ابن عباد في الجنوب، ويسعى لحشد الحلفاء كي يتصدّى لأطماعه.

ومهما يكن من أمر، فقد توفي المنصور بن الأفطس سنة 437هـ/1045م وتولّى الأمر من بعده ابنه محمد وتلقب بالمظفر وكان عالما أديبا اشتهر بتأليفه كتاب المُظفّرِي الذي عُرف باسمه في خمسين

---

[1] عنان : **دول الطوائف** ، 376.

[2] نفسه ، 377.

[3] عنان : **دول الطوائف** ، 377 ، رجب عبد الحليم : **العلاقات** : 368.

[4] ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 236/3 ، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 183.

مجلدا ، كما يذكر بعض المؤرخين[1].

ب- المظفر بن الأفطس في مواجهة ملوك قشتالة:

من المهم هنا الوقوف على طبيعة العلاقات بين مملكة بطليوس والممالك النصرانية في عهد المظفر بن الأفطس، وهل خضعت في عهده مملكة بطليوس – كغيرها من الممالك الطائفية – لضغوط النصارى وشروطهم ؟، وما هي الأشكال التي اتخذتها هذه العلاقات بين الطرفين ؟.

عاصر المظفر بن الأفطس (437 – 460هـ)/(1045- 1067م) ملوكا أقوياء طامعين، يُحيطون بمملكته من كل جانب ، فمن ناحية الجنوب ،كانت العداوة واضحة بينه وبين المعتضد بن عباد (433 -461هـ)/ (1042- 1069م) ملك اشبيلية، أما جهة الشرق ، فجاوره المأمون بن ذي النون (435- 467هـ) / (1043- 1075م)، ولم تسلم بطليوس من هجماته عليها ، أما الجبهة الثالثة فكانت مملكة قشتالة وليون من الشمال ، وكان يحكمها آنذاك الملك فرديناند (427 -458هـ)/ (1035 – 1065م). كان هذا الملك النصراني الطموح يرقب تطور الأحداث عند جيرانه المسلمين باهتمام كبير ، ورأى أن المنطقة الممتدة بين نهر التاجو ونهر دويرة – وهي من أطراف بطليوس – تكاد تخلو من وسائل الدفاع[2] وأن الاستيلاء عليها ليس صعبا ، لهذا قرّر توجيه قواته إليها وتمكن من اختراق تلك المنطقة بسهولة واستولى على عدة مدن وحصون منها : حصن سان خوستو San justo، وطرنكة Taronca ومدينة بازو Viseo، ولميق Lamego ،ومدينة قلمُرية Coimbra وكانت هذه المدن والحصون تمثل مراكز دفاعية أمامية هامة[3]، تحمي مدينة بطليوس من الخطر الاسباني القادم من الشمال.

والجدير بالذكر هنا أن نشير إلى تخاذل المظفر بن الأفطس في مقاومة هذا الغزو والدفاع عن هذه المدن والحصون ، وترك معظمها يواجه مصيره، ويعلل أحد المؤرخين هذا الموقف بأن ابن الأفطس أدرك عدم جدوى المقاومة وفضّل التحصّن داخل أسوار المدينة[4].

---

[1] ابن بسام: **الذخيرة**، ق2، مج2، 378.، ابن الأبار : **التكملة لكتاب الصلة**،تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر بيروت،1415هـ/1995م ، ج1، ص317 ، 318،ترجمة رقم(1123) ، ابن عذاري : **البيان المغرب** 3/ 236 ، 237، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 183.

[2] رجب عبد الحليم : **العلاقات**، 368 ، 369.

[3] سالم سحر : **تاريخ بطليوس** ، 418/1 ، Altamira. R. op. cit. p.141. ، أنظر أيضا: دوزي: **المسلمون في الأندلس** ، 79/3.

[4] عنان : **دول الطوائف**، 86 .

وهناك أسباب أخري يمكن أن تفسّر لنا هذا الموقف ، ومنها: أن المظفر بن الأفطس خلال هذه الفترة أي سنة 449هـ /1057م ، كان قد خرج لتوّه من حرب عنيفة ضد المأمون بن ذي النون وتصدّى قبل ذلك لتوسعات المعتضد بن عباد، فلم تتح له فرصة استرجاع أنفاسه وإعادة تنظيم جيوشه ، فكان بالفعل عاجزًا عن التصدي لجيوش الملك القشتالي فرديناند الذي أصبح قوة مهابة الجانب خاصة بعد تمكنه من توحيد مملكتي قشتالة وليون منذ سنة 429هـ/ 1037م، وخروجه منتصرا من الحرب الأهلية التي نشبت بعد وفاة الملك شانجة الكبير.

أما السبب الآخر فيتعلق بالتركيبة البشرية للمنطقة الثغرية التي اخترقتها قوات فرديناند ، فقد كان يسكن هذه المنطقة جماعة مستعربة ، والظاهر أنها انحازت إلى جانب القوات الغازية ، وهيّأت لهم المجال للسيطرة على الحصون والمدن المتناثرة في المنطقة[1] .

يبدو أن هذه الخسائر التي أُلحِقت بالمظفر بن الأفطس لم تفقده رباطة جأشه ، فرفض دفع الجزية للملك النصراني فرديناند ، مما جعله يرسل قوة كبيرة من الجند ، قدّرها ابن عذاري بثلاثين ألف جندي منهم عشرة آلاف فارس[2] ، وكانت وُجْهَةُ هذه الحملة مدينة شنترين أو شنتمرية الغرب، وهي من أفضل مدن البرتغال ، ولعلّ أهمية هذه المدينة قد دفعت بملك بطليوس إلى الإسراع نحوها للدفاع عنها ، حتى لا تسقط مثل بازو و لميق من قبل ، وحين وصلت القوات الغازية إلى مشارف المدينة وأدركت صعوبة الاستيلاء عليها ، قرّر قائدها الذي يسميه ابن عذاري بالقومس مفاوضة المظفر بن الأفطس على دفع الجزية ، وقد رفض في بادئ الأمر ، لكنّه أذعن لشروط النصارى تحت التهديد وتم الاتفاق على مبلغ خمسة آلاف دينار تدفع كل عام[3]، ولا يُستبعد أن يكون الاتفاق قد تم بوساطة المأمون بن ذي النون[4].

وإذا كان دفع الجزية قد أنقذ مدينة شنترين من خطر فرديناند هذه المرّة ، فإن الخطر الحقيقي الذي تجاهله ملوك الطوائف جاء من دفع الجزية نفسها ، فقد تقوّى العدو بها على المسلمين،ويكشف ابن عذاري عن أبعاد هذه السياسة بقوله : ((...ولم يزل عدوّ الله فرديناند يقوى والمسلمون يضعفون بغرم الجزية للنصارى إلى أن نزل اللعين على مدينة قلمرية...))[5] ، وكانت هذه المدينة من

---

[1] سالم سحر : **تاريخ بطليوس** ، 417/1.

[2] **البيان المغرب**، 238/3.

[3] نفسه ، 238/3.

[4] ابن حيان نقلا عن ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 384.

[5] **البيان المغرب** ، 238/3.

أعظم مدن الثغر الغربي في شمال البرتغال ، خضعت لحكم المسلمين مذ فتحها المنصور بن أبي عامر سنة خمس وسبعين وثلاثمائة.

أدرك فرديناند أهمية مدينة قلمرية ، فأرسل إليها جيشا كبيرا لحصارها، دام الحصار ستة أشهر وكان والي المدينة آنذاك رجل من عبيد ابن الأفطس يسمى رانده، فخاطب فرديناند في السِّر حتى يؤمّنه على نفسه وأهله ، ويخرج إليه من البلد ليلا، فأعطاه الأمان، وما إن علم سكان المدينة بخبر استسلام قائدهم، حتى انهارت روحهم المعنوية، فلم يجد العدو صعوبة كبيرة في اقتحام المدينة ودخولها عام 456هـ/1063م، وأعْمَلَ السيف في سكانها قتلا وأسراً وتشريدًا، كل ذلك وملوك الطوائف ينظرون لم يجرُؤ أحد منهم على أن يحرّك ساكنا[1] .

ينفرد ابن عذاري بين المصادر الإسلامية بذكر اسم والي قلمرية ، فقال أنه يدعى (رانده)[2] والاسم يوحي لأول وهلة أنه لم يكن عربيا ولا مسلما ، وأغلب الظن أنه كان من المستعربين جعله المظفر بن الأفطس واليا على المدينة كسبًا لقلوب هذه الفئة من الناس ،الذين تعوّدوا السكن على أطراف الثغور وعُرِف عنهم إثارة المؤامرات والنفور من الخضوع لحاكم مسلم ، لكن يبدو أنّ هذه السياسة لم تكن ناجحة دائما بدليل أن فرديناند لم يجد صعوبة في إقناع (رانده) بضرورة النجاة بنفسه وأهله مقابل التخلي عن المقاومة والفرار إلى معسكر الملك النصراني. على أن المظفر لم يغفر له هذه الخيانة ، وأمر بضرب عنقه بعدما جاءه هذا الوالي معتذرا يسأله العفو[3].

لقد أحدث سقوط قلمرية في يد النصارى الشعور بالأسى والحسرة في نفوس المسلمين بالأندلس وذكّرهم بمأساة بربشتر التي حدثت في نفس العام . وإذا كانت هذه المدينة قد وجدت من يعيدها للمسلمين –كما سبق وأشرنا– فإن مصير قلمرية كان أكثر سوءًا ، فقد أخذها الملك فرديناند ونصّب مستشاره المستعرب ششنند حاكما عليها مكافأة له على خدماته ونصائحه ، واشترط في معاهدة التسليم أن ينسحب المسلمون إلى الضفة الأخرى من نهر منديق Mondego التي كانت تمثل الحدود القديمة بين المسلمين والنصارى ، ولم تتوقف حركة الاسترداد عند هذا الحد ، بل واصل فرديناند زحفه في منطقة الغرب الأندلسي[4] ، ومن حسن حظ المسلمين أن فرديناند توفي عام

---

[1] ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 239/3.

[2] نفسه ، 3/ 239.

[3] نفسه ، 239/3 ، ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 184.

[4] عنان : **دول الطوائف** ، 86 ، 87 ، سالم سحر : **تاريخ بطليوس** ، 425/1.

458هـ/1065م[1] . ودخل أبناؤه في حروب طويلة أفرزت بروز ألفونس السادس كوريث لعرش أبيه،وانتقال المستعرب ششنند Sisnando لخدمته ، وأسهم معه في انتزاع طليطلة من المسلمين في عام 478هـ/1085م[2].

لم يلبث المظفر أن توفي هو الآخر في سنة 460هـ/1067م[3]، وليس في السنة التي تليها كما فهم أحدهم[4]، ودخل ولداه عمر المتوكل ويحي المنصور في نزاع على السلطة[5] ، استعان الأول بالمعتضد بن عباد ملك اشبيلية[6] ، ومال الآخر نحو المأمون بن ذي النون ملك طليطلة.

وفي هذه الأثناء كان ألفونس السادس قد استتب له الأمر في قشتالة وليون ، وكما ورث مُلْكَ أبيه فرديناند ، فقد وَرِثَ عنه أيضا كرهه الشديد للمسلمين ، وسَعْيَهُ الدائم لطردهم من الأندلس واستردادها ، وكانت خطته تقوم على إضعاف المسلمين وتشتيتهم ، وجاءته الفرصة مواتية لإذكاء نار الفتنة بين أميري بطليوس يحي وعمر ،وقد عبّر عن ذلك ابن حيان بقوله : ((...واهتدى الطاغية أذفونش بن فرذلند المتمرس بجماعة ملوك الطوائف بالأندلس ، إلى شبِّ نار الفتنة بينهما كيادًا للمسلمين...))[7].

لا نعلم على وجه الدقة السياسة التي انتهجها ألفونس السادس لتوسيع الخلاف بين هذين الأميرين لكن الأكيد في الأمر ، أن ألفونس قد أخذ يطالب يحي المنصور صاحب بطليوس بزيادة الإتاوة

---

[1] ابن عذاري : **البيان المغرب**، 232/3.

[2] كحيلة : **تاريخ النصارى** ، 246.

[3] ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 97/2 ، ابن خلدون : **العبـــر**، 205/4 ،(طبعة دار الفكر)، القلقشندي : **صبح الأعشى** ، 251/5.

[4] ظنّ رجب عبد الحليم أن وفاة المظفر كانت سنة 461هـ ، اعتمادا على نص ابن الخطيب (**أعمال الأعلام** 184) وغاب عنه أن التاريخ المذكور هو لبداية النزاع بين ولدي المظفر ، لأن المصادر الأخرى واضحة في هذا الشأن. أنظر: **العلاقات** ، 370.

[5] ترى الباحثة سحر عبد العزيز سالم أن المظفر بن الأفطس ، لم يقسم الرئاسة بين ولديه كما فعل أبو الوليد بن جهور صاحب قرطبة ، إنما آثر أن يسند الأمور كلها إلى ولده يحي الذي تلقب بالمنصور ، بينما ترك ولاية يابرة لابنه عمر. أنظر : **تاريخ بطليوس** ، 12/2.

أنظر : سالم سحر : **تاريخ بطليوس** ، 12/2.

[6] يذكر ابن الخطيب (**أعمال الأعلام** . 184) أن عمر المتوكل مال نحو المعتمد بن عباد ، وهو بذلك يخالف رواية ابن حيان التي أوردها في المتن ، ذلك أن المعتضد كان لا يزال حيًّا آنذاك ، ولذلك نرجح رواية ابن حيان الذي كان معاصرا لهذه الأحداث. أنظر ابن حيان برواية ابن بسام : **الذخيرة**، ق2 ، مج2 ، 383.

[7] ابن حيان برواية ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 383.

السنوية التي كان يدفعها أبوه المظفر من قبل بوساطة المأمون بن ذي النون ، ويبدو أنه لجأ لأسلوب الضغط والابتزاز حتى يدفع يحي المنصور لقبول شروطه ، مقابل ألا يلجأ الملك النصراني إلى دعم عمر المتوكل ضده. ونلمس ذلك من عبارة ابن حيان دائما إذ يقول : ((...فانتفض على هذا الغلام (يعني يحي المنصور) لوهيّ في جبلّته ، وطماعية في إتيانه من قِبل أخيه...))[1]. فلمّا اعتذر يحي المنصور بعدم قدرته على رفع مقدار الإتاوة ، شن ألفونس سلسلة من الهجمات على مملكة بطليوس وأصاب عددا من المدن والحصون[2].

حاول الأخوان تجاوز خلافاتهما ، واتفقا على عقد هدنة بينهما لمواجهة اعتداءات النصارى على بلادهما ، لكن كثرة التدخلات الخارجية من النصارى ، وممالك الطائف الأخرى قد أفشل كل محاولات الصلح ، واستعرت نار العداوة بينهما من جديد ، و لم تهدأ الحرب في هذه المملكة إلاّ بوفاة أحد الأخوين ، وهو يحي المنصور ، وخلى السبيل لأخيه عمر المتوكل لينفرد بحكم بطليوس[3].

لم تذكر المصادر العربية تاريخ وفاة يحي المنصور ، وترجح سحر عبد العزيز سالم أن يكون في نهاية عام 461هـ/1068م أو بداية 462هـ/1069م[4]، وبوفاته استقرت الأوضاع في بطليوس حيث سارع عمر المتوكل بدخول عاصمة المملكة ، وجعل ولده العباس واليا عنه في مدينة يابرة Ivora[5].

ج- المتوكل بن الأفطس وسياسة ألفونس السادس:

كان المتوكل بن الأفطس من أشهر ملوك الطوائف ، ليس بحروبه وأعماله ، وإنما اشتهر بعلمه وأدبه وشعره ، فكان بلاطه يعجّ بالأدباء والشعراء ، مدحه بعض المؤرخين وأثنوا عليه فقال أحدهم : ((...ملِكٌ جنّد الكتائب والجنود وعقد الألوية والبنود ،وأمر الأيام فأتمرت وطافت بكعبته الآمال

---

(1) ابن حيان برواية ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 383.

(2) نفسه، ق2،مج2، 383.

(3) ابن حيان برواية ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 383 ، 384 . ابن الخطيب ،: **أعمال الأعلام** ، 184.
ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 97/2 ، 98.

(4) أنظر : **تاريخ بطليوس** ، 17/2.
مع العلم أن الأستاذ عبد الله عنان يرى أن يحي المنصور توفي فجأة سنة 464هـ/1072م . أنظر :
دول الطوائف، 88 ، وعنه يأخذ رجب محمد عبد الحليم : **العلاقات** ، 370.

(5) ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 97/2 ، 98. ويابُرَة Ivora: مدينة من كور باجة في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة.
أنظر: الحميري: **الروض المعطار**، 197.

واعتمرت ، إلى لسن وفصاحة ، ورحب جناب للوافد وساحة...))[1]. وقال عنه آخر : ((وكان المتوكل ملكًا عالي القدر ، مشهور الفضل ، مثلا في الجلالة والسرور ، من أهل الرأي والحزم والبلاغة ، وكانت مدينة بطليوس في مدّته دار أدب وشعر ونحو وعلم...))[2]،كما أشاد ابن بسام بشاعريته ونثره[3].

ولعلّ شهرته هذه ، تعود أساسا لقبوله تولّي شؤون طليطلة سنة 472هـ/1079م ، بعد اشتعال نار الفتنة بها وفرار ملكها القادر منها ، حيث لجأ إلى مدينة قونكةCuenca [4]، فظهر عمر المتوكل بمظهر المنقذ المدافع عن حمى الإسلام والمسلمين ، وقد سبق لي وفصّلت في هذه المسألة[5].

لم يَرُق لألفونس السادس جرأة المتوكل بن الأفطس ، فجهز حملة ضد مدينة قورية Coria في الأطراف الشمالية لمدينة بطليوس ،واقتحمها في نفس السنة التي خرج فيها المتوكل من طليطلة ، أي في سنة 473هـ/1080م ، حتى يتجنب مواجهة خاسرة ضدّ ملك قشتالة [6].

اختلفت الدراسات الحديثة بشكل واضح في دوافع إقدام المتوكل بن الأفطس على هذه الخطوة الجريئة وكيف قَبِل تولّي إدارة مملكة طليطلة ، وهو يعلم ما قد يجره هذا الفعل من غضب ألفونس وانتقامه!، ويرى المستشرق الاسباني ألبران Albarran[7] ، أنّ أهم سبب دعا المتوكل للاستجابة لدعوة أهل طليطلة ، هو الضربة العنيفة التي وجهها له ملك قشتالة باستيلائه على قورية مما دفعه للتفكير في التحصّن بمدينة طليطلة التي تشغل موقعا أكثر استراتيجية من بطليوس في استطاعته التصدي لهجوم واسع النطاق ، كما أن أسوارها أكثر حصانة من أسوار مدينة بطليوس[8]. وهو تفسير مقبول من الناحية النظرية ، لكن الباحثة سحر عبد العزيز سالم ترى أن رغبة بني الأفطس في السيطرة على طليطلة تعود إلى فترة حكم المظفر[9]، واعتقدت خطأً أن المظفر بن الأفطس قَبِلَ تزويج

---

[1] ابن خاقان : **قلائد العقيان في محاسن الأعيان**،ط1، مطبعة التقدم العلمية، مصر، 1320هـ ، ص37.

[2] ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 185.

[3] **الذخيرة**، ق2، مج2، 382، 383.

[4] ابن بسام : **الذخيرة**، ق4 ،مج4 ،99. ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 180.

[5] راجع المبحث الثالث من الفصل الأول، ص42.

[6] مجهول : **الحلل الموشية**، 35 ، رجب عبد الحليم : **العلاقات** ، 371.

[7] ألبران نقلا عن سالم سحر : **تاريخ بطليوس** ، 23/2 ، 24.

[8] نفسه : 24/2 ، 25.

[9] اعتمدت الباحثة على نص ابن الخطيب (**أعمال الأعلام** ، 180) في وصف فرار يحي القادر من طليطلة جاء فيه: ((...وزعموا أن زوجَهُ بنت المظفر وابنته منها تبعتاه يومئذ راجلتين أزيد من فرسخين إلى أن ركبتا ولحق =

ابنته من يحي القادر بناءً على هذه النية ، وغاب عنها أن المظفر الذي قصده ابن الخطيب ، لم يكن من بني الأفطس ، بل المظفر بن أبي عامر صاحب بلنسية ، ولو أنها دققت في رواية ابن بسام[1] لما التبس عليها هذا الأمر.

ومهما يكن من أمر ، فقد سقطت قورية في يد العدوّ ، وأضحى السبيل بذلك أمامه ممهدًا لكي يجتاح أراضي بطليوس ، وأدرك عمر المتوكل مدى الخطر المحدق بمملكته ، خصوصًا أنّ ألفونس لم يعد يقنع بضريبة المال ، بل أخذ يتطلع لأخذ البلاد ، فانتدب القاضي أبو الوليد الباجي للتطوّف على ملوك الطوائف كي يعظهم ويرغبهم في توحيد الصفوف وجمع الكلمة[2]، وتذهب إحدى الروايات إلى أبعد من ذلك ، فتقول أن المتوكل بن الأفطس كتب منذ سنة 474هـ/1081م — أي عقب سقوط قورية – إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يستصرخه حين كَلَبَ العدو على بلاده[3]. ويبدو أن المتوكل قد تلقى وعودًا من أمير المرابطين ، جعلته يرد بتلك الجرأة والإباء على رسالة ألفونس السادس التي مُلِئَت بالتهديد والوعيد[4].

حيث يذكر صاحب الحلل الموشية بعضا من هذه العبارات في كتابه ، ومنها قوله:((... وقد وصل إلينا من عظيم الروم (يعني ألفونس) كتاب مدع المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع

= ببعض حصونه...)) .أنظر: **تاريخ بطليوس** ، 25/2 ، هامش رقم (1).

[1] أنظر هذه الرواية في: (**الذخيرة** ق4 ، مج4 ، 97) ، حيث يقول : ((...حُدّثتُ أن زَوجَهُ بنت المظفر بن أبي عامر ، طريد جدّه —كان– من بلنسية وابنته منها تبعتاه يومئذ راجلتين نيفًا عن فرسخين ...)).

ويظهر بوضوح هنا أن ابن الخطيب اقتبس خبر فرار يحي القادر من رواية ابن بسام مع بعض التصرف الطفيف.

أنظر : **أعمال الأعلام** ، 180.

[2] عياض القاضي : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** ،تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ودار مكتبة الفكر، بيروت .طرابلس ، د.ت ، ج2، ص808 ، ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 98/2.

[3] ومما جاء في نص هذه الرسالة قوله: ((...لما كان نور الهدى —أيدك الله– دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنّك لدولة الاسلام أعز ناصر...ألا ناصرًا لهذا الدين المهتضم، ألا حاميا لما استبيح من حمى الحرم؟... ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية أعادها الله للإسلام، وأنّها مؤذنة للجزيرة بالخلاء، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء...وتضاعفت البلبلة، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية...استولى عليه عدو مشترك، وطاغية منافق، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا...)) . راجع النص الكامل للرسالة التي وجهها المتوكل بن الأفطس إلى يوسف بن تاشفين ، يستصرخه ويدعوه لنصرة إخوانه المسلمين في الأندلس في : مجهول : **الحلل الموشية** ، 34 ، 35 ، أنظر أيضا الملحق رقم 01 من هذا البحث ، ص166-167.

وبذلك يكون عمر المتوكل أول أمراء الطوائف الذين استنجدوا بالمرابطين .

[4] مجهول : **الحلل الموشية** ، 36 ، 37. أنظر أيضا الملحق رقم 02 من هذا البحث ، ص167.

تارة يفرق، ويهدّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة...))، أمّا جرأة المتوكل بن الأفطس فنلمسها من خلال هذه العبارات التي ردّ بها على ألفونس، بقوله: ((...وأمّا تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم، فبالذنوب المركوبة، والفرقة المكتوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، لعلمت أي مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرعه، فلم تزل تذيقها من الحمام وضروب الآلام، شرّ ما تراه وتسمعه، وأداء المال تتوزعه، وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهداه ابنته إليه، مع التي كانت تفد في كل عام...)).[1]

ويمكن اعتبار هده الفترة بداية التحول في مسار العلاقات بين مملكة بطليوس ومملكة قشتالة وليون على وجه الخصوص ، سيما بعد أن سقطت طليطلة سنة 478هــ/1085م ، وجواز المرابطين إلى الأندلس ، أين بدأت موازين القوة تتقارب بين المسلمين والنصارى ممّا أثر بشكل واضح في رسم العلاقات بين الجانبين بعد هذا التاريخ[2].

---

[1] مجهول: **الحلل الموشية**، 36، 37.

[2] سيتم تفصيل هذه العلاقات في الفصل الأخير من هذا البحث.

الفصل الثانـي :

أهم الممالك الطائفية الأخرى وعلاقاتها بالممالك
الاسبانية النصرانيـــة.

1- مملكـــة اشبيليـــــــــة .

2- مملكـــة غرناطـــــــــة .

3- مملكـــة بلنسيـــــــــة .

أهم الممالك الطائفية الأخرى وعلاقتها بالممالك النصرانية:

لم تكن الثغور الإسلامية أو الممالك الطائفية المجاورة لممالك النصارى في الشّمال الاسباني، هيّ وحدها من تحمّلَ عبء المواجهة والتصدّي لتوسعات الأعداء ، بل امتدّ نفوذ النصارى إلى عمق بلاد المسلمين، ممّا ولّد احتكاكا غير مباشر بين هذه الممالك المتناثرة في أرجاء الأندلس ، وبين القوى المسيحية الكبرى المسيطرة على شمال شبه الجزيرة الإيبيرية .

سأحاول في هذا الفصل من البحث ، أن أركز بالدراسة والتحليل على مظاهر الاحتكاك بين الطرفين وكيف تولّدت العلاقات السياسية والصدامات العسكرية بين الجانبين ، رغم التباعد الجغرافي الموجود بينهما .ولما كان الإلمام بمختلف جوانب هذه العلاقات من الصعوبة بما كان في ظل تنوع النزاع وتعدد أشكاله، مع وجود عدّة ممالك وإمارات مسيحية في الشمال الاسباني وممالك إسلامية في جنوب شبه الجزيرة، سيكون التركيز هنا على أكبر هذه الممالك الطائفية وأكثرها بروزا في ربط علاقات سياسية مع النصارى في الشمال ، وأخص بالذكر مملكة اشبيلية في غربي الأندلس ومملكة غرناطة في جنوبها ، أما في شرق الأندلس ، فيكون التركيز على مملكة بلنسية والمحنة التي تعرّضت لها هذه المدينة خاصة بعد ظهور السيد الكمبيادور، الفارس المغامر القشتالي. أما الإمارات الأخرى ، وهي أقرب ما تكون إلى الولايات منها إلى الإمارات، فسيكون الحديث عنها في سياق دراسة الممالك الكبرى ، ذلك أنّ هذه الإمارات كانت تتبع في معظمها للممالك الطائفية الكبيرة بصورة أو بأخرى، عن طريق الولاء تارة أو الخضوع تارة أخرى، أو الزوال، فتصبح جزءًا من المملكة الكبيرة كما حدث مع معظم إمارات غرب الأندلس.

1/ مملكة اشبيلية:

أ- بنو عباد وقيام مملكة اشبيلية الطائفية:

سبق وفصّلت في مدخل هذا البحث، الحديث عن الفتنة التي شهدتها الأندلس في مطلع القرن الخامس الهجري، وكيف أدّت إلى شيوع الفوضى والاضطراب في سائر أنحاء الأندلس، حيث استغلت المدن والأقاليم هذه الفرصة، واستقلت عن السلطة المركزية في قرطبة، ساعدها في ذلك الفراغ السياسي الذي ساد عقب مقتل الخليفة هشام المؤيّد، وطبيعة التضاريس الصعبة في الأندلس التي أعاقت السّلطة المركزية الضعيفة في قرطبة على فرض إرادتها على باقي الأقاليم الأخرى، وبالطبع لم تكن اشبيلية استثناءً من ذلك.


دويلات الطوائف
في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي.
حدود دويلات الطوائف
مملكة الفرنجة
بحر الظلمات
برتغال
الجزائر الشرقية
منورقة
ميورقة
بلنسية
دانية
مملكة دانية
مملكة طليطلة
مملكة بلنسية
مملكة المرية
مملكة غرناطة
مملكة اشبيلية
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
مرسية
المرية
مالقة
شذونة
قادس
بطليوس
طليطلة
شنترين
أشبونة
شنتره
برشلونة
طركونة
لاردة
سرقسطة
تطيلة
بنبلونة
برغش
شنت ياقب
إشتوريس
150 100 50 0 كم

لقد أدّت الصّراعات الدّموية التي شهدتها قرطبة عاصمة الخلافة في نهاية المطاف، إلى سيطرة حكم الأسرة الحمودية عليها، ومع ذلك فإنّ الانتصار العسكري لم يحقق وحدة الأندلس كما كانت من قبل[1] .

في هذه الأثناء ،كان القاضي اسماعيل بن عباد[2] يتولّى خُطَّة القضاء في اشبيلية، منذ أيام المنصور بن أبي عامر، وفي غياب سلطة سياسية قوية تنظّم شؤون المدينة وتضبط أمورها ، أخذ يعمل في هدوء وصمت على جمع خيوط الرياسة في يده ليستأثر بحكم هذه المدينة[3]، معتمدا في ذلك على حزمه ودهائه ووجاهته وثرائه. لذلك أقرّه الخليفة القاسم بن حمّود في منصبه بعدما تولى الخلافة في قرطبة في ذي القعدة 408هــ/مارس- أبريل 1018م .

ولما شعر القاضي ابن عباد بأنه قد حقق مبتغاه، ووطّد قدمه في الرياسة، وأحسّ بالضعف والعجز يتسلل إلى بدنه، أوكَل خُطّة القضاء لولده أبي القاسم محمد، في ظل استمرار سلطان الحموديين الذي كان قائما في قرطبة تارة ، وفي اشبيلية تارة أخرى[4].

لم يكن قاضي اشبيلية الجديد أقل حنكة ودهاءً وتطلُّعًا للرياسة من أبيه. ويكفي أن أعلل ذلك بما فعله مع الخليفة القاسم بن حمود الذي خلعه القرطبيون، ففرّ مفلولا إلى اشبيلية التي كانت آنذاك تحت حكم ولده محمد اسميا، بينما السلطة الفعلية في يد زعماء المدينة ومنهم ابن عباد[5].

كان القاضي ابن عباد يرى أنّ وجود الحموديين في اشبيلية يشكل تهديدا حقيقيا لأطماعه، فقرّر غلق باب المدينة في وجههم، وتمكّن بمقدرته على التفاوض من دفع القاسم بن حمود إلى التخلي عن اشبيلية مقابل الاعتراف بسلطته عليها ودفع مبلغ من المال، إضافة إلى تسريح ولديه محمد والحسن. وكي يعبّر عن صدق نواياه، قدّم ابنه عبادًا رهينة للحموديين[6]، فكسب بهذا العمل تقدير سكان

---

[1] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 41.

[2] قال عنه ابن حيان((... رجل الغرب كلّه المتصل الرياسة في الجماعة والفتنة، كان أيسر من بالأندلس وقته، ينفق ماله وغلاّته، لم يجمع درهمًا قط من مال السلطان ولا خَدَمَهُ...وكان معلوما بوفور العقل وسبوغ العلم والرّكانة مع الدّهاء وبعد النّظر وإصابة القرطسة...)). أنظر: ابن الأبار: **الحلة السيراء**. 36/2.

[3] عنان: **دول الطوائف** .32 .

[4] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 152.

[5] ابن حيان برواية ابن بسام : **الذخيرة** ، ق1، مج1، 302.

[6] ابن عسكر(أبو عبد الله محمد بن علي) و ابن خميس(أبو بكر محمد بن محمد بن علي): **أعلام مالقة**، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، ط1 ، دار الأمان ، دار الغرب الاسلامي ، الرباط ، بيروت، 1420هــ/1999م، ص279، ترجمة رقم(110).

اشبيلية وأعيانها وظهر فضله في صد البرابر عن مدينتهم.[1]

يستوقف المهتم بالتاريخ الاشبيلي في عصر الطوائف، النجاح الكبير الذي أحرزه القاضي أبو القاسم بن عباد في تجاوز العقبات العديدة التي اعترضت مشروعه في الاستئثار بالسلطة في المدينة بعد التخلص من جميع منافسيه. ولكي نقف على الأسباب الحقيقية التي كانت وراء هذا النجاح، ينبغي أولا معرفة هذه العقبات والصعاب التي واجهت هذا القاضي، لنُقَدّر في النهاية لهذه الشخصية جهدها في تأسيس مملكة اشبيلية الطائفية، التي كانت من أكبر ممالك الطوائف في الأندلس.

كان البربر يهدّدون اشبيلية ، تلك المدينة الغنية بالموارد والثروات، بل كانوا أعظم خطر يخشاه الأندلسيون، خاصة بعد أن أصبح لديهم خلفاؤهم، ونعني بهم بني حمّود[2]. وهو أكبر تحدٍ كان على القاضي ابن عبّاد مواجهته. أما المعضلة الأخرى، فكانت هذه المرة من داخل اشبيلية. ذلك أنّ القاسم بن حمود لما بُويِع بالخلافة في قرطبة للمرّة الثانية في سنة 413هـ/1023م، كان قد ترك على رأس اشبيلية، ولده محمد بن القاسم مع وزيره محمد بن خالص، رفقة حامية عسكرية يرأسُها محمد بن زيري بن دوناس اليفرني[3].

وما كان لأي سلطة جديدة أن تظهر في المدينة دون مواجهة الحموديين. أما العقبة الثالثة فكانت تتمثل في أعيان المدينة ومشايخها، الذين كانوا يتطلعون إلى نيل نصيبهم من السلطة والنفوذ، بما يمكّنهم من حماية مصالحهم[4].

يبدو أنّ القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد (414-433هـ)/(1023-1043م) كان يعي جيدا حجم هذه المخاطر والصعاب، فقام بترتيبها حسب الظروف والحاجة كي يزيحها عن طريقه الواحدة بعد الأخرى، بل يبدو أنه شكّل صورة واضحة عن الخطة الكفيلة بتحقيق النجاح، مما يدل على ذكاء متّقد وبعد نظر وحنكة سياسية، إضافة إلى المواصفات الأخرى التي ورثها عن أبيه، من جاه وثراء ونفوذ بين الناس.

كان القاضي ابن عباد في سنة 414هـ/1023م، قد تغلب على عدة عراقيل هامة، واستخدم وسائل متنوعة للسيطرة على اشبيلية، وقد سبقت الاشارة إلى دوره في إغلاق أبواب المدينة أمام

---

[1] ابن حيان برواية ابن بسام، **الذخيرة**، ق1، مج1، 302. أنظر أيضا: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 153.

[2] خالص صلاح: **اشبيلية في القرن 5هـ** . دراسة أدبية، تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها. دار الثقافة ، بيروت، 1965.ص 120.

[3] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق1، مج1، 302.

[4] ابن عذاري :**البيان المغرب** ، 195/3.

صاحبها القاسم بن حمّود، بفضل التفويض الذي منحه الاشبيليون له، ومكانته بينهم، هذه المكانة التي وظّفها في تأليب الرأي العام داخل اشبيلية ضدّ حكم بني حمود. كما أن القاسم بن حمود قد ارتكب أَفْدَحَ أخطائه السياسية، عندما بعث إلى الاشبيليين رسالة يأمرهم فيها بإعداد المدينة لاستقبال جيوشه فوجد القاضي الفرصة سانحة للتخلص نهائيا من حكم الحموديين[1].

وبعد نجاحه في تحقيق خطته الأولى، سارع إلى إغراء قائد الجيش محمد بن زيري، ووعده بتأميره على المدينة إن شاركهم في التخلص من الحموديين، وهكذا تخطّى ابن عباد العقبة الثانية وكان عليه التخلّص من زعماء البيوتات العربية الذين شاركوه في حكم اشبيلية حكما جماعيا، ومنهم ابن أبي بكر الزبيدي النحوي المعروف، وابن مريم، وابن العربي وغيرهم[2].وإذا كنا لا نعلم الطريقة التي أزاحهم بها، فإنه من الثابت انفراده بالحكم، فأصبح مطلق السلطة الفعلية، لا ينقصه إلاّ البحث على شرعية لحكمه، وبذلك يمكن اعتبار القاضي ابن عباد المؤسّس الحقيقي لمملكة اشبيلية الطائفية. و عندما توفي سنة 433هـ/1043م ، ترك مملكة- وإن لم تكن شاسعة المساحة- فمستقرة داخليا على الأقل، في ظل فراغ الساحة من المنافسين والمناوئين للحكم العبادي.

ب- القاضي محمد بن عباد وطريق البحث عن الشرعية:

بعدما تنكر القاضي ابن عباد لحليفه البربري محمد بن زيري، وقام بالقبض عليه ثم أطلق سراحه شريطة أن يغادر اشبيلية نهائيا، أصبحت السلطة الفعلية في يده، لكنه رأى أنّ حكمه للمدينة يفتقد

---

(1) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 197/3،ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 153. النباّهي (ابن الحسن): **المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، والمسمّى أيضا : تاريخ قضاة الأندلس**، تحقيق مريم قاسم طويل ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1415هـ/1995م ، ص 125. وانظر أيضا : **Piquet.V. Op.Cit. pp.70-71**

(2) ابن عذاري، **البيان المغرب** .195/3. ونشير هنا أن أسماء الوزراء المساعدين لابن عباد جاءت مختلفة في العديد من المصادر، فمثلا ابن بسام يقدم الأسماء الآتية: ((...وكانوا جماعة منهم بنو أبي بكر الزبيدي النحوي وبنو يريم صنائع ابن عباد وغيرهم...)). أنظر ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2، مج2 ، 5.

أما عبد الواحد المراكشي، فيضيف اسمين آخرين على رواية ابن بسام إذ يقول :((...وهؤلاء المسمّون هم: الوزير أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، ومحمد بن يريم الألهاني، وأبو الأصبغ عيسى بن حجاج الحضرمي، وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني...)). أنظر : **المعجب** .88.

غير أنّي أميل إلى الروايتين السابقتين، لاعتمادهما على المؤرخ المعاصر ابن حيان، أما رواية المراكشي فينبغي التعامل معها بحذر، كونه ألّف كتابه بالمشرق بعيدا عن مصادره، وهذا يعني اعتماده بشكل أساسي على ذاكرته ، فجاء كتابه متداخل الأحداث مضطرب التواريخ، كما يعترف هو بذلك، أنظر : **المعجب** (مقدمة المؤلف) .ص8.

ويضيف الجغرافي الأندلسي العذري في تفاصيل هذه المسألة، فيخبرنا أنّ القاضي ابن عباد، قد تخلّص من منافسيه ابن يريم و الزبيدي، بعدما تجنّى عليهما، فخرجا إلى المشرق حاجين . أنظر: **ترصيع الأخبار**: 106.

إلى الشرعية، لأنه لا يتوفر على أية أسس نظرية للحكم. وبهدف كسب تأييد العامة وتأكيد سلطته الداخلية، سارع لتشكيل جيش إشبيلي يخضع لسيطرته المباشرة، واستعمل ثروته الطائلة لتحقيق هدفه، فاشترى العبيد والجند المرتزقة، فأنشأ بذلك جيشا من أقوى جيوش الأندلس[1] .

و لم يكن دور هذا الجيش ، الدفاع عن حدود المملكة والدود عنها فحسب، بل وجّهه أيضا للغزو الخارجي والقيام بحملات توسعية على حساب الإمارات الصغيرة المجاورة لمملكة اشبيلية، و لم يفُته أن يسلك منحى المنصور بن أبي عامر في توجيه جيشه لغزو إحدى الممالك النصرانية في الشمال الغربي من شبه الجزيرة، وكان هذا الجيش في حاجة لعبور أراضي مملكة بطليوس كي يصل إلى هدفه في الشمال، لهذا عقد محمد بن عباد اتفاقا مع المنصور بن الأفطس(413-437هـــ)/(1022-1045م) صاحب بطليوس، يسمح بمرور قوات اشبيلية نحو بلاد الأعداء عبر أراضي مملكة بطليوس. ونجهل تماما ما هو الثمن الذي قدّمه ابن عباد مقابل هذه الصفقة، خاصة ونحن نعلم مدى العداوة الموجودة بين القاضي ابن عباد وابن الأفطس بسبب السياسة التوسعية لاشبيلية التي كانت تتطلع لالتهام جميع الممالك والإمارات الموجودة في غرب الأندلس، وهو ما يهدّد أمن وسلامة مملكة بطليوس. وعلى كل حال ،وَثِقَ ابن عباد بوعود خصمه ابن الأفطس وجازت قواته في سنة 425هـــ/1033م أراضي مملكة بطليوس، غير أن المصادر التاريخية لم تفصّل كثيرا في هذه الغزوة وتكتفي بالإشارة إلى غدر قوات ابن الأفطس بجيش اشبيلية في طريق العودة بكمين محكم نُصب في مسلك ضيق، و لم يجد قائد الجيش الاشبيلي إسماعيل بن القاضي من سبيل، سوى الفرار للنجاة بنفسه مع من تبقى من الجنود، حتى لجأ إلى مدينة أشبونة وتحصن بها هروبا من مطاردة جنود ابن الأفطس، والجنود النصارى[2] .

لم تركّز المصادر التاريخية، ولا الدراسات الحديثة على هذه الحادثة رغم ما تكتسيه من أهمية وغموض في آن واحد، فهي من جهة تشير إلى أول احتكاك بين مملكة اشبيلية الطائفية، وبين مملكة ليون النصرانية من خلال هذه الغزوة، ومن جهة أخرى تُلمّح إلى تحالف حدث بين ابن الأفطس صاحب بطليوس وبين النصارى الاسبان، كي يزوّدوه بجنود للانتقام من ابن عباد، الذي سبق أن هزمه في معركة سابقة بينهما. وتطرح هذه الحادثة أيضا الكثير من علامات الاستفهام والتساؤل جاءت من خلال رواية انفرد بذكرها كل من ابن بسام[3] وابن عذاري[4]. الأولى تتعلق بوجهة

[1] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2، مج2، 6، ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 196/3،ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 153

[2] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2، مج2 ، 9 ، ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 203/3.

[3] **الذخيرة** ، ق2، مج2 ، 9.

[4] **البيان المغرب** ، 203/3.

الحملة العسكرية التي أرسلها القاضي ابن عباد عبر أراضي بطليوس، فيذكر صاحب الذخيرة أنّ الغزوة كانت تستهدف أرض غليسية[1] وفسّره أحد المحققين على أنّه إقليم في جنوب فرنسا[2] ،وهو ما لا يمكن قبوله، إذ كيف يفكر صاحب اشبيلية لمجرد البحث عن قليل من الشرعية ، أن يوجه حملة عسكرية إلى جنوب فرنسا، ونحن نعلم بُعد المسافة بين اشبيلية وفرنسا وما يفصل بينهما من حواجز طبيعية وكيانات سياسية إسلامية ونصرانية، كما أنّ عدد الجيش الاشبيلي القليل نسبيا، لا يسمح بخوض مثل هذه المغامرة لذلك من المستبعد أن تكون غليسية هي إقليم في جنوب فرنسا. وظنّ آخرون أنّ المقصود بها مملكة ليون[3] اختارها القاضي محمد بن عباد لتكون هدفًا لحملته العسكرية حتى يظهر أمام الناس بمظهر المحافظ على تقاليد الخلفاء ، ليكسب ولاءهم وطاعتهم، ونأى بنفسه أن يعمد إلى الحلول السهلة فينتحل الألقاب الخلافية وهو غير أهل لها[4].

وحتى هذا الافتراض يبدو غير دقيق، فقد عُرفت ليون بهذا الاسم لدى المؤرخين العرب، و لم يكن من دافع لتغيير الاسم إلى غليسية. وقد بقي الغموض يلُفّ مقصد هذه الغزوة، حتى عَثرتُ على نص لابن الخطيب فصّل إلى حد كبير في الموضوع جاء فيه: ((وأعطى مُلك غليسية وبرتقال لدون غرسية))[5]، مما يؤكد أن غليسية ما هي إلا جليقية. يدعم هذا الرأي أيضا أنّ القاضي محمد بن عباد، قد أسَر خلال هذه الغزوة مجموعة من الأطفال النصارى،ومنهم سسنندو دافيدس Sisnando Davidez ، الذي تُسمّيه الرواية الإسلامية بششنند ، وقد ترعرع هذا المستعرب في البلاط الاشبيلي، وبرزت مواهبه فقرّبه المعتضد بن عباد وجعله سفيرا بينه وبين فرديناند ملك قشتالة لكنه ما لبث أن خشي على نفسه، ففر عائدا إلى جليقية[6] ، وهذا بلا شك يؤكد أنّ غزوة القاضي ابن عباد

---

[1] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 9.

[2] نفسه ، ق2 ، مج2 ، 9 ، هامش رقم(4).

[3] وهو ما تذهب إليه الباحثة سحر عبد العزيز سالم . في كتابها: **تاريخ بطليوس** ، 374/1.
وهي توافق بذلك ما ذهب إليه رجب عبد الحليم: أنظر : **العلاقات** ، 383.
أما الأستاذ محمد عبد الله عنان ، فاكتفى بالقول أنّ الحملة قد توغلت شمالا في أراضي بطليوس وعاثت فيها . أنظر : **دول الطوائف** ، 36 ، 83.

[4] لم يتّخذ القاضي محمد بن عباد الألقاب خلافا لغيره من ملوك وأمراء الطوائف ، واكتفى بلقبه القديم كقاضي لاشبيلية رغم أن زمام السلطة كلها كانت بيده . أنظر :ابن خاقان: **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق محمد علي شوابكة ،ط1،دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1403هـ/1983م، ص171.

[5] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** . 329. للعلم تُعرف البرتغال لدى بعض المؤرخين المسلمين كابن الخطيب ببرتقال.

[6] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق4 ، مج4، 102.

كانت تستهدف منطقة جليقية شمال البرتغال حاليا، وليس مملكة ليون.

أما التساؤل الثاني فيتعلق بالمدينة التي لجأ إليها اسماعيل بن محمد بن عباد قائد الجيش الاشبيلي حينما طاردته قوات المنصور بن الأفطس وجنود النصارى، حيث يتفق ابن بسام[1] وابن عذاري[2] الذي يبدو أنه أخذ برواية ابن بسام وتصرّف فيها قليلا، على أنّ المدينة المقصودة كانت أشبونة Lisbona لكن الغريب في الأمر، هو لجوء ابن عباد إلى أشبونة وهي من ممتلكات عدوّه ابن الأفطس. وقد تبادر إلى ذهني أول الأمر أن تكون الأشبونة هي مدينة الأشونة Osuna ، وأنّ ابن بسام وابن عذاري قد اختلط عليهما الأمر أو أنّ الناسخ قد أخطأ في رسم اسم المدينة مع التشابه الكبير بينهما، لكن وقوع مدينة الأشونة إلى الشرق من اشبيلية قد ألغى نهائيا هذا الاحتمال، كون ابن عباد مرّ بأراضي بطليوس ليعود إلى اشبيلية وليس بأراضي مملكة طليطلة. لكن نصاً آخر لابن عذاري[3] في موضع آخر من كتابه قد ألقى الضّوء على جزء من هذا الغموض، حيث ذكر أنّ مدينة الأشبونة كانت فعلا تابعة لبطليوس، لكنّ ولدي سابور، عبد العزيز و عبد الملك، استقلا بها بعد أن غلب عليها ابن الأفطس وسلبهما ملك أبيهما في بطليوس ، لذلك يبدو لي أنّ هذه المدينة كانت تحت سلطة عبد الملك بن سابور، الذي خلف أخاه عبد العزيز، وذلك قبل أن يستعيدها المنصور بن الأفطس منه من جديد[4]. وهو ما يفسر لجوء ابن عباد وتحصنه بالأشبونة وطلبه الحماية من صاحبها ومع هذا لا يمكن الجزم بهذا الأمر لأنّ المصادر التي بين أيدينا لا تشير بشكل صريح إلى ذلك.

لم أجد أثرا لأي نوع من العلاقات السياسية أو العسكرية بين اشبيلية والممالك النصرانية في هذه الفترة، في مختلف المصادر الإسلامية وغير الإسلامية التي اطلعت عليها، سوى ما سبقت الإشارة إليه ولعل مَرَدّ ذلك إلى احتدام الصراع بين فرديناند (426-458هـ)/(1035-1065م) ملك قشتالة وليون وبين إخوته ،حول وراثة ملك أبيهم شانجة الكبير (391-426هـ)/(1000-1035م) .لذلك كان جُل اهتمامه ينصبّ حول ضبط الأوضاع الداخلية لمملكته، فلم يكن له متسع من الوقت كي يفكر في شن الغارات وضم المدن والحصون كما فعل بعد ذلك.

وعلى ما يبدو أن السلام قد خيّم على العلاقات بين الجانبين طيلة مدة حكم القاضي محمد بن عباد (414-433هـ)/(1023-1043م) ، الذي وجّه اهتمامه بدوره نحو جنوب شبه الجزيرة، حيث

---

[1] **الذخيرة**، ق2، مج2، 9.

[2] **البيان المغرب**، 203/3.

[3] نفسه ، 237/3.

[4] نفسه ، 237/3.

يقبع الخطر البربري من الزيريين في غرناطة والحموديين في مالقة[1] .

اعترف القاضي ابن عباد بخلافة الحموديين بداية الأمر، أيام ضعفه وانشغاله بترتيب البيت الداخلي لإشبيلية، لكنه سرعان ما شقّ عصا الطاعة في وجوههم وتنكّر لهم، ما إن شعر بقوته وقدرته على مواجهتهم، فخاض حربًا في سنة 425هـ/1034م ضد يحي بن علي بن حمود وتمكن منه بمساندة حليفه البُرزالي [2]،واستولى على مدينة باجة من يد المنصور بن الأفطس[3]، وأخذ يفكر جديًا في ضم الممالك البربرية في غرب وجنوب الأندلس، بل امتدّ طمعه إلى أكثر من ذلك، فأقدم على خطوة جريئة، اعتبرها أحد المؤرخين[4]من أشهر أعماله في تلك الفترة، وهي إعلانه العثور على هشام المؤيد[5]وتنصيبه خليفة باشبيلية[6]، وتناقلت كتب التاريخ مواقف العلماء والمثقفين من هذا الادّعاء الجديد لبني عباد، وعبّر ابن حزم عن موقفه من هذه القصة بقوله: ((...أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها...))[7].

وعلّق المؤرخ ابن حيان على خبر وفاة الخليفة المزعوم قائلا: ((...وصارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة، وعساها تكون إنشاء الله الصادقة، فكم قُتل وكم مات...))[8].

---

(1) رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، 382.

(2) ابن بسام : **الذخيرة** ، ق. ، مج1، 194 ، 195.

(3) تحالف القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد مع صاحب قرمونة محمد بن عبد الله البُرزالي الذي يصفه ابن حيان بقطب رحى الفتنة، ضد المنصور بن الأفطس صاحب بطليوس ، وجرت بينهم حروب دافعها السيطرة على مدينة باجة ، ودارت الدائرة على ابن الأفطس الذي هُزم وأُسِر ولده المظفر . أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 8.

(4)عنان : **دول الطوائف** ، 37.

(5) تختلف الرواية الإسلامية بشكل كبير في مصير هشام المؤيد، فتارة تخبرنا أنه قُتل على يد سليمان المستعين إثر دخوله قرطبة سنة 403هـ/1012م ، وتارة أخرى تقول أنه فرّ من سجنه وهام على وجهه في عدد من مدن الأندلس. لذلك حاول القاضي محمد بن عباد استغلال هذا الغموض الذي لفّ مصير هذه الشخصية وأراد إظهاره للناس من جديد حتى يقطع أطماع الحموديين.

(6) راجع تفاصيل إظهار هشام المؤيد في اشبيلية في : ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 6 ، ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 3 /197-201. ابن الخطيب :**أعمال الأعلام** ، 154 ، ابن عسكر وابن خميس: **أعلام مالقة** 358-360 ، أنظر أيضا:

khalis**. S. La vie littéraire à Séville au XI siècle.** SNED. Alger. 1966 . P. 53**.**

(7) ابن حزم : **نقط العروس في تواريخ الخلفاء،(** رواية الحميدي**)**، تحقيق: شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول، المجلد 13، ج2 ، ديسمبر 1951 ، ص83.

(8) ابن حيان برواية ابن بسام :**الذخيرة** ، ق2، مج2 ، 19.

وعلى أية حال فقد حقّق القاضي ابن عباد أهدافه من وراء هذا الادّعاء، وجمع حوله بعضا من ممالك الأندلس وإماراتها ممّن اعترف بالخليفة هشام، وهم يشتركون مع اشبيلية في نفس الهدف، وهو دفع خطر الحموديين الذي استفحل وأضحى يُشكّل تهديدًا حقيقيا لوجودهم[1].

و لم تطل المدّة كثيرا حتّى توفي القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد سنة 433هـ/1041م تاركا وراءه مملكة واسعة ومستقرة، فلم يجد خَلَفُه وَوَلدُه عباد صعوبة في ضبطها.

ج- الجزية في ميزان العلاقات بين اشبيلية واسبانيا النصرانية في عهد المعتضد:

عندما وصل عباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد إلى الحكم في اشبيلية في جمادى الثانية سنة 433هـ/1041م ،كان أبوه القاضي قد أعطى لنفسه صفة الشرعية بولائه لهشام المؤيد أولا ثم تخلصه من عدوه يحي بن حمود ثانيا سنة 427هـ/1036م، فلم تُشكّل شرعية الحكم هاجسًا له كما كانت لأبيه، فسارع في اتخاذ الألقاب،و تَسَمّى أولا بفخر الدولة، ثم المعتضد[2]، ورأى أنّ من مصلحته الإبقاء على اعترافه بهشام الثاني كخليفة للأندلس ، وحينما استتب له الأمر، خرج في سنة 451هـ/ 1059م وأشهر وفاة الخليفة المزعوم[3].

كان المعتضد شديد القسوة، مولعا بسفك الدماء، اتخذ من العنف وسيلة لبسط سلطانه داخل اشبيلية وإرهاب أعدائه خارجها ، فكانت سياسته تستهدف القضاء على كل من يُشكّل خطرا على مركزه وحتى ممّن يُحتَمل أن يصبح خطرا عليه في المستقبل، وهو ما يفسر أخذه الناس بالريبة والظّن، حتى وصفه ابن حيان[4] بأسد الملوك وشهاب الفتنة، فيما وصفه ابن بسام بقطب رحى الفتنة[5]، ويحاول ابن عبود[6] أن يحلّل بعض جوانب هذه الشخصية وأسباب ميلها للبطش وسفك الدماء، فيذكر أنّ المعتضد، وهو في سن السابعة من عمره، قد تعرّض للأسر حينما قدّمه القاضي محمد بن اسماعيل رهينة ليحي بن حمود، ومن المحتمل أنّ أسره في سن مبكرة، كان له أثر نفسي في شخصيته، حيث تصلّبت مواقفه فكان يميل للقضاء المبرم على جميع منافسيه[7].

---

(1) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 198/3.

(2) ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2، 10 ، ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 39/2.

(3) ابن بسام : **الذخيرة** ، ق1، مج2 ، 19.

(4) برواية ابن عذاري: **البيان المغرب**، 204/3.

(5) **الذخيرة** ، ق2 ، مج2، 10 .

(6) ابن عبود : **التاريخ السياسي** ، 57.

(7) ذكر ابن حيان أنّ المعتضد جعل بباب قصره حديقة شكّلها من رؤوس أعدائه الذين قضى عليهم، منهم رأس محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، ورؤوس الحجاب:عبدون بن خزرون صاحب أركش ، ومحمد بن نوح =

إنّ سياسة المعتضد في تدبير شؤون اشبيلية في الداخل لم تختلف كثيرا عنها في الخارج، فقد كان العدوان والبطش ديدنة في غالب الأحيان ، فبعد أن فرغ من قتل وزير أبيه حبيب[1]، شرع في محاربة جيرانه بربر قرمونة Carmona الذين كانوا إلى عهد قريب حلفاء أبيه القاضي محمد بن عباد، ثم أخذ يستولي على إمارات غرب الأندلس واحدة بعد الأخرى[2].

لا يمكن أن ندرك أبعاد السياسة الخارجية التي سعى المعتضد لتنفيذها ، سواء ما ارتبط منها بجانب المسلمين والممالك والإمارات الطائفية المجاورة لاشبيلية، أو ما تعلق بالقوى النصرانية الموجودة في الشمال الاسباني كمملكة قشتالة – التي أخذت قوتها تتعاظم يوما بعد آخر–، إلاّ إذا وضعناها في سياقها العام الذي يأخذ بعين الاعتبار، أطماع المعتضد في مدّ نفوذه لإخضاع غرب الأندلس لسلطته، والقوة العسكرية لمملكة قشتالة وسياسة ملكها فرديناند، الذي لم تكن طموحاته أقل من طموحات المعتضد حتى ولو اختلفا في الدوافع والأهداف.

كان فرديناند قد وحّد مملكتي قشتالة وليون منذ عام 429هـــ/ 1037م، وغدا بذلك أقوى ملك في اسبانيا، وقد ظلّت مشاغله الداخلية تصرفه مدّة من الزمن عن غزو بلاد المسلمين، لذلك لا نكاد نسمع بغزواته للممالك الطائفية قبل منتصف القرن الخامس الهجري/القرن الحادي عشر الميلادي. لكن الأوضاع سرعان ما تبدّلت بعد هذا التاريخ، حين استطاع هذا الملك أن يتفرّغ لمحاربة المسلمين، وهو يدرك استحالة مقاومتهم له، لِماَ هُم عليه من الضعف والتشتت [3]، وقد سبق وأشرتُ في الفصل الأول من هذا البحث إلى حملاته العديدة على سرقسطة وبطليوس ثمّ طليطلة، ما دفع بملوكها إلى الرضوخ لمطالبه بتقديم فروض الولاء والطاعة ودفع الجزية السنوية.

بعدما أخضع فرديناند الممالك الثغرية، مدّ أطماعه أكثر من ذلك، فوجّه حملة عسكرية سنة

= الدمّري صاحب مورور وغيرهم، ورأس إمامهم الخليفة يحي بن علي بن حمّود. كانت نفسه ترتاح لمشاهدتها ويُذعر الناس من التماحها . أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 12، 13.

[1] هو محمد بن أحمد بن عامر ولقبه حبيب، كان وزيرا للقاضي محمد بن عباد ثم للمعتضد من بعده .أنظر: ابن الأبار **الحلة السيراء** ، 40/2.

[2] فتك المعتضد بن عباد بمعظم إمارات غرب الأندلس دون مراعاة منه لعصبيتهم، عربا كانوا أم بربرا ،و كان همّه جعل مملكة اشبيلية أقوى ممالك الطوائف بالأندلس ، ومن الإمارات التي غزاها واستولى عليها نذكر : لبلة 445هـــ/1053م، ولبة وشلطيش 443هـــ/1051م، شنتمرية الغرب 443هـــ/1051م، الجزيرة الخضراء 446هـــ/1054م، شلب 455هـــ/1063م،رندة 457هـــ/1064م،قرمونة 459هـــ/1066م، مورور ، أركش، وشذونة، 458هـــ/1065م.أنظر : ابن عذاري : **البيان المغرب**، 3/ الصفحات : 211 ، 212 ، 231 273 .

[3] دوزي : **المسلمون في الأندلس** ، 79/3.

455هـ/ 1063م نحو اشبيلية، فأحرق ودمّر وغنم وسبى، ورأى المعتضد بن عباد أنّ الحكمة تقتضي أن يفعل ما فعله المأمون بن ذي النون، فذهب بنفسه إلى المعسكر المسيحي وقدّم بعض الهدايا والتحف لفرديناند ملتمسا منه الإبقاء على مملكته مقابل جزية سنوية يدفعها له[1]. لكن فرديناند اشترط إضافة إلى الجزية أن يسمح المعتضد بن عباد للنصارى بنقل رفات القديسة (خوستا) ،التي استشهدت في عصر الاضطهاد الروماني . وتستطرد مدونة سيلوس في تفاصيل هذا الاتفاق، وتقول بأنّ الوفد الذي كلّفه الملك النصراني بالبحث عن قبر القديسة (خوستا) لم يوفّق في مهمّته، وعوضًا عن ذلك قرّر ألفيتس أسقف العاصمة برغش وقائد الوفد، نقل رفات القديس إزيدور إلى ليون[2].

اعتمدت مختلف الدراسات الحديثة التي أرّخت لهذه الفترة بشكل مطلق على الرواية النصرانية،بعد ما تجنبت الرواية الإسلامية الإشارة إلى علاقة اشبيلية بمملكة قشتالة في عهد المعتضد بن عباد. ومن المؤسف أنّ الرواية الإسلامية لم تبيّن لنا مدى التزام المعتضد بن عباد بدفع الجزية للملك النصراني فرديناند، بل حتى الرواية النصرانية لم تحدد قيمة الجزية المفروضة على المعتضد. لكن ابن بسام يُشير إلى تكليف المعتضد للمستعرب ششنند بالسفارة بينه وبين فرديناند[3]، ويبدو أنّ هذه السفارات كانت لها علاقة بموضوع الجزية وترتيب طريقة دفعها. وكان المعتضد قُبيل وفاته قد استقبل غرسية ملك جليقية والبرتغال، الذي فرّ من طغيان أخيه شانجة(سانشو) ملك قشتالة، خلال الحرب الأهلية التي اندلعت بين أبناء فرديناند بعد وفاته عام 458هـ/1065م[4]، ولا ندري مدى صدق رواية المراكشي حول وفاة المعتضد، التي ربطها بثياب مسمومة أرسلها له ملك الروم، دون أن يسميه[5]

---

[1] دوزي : **المسلمون في الأندلس،** 3/ 79 ، 80 ، عنان : **دول الطوائف** ، 384.

[2] دوزي : **المسلمون في الأندلس** ، 80/3 ، 81، عنان : **دول الطوائف** ، 384 .

[3] ابن بسام : **الذخيرة** ، ق4، مج4 ، 102.

[4] **Conde. M. J. op.cit. T.2 pp 181. 182.**

وانظر أيضا : رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، 484.

يقول المؤرخ كوندي أنّ غرسية ملك جليقية والبرتغال ، قد فرّ لاجئا إلى المعتضد بن عباد سنة459هـ/ 1067م لكنه يجعل في نفس الوقت من قرطبة ضمن ممتلكات المعتضد آنذاك، ونحن نعلم أن المعتمد بن المعتضد هو من أخذها من ابن جهور سنة 462هـ، أي بعد وفاة المعتضد بسنة واحدة،كما أنّ الأستاذ عنان يجعل تاريخ فرار غرسية سنة 464هـ/ 1071م، أي في عهد المعتمد، لكنه يتجنّب هذا الإشكال ويكتفي بالقول أن غرسية قد سار في نفر من صحبه إلى اشبيلية والتجأ إلى أميرها، (عنان: **دول الطوائف،** 392) ويبدو أن غرسية قد لجأ إلى المعتضد بن عباد وكان المعتمد حينها لا يزال وليًّا للعهد.

[5] المراكشي: **المعجب** ، 93 ، ويرى الدكتور رجب عبد الحليم أنّ ملك الروم المذكور قد يكون شانجة بن فرديناند الذي أراد أن ينتقم من المعتضد لإيوائه ملك جليقية الفار، أنظر: **العلاقات** ، 384 ، 385.

ولكن أغلب المصادر الأخرى تشير بوضوح إلى وفاة المعتضد من ذبحة صدرية نزلت به فجأة وأدّت إلى هلاكه في عام 461هـ/1068م[1]، وليس في عام 464هـ كما قال بذلك المراكشي.

وقبل الانتقال لعرض سياسة المعتمد بن عباد خليفة المعتضد مع النصارى الاسبان، يجدر بنا طرح السؤال الآتي: ما هي دوافع المعتضد بن عباد للخضوع بهذه البساطة لرغبات الملك فرديناند؟، وقد كان يُعَدُّ أعظم ملوك الطوائف في حينه، بل لم تكن لاشبيلية حدود مباشرة مع الممالك النصرانية كما كان الحال بالنسبة لطليطلة أو سرقسطة أو بطليوس.

للإجابة عن هذا التساؤل ينبغي أن ندرك بشكل أعمق سياسة المعتضد على المستوى الخارجي.

اعتمدت هذه السياسة على اتجاهين أساسيين: الأول إقليمي يقوم على توسيع حدود مملكة اشبيلية على حساب جيرانها من ممالك وإمارات، وقد سبق لي وأشرت إلى جوانب من هذه السياسة،لكن طموح المعتضد ونجاح سياسته هذه ، ما كان ليتحقق في وجود اعتداءات متكررة للملك النصراني فرديناند على أراضي اشبيلية، وتصادم سياستين متناقضتين.

صحيح أنّ الملك فرديناند كان يطمح لاسترداد الأندلس من يد المسلمين وطردهم منها، وخير مثال على ذلك ما قام به في شمال بطليوس حينما طرد المسلمين من قلمرية Coimbra وبازو Viseo وعوّضهم بالنصارى سنة 456هـ/1063م[2]. إذن فكرة الاسترداد كانت حاضرة لديه لم تفارقه لحظة واحدة، لكنه نظر للأمور بعين الواقع وأدرك أنّ قوته آنذاك لا تسمح له بشن هجوم شامل على جميع الممالك الطائفية لذلك اكتفى بخطة تقوم على التدرج والصّبر، لكنّها كفيلة بتحقيق الأهداف المنشودة وإن طال أمدها فأخذ يعمل على إضعاف قوّة ممالك الطوائف شيئا فشيئا ،وإرهاقها بدفع الجزى، واستنزاف قوّتها الاقتصادية.

جرّب هذه الخطة مع الممالك الثغرية، مثل سرقسطة، بطليوس، وطليطلة، فأعطت النتائج المتوقعة وأراد أن يجرّبها مع اشبيلية، وما الحملات التخريبية التي قامت بها قوّاته على أطراف اشبيلية[3] إلاّ أداة من أدوات هذه السياسة، والمُراد منها تدعيم مصداقيته أثناء المفاوضات، وقد تحقّقت أهدافه لّما قبل المعتضد بن عباد دفع الجزية أسوة بغيره من ملوك الطوائف.

لقد تقاطعت سياسة فرديناند بسياسة المعتضد رغم التناقض الواضح بين السياستين، فالأوّل يسعى

---

(1) العذري: **ترصيع الأخبار** ، 108، ابن بسام : **الذخيرة**، ق2، مج2 ،11، ابن الأبار: **الحلة السيراء** 41/2،40.

(2) Conde. M. J. OP. Cit. T.2 p. 160.

(3) دوزي: **المسلمون في الأندلس** ، 79/3.

لأخذ المال لتقوية دولته وإضعاف الممالك الطائفية بما في ذلك اشبيلية، والثاني يسعى لإزاحة خطر النصارى الذين باتوا يشكّلون تهديدا لسياسته ومشروعه التوسّعي، لذلك لم يجد ملك اشبيلية حرجًا في دفع الجزية للملك النصراني مادام هذا الأمر يخدم مصلحته الآنية[1]وهو الأساس الثاني الذي قامت عليه سياسته. وإذا كانت اشبيلية قادرة على دفع الجزية دون أن يسبّب ذلك انهيارا في اقتصادها ودون أن تظهر الآثار السلبية في تلك الفترة، فإنّ استمرار هذه السياسة في عهد خَلَفِه المعتمد سوف تؤدي إلى نتائج خطيرة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي في اشبيلية .

د- أبو بكر بن عمّار صانع علاقات اشبيلية بالنصارى الاسبان:

كان أبو بكر بن عمّار[2]صديقا حميما للمعتمد منذ مرحلة الصِبا، ولّما رأى المعتضد تأثيره الكبير على ولده، قام بنفيه إلى سرقسطة[3]، وما إن مات المعتضد وخلفه ابنه المعتمد سنة 461هـ/1069م حتى سارع في استدعاء صديقه القديم وعرض عليه ما شاء من المناصب في الدولة ، فولاّه بداية الأمر مدينة شلب[4] مسقط رأسه، لكنه لم يُطِق بعده عنه، فاستقدمه مجدّدا وجعله وزيرا لحكومته[5] وشاءت الأقدار أن يكون لابن عمّار هذا، الدور الأكبر في رسم علاقة اشبيلية بملوك الشمال الاسباني.

في هذه الأثناء تمكّن ألفونس السادس (458-502هـ)/(1065-1109م) من توحيد الممالك النصرانية الثلاث: ليون وقشتالة وجليقية تحت سلطته[6]، وسلك طريق سلفه فرديناند في محاربة المسلمين وطردهم من شبه الجزيرة، مستغلا الصراع القائم بينهم لفرض شروطه على ملوك الطوائف.

لقد حلّلنا آنفا الدوافع التي جعلت المعتضد بن عباد يخضع لسلطة الملك فرديناند، ومن الغريب أن

---

[1] يبدو أنّ المعتضد بن عباد ملك اشبيلية قد تفرّغ بعد 456هـ/1063م للتوسع الخارجي على حساب الإمارات الطائفية الضعيفة في غرب الأندلس، بعد أن تعهد بدفع الجزية للملك القشتالي فرديناند، ودفع بذلك خطر النصارى مؤقتا وتوجّهت سياسته الخارجية نحو التهام عدّة إمارات منها: رندة سنة 457هـ/1064م، أركش ، شذونة مورور سنة 448هـ/1056م، قرمونة سنة 459هـ/1066م.

[2] ترجمت الكثير من المصادر لأبي بكر بن عمّار، أنظر على سبيل المثال: **الذخيرة**: ق2 ، مج2 ، 221 - 223 **القلائد**: 86 - 102 ، **المعجب**: 102- 114 ، **الحلة السيراء**:2/ 131- 165، **أعمال الأعلام**: 159-161.

[3] ابن بسام : **الذخيرة**، ق2، مج2 ، 223. المراكشي : **المعجب** ، 107.

[4] شِلْب **Selves** : وهي قاعدة كورة أكْشُونُبَة، وقريبة من مدينة باجة.أنظر : الحميري : **الروض المعطار**، 106.

[5] المراكشي : **المعجب** ، 108 ، دوزي:**المسلمون في الأندلس** ، 96/3.

[6] عنان: **دول الطوائف** ، 394.

تصبح الجزية المفروضة على اشبيلية شيئا متوارثا بين أبناء هذا الملك النصراني، حيث جعل حق الجزية على اشبيلية لولده غرسية ملك جليقية والبرتغال، لكنّ الابن الأكبر ، شانجة (سانشو)، استطاع الفتك بمملكة أخيه وأخذ الجزية من اشبيلية، ليرثها بعد فترة ألفونس السادس[1]، وأضحت بذلك الممالك الطّائفية كلّها تحت رحمة هذا الملك الجديد وطموحاته غير المحدودة.

كانت دوافع المعتمد بن عباد في ربط علاقات سياسية مع النصارى الاسبان، هي نفسها دوافع أبيه المعتضد من قبل ، فقد كان يتوجس من البربر ويسعى للقضاء عليهم، خاصة مملكة غرناطة التي بلغت عهد ملكها باديس بن حبّوس الصنهاجي (428- 465هـ)/(1036- 1072)[2] ذروة قوتها ومجدها[3] ، لذلك كانت محالفة ألفونس وإعطائه الجزية جزءا أساسا من هذه السياسة.

استغلّ المعتمد بن عباد وفاة باديس بن حبّوس صاحب غرناطة، وضُعف حفيده عبد الله بن بُلّكين لغزو هذه المملكة المجاورة ، واستطاع أن يستولي على مدينة جيّان Jaen، و لم تحدّد الرواية الإسلامية تاريخ سقوط هذه المدينة في يد المعتمد، لكن من المرجح أنها كانت سنة 466هـ/1073م.[4]

حرّك هذا الاعتداء الجديد لابن عباد على غرناطة العداوة الموجودة أصلا بين الدولتين منذ أمد بعيد وشعر الأمير عبد الله بن بلّكين أنه عاجز عن استدفاع خطر المعتمد عليه، فسارع لعقد حلف مع ألفونس السادس، قصد الحصول على دعم منه لمحاربة عدوّه صاحب اشبيلية[5].

لقد سكت هذا الأمير استحياءاً عن ذكر هذا الحلف في مذكراته، ربّما كي لا يُتّهم بالمبادرة في مصانعة الملك النصراني، لكن وجود بعض العبارات في كتابه، تدلّ على إقدامه على هذه الخطوة ومنها قوله: ((...متى ما أعطى أحدنا لعسكر مالا، وأراد الآخر نقضه، أربى عليه وأراحه منه...))[6].

---

[1] عنان: **دول الطوائف** ، 389.

[2] ابن الخطيب: **الإحاطة** ، 245/1 ، 268.

[3] عنان: **دول الطوائف** ، 62 ، 63.

[4] ذلك أنّ وفاة باديس بن حبوس كانت في 20 شوال 465هـ(**الإحاطة**، 245/1)، فاستغلّ المعتمد بن عباد هذه الفرصة السانحة وتطلع لغزو غرناطة خصوصا وأنّ ملكها الجديد عبد الله بن بلكين كان لا يزال غرا لم يتجاوز السابعة عشر من عمره ، ومن المؤكّد أنّ جيّان خضعت للمعتمد قبل سنة 467هـ/1074م، أي قبل فقدان المعتمد لقرطبة ومقتل ابنه عباد على يد حكم بن عكاشة. ممّا أجبر المعتمد على رفع الحصار عن غرناطة وحصول الملك الشاب على حصن بَلّيلُش . أنظر :ابن بلكين : **التبيان** ، 93.

ويذهب الأستاذ عبد الله عنان إلى نفس هذا التاريخ أي 466هـ ، أنظر: **دول الطوائف** ، 142.

[5] عنان :**دول الطوائف** ، 142 ،143.

[6] ابن بلّكين : **التبيان** ، 92.

ويُفهم من ذلك أنّ سياسة ملوك الطّوائف مع النصارى الاسبان، كانت تقوم على التسابق لنيل رضاهم للحصول على الدعم بالجنود المرتزقة لخوض الحروب ضدّ بعضهم البعض، فإذا أراد أحدهم أن يؤلّب ملكاً نصرانيا على حليفه المسلم ما عليه سوى مضاعفة قيمة الجزية، وفيه إشارة واضحة إلى مبادرة أمير غرناطة بتقديم الأموال لألفونس على أن يعينه على محاربة اشبيلية.

أمّا العبارة الثانية فتقول: ((... وابن ذي النون في هذا يتوسّط له بالأمر، ويسعى في تصيير المال إليه يُرضيه بذلك وينتظر فساد مملكتنا، فيفترِصُها هو أو يأخذ منها حصّته، فكان – على ما قدّمنا ذكره- عدوًّا في الباطن، صديقا في الظّاهر...))[1].

وهذا النص يوضّح دور المأمون ابن ذي النون في التوسّط بين عبد الله بن بلّكين والملك ألفونس السادس لتحديد قيمة الجزية السنوية، مستغلا علاقة الصداقة والولاء التي تربطه بالملك النصراني.

وما يؤكّد هذا الرأي أيضا، ما جاءت به المصادر المسيحية، التي أشارت صراحة لسعي عبد الله بن بلّكين إلى الاستعانة بالنصارى، وخروج قوّاته ومعه حلفاؤه النصارى للإغارة على أراضي ابن عباد، واستطاع أن يستردّ حصن قبرة Cabra القريب من جيان[2]، لكن ابن عباد سارع ليظفر بصداقة ألفونس وأرسل أبا بكر بن عمار لعقد صفقة معه، أسفرت عن دفع اشبيلية خمسين ألف مثقالا من الذهب مقابل مساعدة الملك القشتالي للمعتمد في غزو غرناطة، على أن تكون الأسلاب والغنائم للملك النصراني فيما يحصل صاحب اشبيلية على مدينة غرناطة[3].

وعلى كلّ حال يذكر أمير غرناطة، أنّه رفض دفع الجزية لمبعوث ألفونس، والتي بلغت قيمتها عشرون ألف مثقالا، متذرّعًا ببعض الحجج التي يصعب قبولها، كثقته بملوك الطوائف بأن لا يعاقدوا كافرًا على مسلم[4]، وقد عَلَمَ أنّ عصره قد غصّ بالغدر والخيّانة بشتّى أشكالها، وأنّ محالفة المسلم للكافر كانت في صلب سلوك أمراء الطوائف وسياساتهم[5].

---

[1] ابن بلّكين : **التبيان** ، 92.

[2] بيدال نقلا عن عنان: **دول الطوائف** ، 63 .

[3] ابن بلّكين : **التبيان** ، 91.

[4] نفسه ، 91.

[5] يتّضح هنا درجة الانحطاط التي نزلها ملوك الطوائف، واستعانتهم بالنصارى ضدّ بعضهم البعض في سبيل أطماعهم في غيّاب رادع قوي لهم من دين أو خلق، كما يتبين مدى خبث سياسة ألفونس السادس ومكره في التفريق بين ملوك الطوائف وتأجيج الخلاف وإضرام نار الفرقة بينهم ، وهو في ذلك يسلبهم الأموال ويضعف اقتصادهم، وهذه السياسة أشبه ما تكون بسياسة أبيه فرديناند مع ملوك الطوائف الثغريين،سرقسطة وطليطلة.أنظر الفصل الأول من هذا البحث.

بعد فشل ابن عمّار في تجربته الأولى، عاود الاتصال بالملك ألفونس لتجديد الاتفاق السابق، وقد علم طمع ألفونس الشديد، وحبّه للمال فوعده بخمسين ألف مثقال وفوقها غنائم غرناطة وأموالها على أن يساعد ألفونس اشبيلية بفرقة من جيشه لغزو غرناطة، لكنّ ألفونس أدرك في الحال أنّ أبعاد السياسة الخارجية لاشبيلية تصبّ في غير صالحه، فلا مصلحة له في تقوية ابن عباد على حساب غيره من ملوك الطوائف[1]. و لم تذكر المصادر تاريخ هذه السفارة، ورغم أنّ الأمير عبد الله قد تحدّث عن تفاصيلها في مذكّراته لكنه لم يضبطها بتاريخ محدّد[2]، ومن المرجّح أن تكون بعد فقدان المعتمد لقرطبة سنة 467هـــ/1074م وفشل محاولة ابن عمّار الأولى في غرناطة، وقبل سقوط مرسية سنة 471هـــ/1078م في يد المعتمد.

ويشرح لنا الأمير عبد الله الزيري في مذكّراته، سياسة ألفونس السادس في علاقاته مع اشبيلية وغرناطة، وسعيه الحثيث في ضرب بعضهما ببعض، ومن ذلك أنّ ألفونس اتّصل سرًّا بأمير غرناطة يطلب منه نفس القدر من الذهب الذي وَعَدَت به اشبيلية، ويتوعّده أن يمضي قُدمًا في حلفه مع ابن عباد في حال امتناعه عن دفع الجزية، والتي يسمّيها هذا الأمير احتشاما، ضريبة.وبعد طول مفاوضات اكتفى ألفونس بمبلغ ثلاثين ألف مثقال،خشية انهيار اقتصاد غرناطة، فتقع فريسة سهلة لاشبيلية[3] .

وما لبث ابن عمّار أن انقطع رجاؤه من ألفونس في غرناطة، فاكتفى منه بأخذ بعض المعاقل القريبة من غرناطة مثل، قاشترُه Castro، ومارتش Martos [4] .

وما كان هذا النجاح البسيط ليشبع طموح ابن عمّار وغروره، فنصح صاحبه المعتمد وأشار عليه بمملكة مرسية، ويبدو أنّ المعتمد بن عباد، قد أطلق يد وزيره في اشبيلية يُدبّر أمر شؤونها الخارجية كيف يشاء، خصوصا أنّه لَمسَ فيه الدّهاء والقدرة على المراوغة والتفاوض[5]، وهو ما زاد في إعجاب

---

[1] ابن بلّكين : **التبيان** ، 94.

[2] ألّف الأمير عبد الله الزيري مذكّراته الموسومة بكتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة في منفاه بأغمات ، فكان بعيداً عن كتبه ومراجعه ، ويبدو أنّه اعتمد على ذاكرته التي لم تكن قوية كفاية كي يتذكّر تفاصيل الأحداث ويُقرنها بتواريخها.

[3] ابن بلّكين : **التبيان** ، 95- 97.

[4] نفسه، 97.

[5] ينفرد المراكشي في كتابه المعجب بين المصادر الإسلامية بذكر قصّة طريفة عن دور ابن عمّار وقدرته على مفاوضة النصارى وإقناعهم، وكيف تمكّن من ردّ ألفونس عن قصد اشبيلية وقرطبة، بعد أن هيّأ جيوشا ضخمة لغزو بلاد المعتمد، وتولّى ابن عمّار صرف ألفونس عن وجهته بعد أن غلبه في لعبة الشّطرنج على شروط بينهما، راجع تفاصيل هذه القصّة في: المراكشي : **المعجب** ، 108- 109.

ابن عمّار بنفسه وتطلّعه للملك والسّلطان وأدّى إلى مقتله في نهاية المطاف كما سوف نرى.

كانت مرسية بعد الفتنة من أملاك زهير العامري، تم صارت تابعة لمملكة بلنسية، ثم تمتعت بالاستقلال بعد ذلك في ظل حكم بني طاهر[1].

وكان صاحب مرسية آنذاك هو أبو عبد الرحمان بن طاهر[2]، ورغم ثقافته وعلمه، فلم تكن له قوة عسكرية قادرة على حمايته، وهو ما لاحظه ابن عمار بعد مروره بمرسية متوجها نحو برشلونة بهدف مقابلة صاحبها الكونت ريموند برنجير الثاني(427-469هـ)/(1035-1076م)، ويبدو لي أنّ ابن عمار قد تعمّد المرور بمرسية حتى يطّلع على أوضاع المدينة ويبحث في أفضل السُّبل لدخولها. لهذا عرض على كونت برشلونة عشرة آلاف دينار إذا قَبِل معاونته على غزو مرسية، فَقَبِل هذا الكونت عرضه، وعبّر عن حسن نواياه، فقدّم ابن أخيه رهينة، لكنّه اشترط في المقابل تقديم الرشيد بن المعتمد رهينة له، إذا أراد ابن عمار إتمام هذا الاتفاق، ويذكر ابن الأبار، أنّ هذا الاتفاق تمّ بِعِلم المعتمد وموافقته[3]، وإن كنت أشكّك في ذلك لعدّة اعتبارات منها:

1- إنّ تباطؤ المعتمد في إرسال المال المطلوب لريموند، قد جعله يتوجّس من ابن عمار ويظن أنّه قد غرّر به وخدعه، فسارع وتقبّض عليه وعلى الرشيد ولد المعتمد وقيّدهما[4]، وما كان للمعتمد أن يتأخّر في دفع المال لحليفه النصراني وولده رهينة عنده.

2- وما يؤكّد أيضا جهل المعتمد بن عباد بارتهان ابن عمار لولده الرشيد، هو خوف ابن عمار من غضب سيّده عليه حينما أطلق ريموند سراحه وطلب منه إحضار المال المتفق عليه، ولم يجرؤ هذا الوزير على المثول بين يدي المعتمد، بل سارع لاستعطافه بقصيدة أرسلها، ولم تهدأ نفسه إلاّ بعد تلقّيه رد المعتمد، الذي لام فيه نفسه عن تأخّره في إرسال المال، ورفع الذّنب عن ابن عمار[5].

---

[1] عنان: **دول الطوائف**، 176، 177.

[2] شبه ابن الأبار صاحب مرسية ابن طاهر بالصاحب بن عباد في المشرق، لكثرة ما كَتَب عن نفسه.هذا وترجمت العديد من المصادر لابن طاهر. أنظر على سبيل المثال: **الحلة السيراء**،2/116-120. ابن خاقان: **القلائد** 58- 60.

[3] ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 2/ 120-121.

[4] نفسه، 121.

[5] من الأبيات التي أرسلها ابن عمار يستعطف بها المعتمد قوله: [الطويل]

أ أركب قصدي أم أعُوجُ مع الركب ... فقد صرت من أمري على مركب صعبِ؟

وأصبحت لا أدري أفي البُعد راحتي ... فأجعله حظّي، أم الخير في القربِ.

فأجابه المعتمد بقصيدة يهدّئ فيها من روعه جاء فيها: [الطويل]

لديّ لك العتبى تُزاحُ عن العَتب ... وسعْيُك عندي لا يُضاف إلى ذنب. =

3- لقد سارع المعتمد وقبل الشروط الجديدة لريموند، الذي طالب بمبلغ ثلاثين ألف مثقال مقابل إطلاق سراح الرشيد، ولما كان المعتمد يدرك عجزه عن تحصيل هذا القدر الكبير من المال ، فقد اضطر إلى تزييف العملة ، وساعده الحظ ، فلم يكتشف الكونت ريموند هذه الخديعة إلاّ بعد الإفراج عن الرّشيد.[1]

بالاستناد إلى ما سبق، أرجّح ما ذهب إليه دوزي[2] من جهل المعتمد بن عباد تفاصيل الاتفاق الذي عقده وزيره ابن عمار مع صاحب برشلونة، فثقة المعتمد المفرطة بابن عمار جعلته لا يتحرّج في تسليمه مقاليد الأمور في اشبيلية، ويترك له مطلق الحرية في تدبير الشّؤون الخارجية للمملكة، ولّما كان ابن عمار شديد الطّموح، كثير الاندفاع، فقد قرّر أن يخوض في صفقته مع ريموند كونت برشلونة دون مراجعة سيّده، ربما لثقته الكبيرة في وصول المال المتفق عليه في موعده دون تأخير، فقَبِل بارتهان الرشيد، و لم يتبادر إلى ذهنه أن تنقلب عليه الأمور على هذا النحو.

بيد أنّ فشل ابن عمار في مرسية هذه المرّة، قد زاده إصرارا على فتحها، وأغرى — كعادته — المعتمد وزيّن له أمر مرسية، فلم يتردد في تزويده بجيش إشبيلي انضمت إليه فرقة من جند قرطبة، ولما كان ابن عمار في حاجة لجيش كبير العدد كثير العدّة لمحاصرة هذه المدينة، فقد مرّ بالقلاع والحصون يجمع الجند والمال حتى بلغ حصن (بَلْج)[3]، حيث بالغ صاحب الحصن، عبد الرحمان بن رشيق في إكرامه فأُعجب به ابن عمار وجعله قائدا لجيشه لأنّ ابن عمار لم يكن قائدا عسكريا.

وما لبث الجيش الاشبيلي أن وصل قرية (مولة Mula)[4] فاقتحمها، وفرض حصارا على مرسية وسرعان ما سقطت المدينة في يد ابن رشيق بخيانة أهلها، وجعل المعتمد وزيره ابن عمار واليا عليها سنة 471هـ/ 1078م[5] . وكان هذا النجاح الذي حقّقه ابن عمار في مرسية، مصدر توجّس

= وأعزِز علينا أن تصيبك وحشـــة وأنسُك ما تدريه فيـــك من الحب.

أنظر: ابن الأبار، **الحلة السيراء** 2/ 13- 138. وتجدر الإشارة أنّ الفتح بن خاقان قد ربط هذه الأبيات بالوحشة التي كانت بين المعتمد وابن عمار بسبب انتزائه بمرسية لنفسه، وليس أثناء فتح هذه المدينة. أنظر: ابن خاقان: **قلائد العقيان** ،94.

[1] ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 122/2 ، دوزي: **المسلمون في الأندلس** ، 113/3.

[2] **المسلمون في الأندلس** ، 111/3.

[3] حصن بلج : حصن كبير ، كان على مقربة من جيان ، وموضعه الآن قرية **Vilches** التابعة لمركز كارولينا في مديرية جيان ، أنظر : ابن الأبار: الحلة السيراء، 123/2، هامش رقم(1).

[4] مولة: مدينة غربي مرسية، أنظر : ابن سعيد: **المغرب** ، 220/2.

[5] ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 2/ 123 ، 124.

ألفونس السادس ملك قشتالة وليون، بسبب التوسع الكبير لمملكة اشبيلية، وتزايد قوتها، وهو الذي سعى دوما لفرض توازن في القوة بين الممالك الطائفية. ودفعا لهذه الهواجس، تذكر الرواية النصرانية إرسال المعتمد بن عباد لوزيره ابن عمار إلى ليون لتجديد الحلف بين اشبيلية وقشتالة، بأن تحصل اشبيلية على دعم ألفونس في حروبها ضدّ الممالك الطائفية المجاورة خاصة طليطلة، وتلتزم في نفس الوقت بدفع الجزية السنوية المفروضة عليها، وتكون الأراضي الواقعة شمال جبال الشارات (سيرامورينا Sierra Morena) للفونس[1].

وتبالغ الرواية النصرانية في وصف التنازلات التي قدّمها المعتمد بن عباد للملك القشتالي أثناء هذا الاتفاق، حتى وصل بها القول، أنّ المعتمد قدّم أثناء ذلك، إحدى بناته للفونس لتكون حظية أو جارية له، وهي التي تعرّفها هذه الرواية باسم (زايدة)[2]، وهو بلا شك تدليس للحقيقة وافتراء واضح على التاريخ، فكيف لملك مسلم – مهما بلغت درجة انحطاطه وبعده عن الدين- أن يُقدِّم ابنته لملك نصراني كي تكون حظية أو زوجة غير شرعية؟وكيف يكون موقفه أمام العامة والفقهاء ؟ وهل يكتم المؤرخون المسلمون هذا الخبر وقد تتبّعوا أخبار المعتمد الصغيرة قبل الكبيرة ؟ ، وعليه فزايدة التي تذكرها المصادر القشتالية لم تكن سوى كنّة المعتمد بن عباد وليست ابنته[3]، وقد فرّت بعد مقتل زوجها المأمون إثر دخول المرابطين قرطبة، ولجأت إلى ألفونس الذي بنى بها وأنجب منها ولده الوحيد شانجة Sancho قَتيلُ موقعة إقليش[4]سنة 501هـ/1107م، وأكّدت العديد من الدراسات المنصفة ذلك مستندة إلى أدلة تاريخية موثوقة[5].

---

(1) **Conde : OP. Cit. T.2 p. 202.** ، وانظر أيضا : عنان : **دول الطوائف** ، 73 .
Florian. M. **Moors in spain .the new werner company**. Ohio.p.40.
Viardot. Op. Cit. T1. P. 202 ، أشباخ : **تاريخ الأندلس** ، 60.

(2) وتجدر الإشارة هنا كون بعض الروايات النصرانية الأخرى تربط قصة زائدة بتحالف المعتمد مع ألفونس لموجهة خطر المرابطين، أي في فترة لاحقة لمعركة الزلاقة وعزم المرابطين على خلع ملوك الطوائف.

(3) أنظر: ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ط3 ، دار الثقافة بيروت 1983 ، ج4 ، ص50 ، الونشريسي: أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، تحقيق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد5 ، العدد: 1-2 ، 1377هـ/1957م ، ص189.

(4) إقليش: **Uclés** : من أهم مدن شنترية ، وهي قلعة حصينة، شهدت وقوع موقعة هامة تحت أسوارها بين قوات المرابطين والقوات القشتالية، حيث هزم جيش ألفونس السادس، وقتل في المعركة ولده الوحيد شانجة من زوجته زايدة وهو لا يزال صبيا، وذلك في سنة 501هـ/ 1108م.

(5) ليفي بروفنسال: **الإسلام في المغرب والأندلس**، ترجمة السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح حلمي =

وفي 472هـ/1079م ،العام الذي تلا سقوط مرسية في يد المعتمد بن عباد (461-484هـ)/(1069-1091م)، وتجديد الحلف بين اشبيلية وقشتالة ، أرسل ألفونس كعادته أحد كبار رجاله لقبض الجزية السنوية، ووقع الاختيار على رذريق الشهير بالسيد القنبيطور أو (الكمبيادور) وفي ذلك الحين كانت نار العداوة متأججة بين أمير غرناطة عبد الله الزيري وصاحب اشبيلية المعتمد بن عباد، فاستعان الأمير الزيري عبد الله (465-483هـ)/(1073-1090م) بحليفه ألفونس، الذي سارع لنجدته بجماعة من الفرسان يتقدمهم قائد جيوشه، غرسية أوردونيد Garcia ordonez[1] .

وتشاء الأقدار أن تقع مناوشات بين اشبيلية وغرناطة في ذلك الحين، فخرج غرسية على رأس قوة بربرية للإغارة على أطراف اشبيلية، فلم يكن من المعتمد سوى إرسال قوة على رأسها رذريق القائد القشتالي، وانتهت المواجهة بين الفارسين القشتاليين إلى انهزام غرسية ووقوعه في أسر خصمه رذريق وظلّ في قبضته ثلاثة أيام ثم أطلق سراحه، فعاد إلى برغش يشكو إلى ملكه ألفونس ما فعله رذريق حتى تمكن من إيغار صدره عليه، أما القائد المنتصر فقد عاد مظفرًا إلى اشبيلية ونال مكافأة المعتمد وتقديره، وما لبث أن التحق بسيّده ألفونس الذي أخذ يعاتبه ويعدّد له أخطاءه، فقد حارب من غير إذنه، واعتدى على بلاد متبوعه، كما أهان إخوانه وقتل منهم، وسمح لنفسه بأخذ المال من ابن عباد مقابل خدماته، وكلّها مخالفات أغضبت ألفونس وجعلته يضمر الكيد لهذا الفارس المغامر الذي سيقوم بدور بارز في شرق الأندلس بعد نفيه من قشتالة[2] .

لم تدم فرحة المعتمد طويلا بما حقّقه من انتصار على خصمه ملك غرناطة، فسرعان ما تكدّر صفو خاطره بما تردّد عليه من أخبار مرسية، فقد ساءه أن يتمرّد عليه أقرب رجاله، وزيره وصديقه ابن عمار، حيث تذكر المصادر العربية، أنّ هذا الوزير- الذي تمكن بدهائه ومكره من فتح مرسية- قد أخذ في الإعداد للاستقلال بها لنفسه منذ الوهلة الأولى لدخوله المدينة،((فقد تزيّ بزيّ ابن عباد في حَمْلِ الطويلة على رأسه، وحكاه في التصيير))[3]. وأقبل ابن عمار في أثناء ذلك على لهوه وشربه، وابن

= مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ، 1990، ص، 151 – 164 ، عنان : **دول الطوائف** ، 345-348 أنظر أيضا:

Dufourq.C.E **: La vie quotidienne dans L'Europe médiévale sous domination arabe .**Paris. 1981. p. 156

(1) Dozy .R. **Le Cid** . p .115.

(2) مؤنس حسين: **السيد القنبيطور وعلاقاته بالمسلمين**، المجلة التاريخية المصرية، المجلد 3، العدد1، مايو 1950 ص48- 49.

(3) يعني ذلك أنّ ابن عمار، قد تشبّه بالمعتمد بن عباد في لبس العمامة الطويلة فوق رأسه، ووقّع على مطالب الناس=

رشيق يستبدل قادة الحصون والقلاع ببني إخوانه وأخواته، ثم أغرى الجند ليطالبوا بأجورهم، فعمّت الفوضى، وعجز ابن عمار على كبح جماح هذه الفتنة، ففرّ تاركا مرسية لابن رشيق حاكمها الجديد[1].

ضاقت الأرض بما رَحُبت على ابن عمار، و لم يجد لنفسه مخرجا، وهو يرى حُلمه في المُلك والإمارة يضيع، وتوسّم خيرًا في صديقه ألفونس، فلحق به يطلب مساعدته ويأمَل أن يعيده إلى ملكه الضائع[2]. لكن ابن رشيق كان قد سبقه إلى استمالة ألفونس بألطافه وهداياه، وغيّره على ابن عمار ويذكر ابن الأبار أنّ ألفونس قال له: ((...يا ابن عمار، مِثْلُك مثل السارق، سرق السرقة فضيّعها حتى سُرقت منه...))[3]، ويُفهم من هذه العبارة، عدم استعداد ألفونس لاستعداءِ ابن رشيق وإعادة ابن عمار إلى منصبه دون أن يرى مصلحة له في ذلك.وحينذاك، فقد ابن عمار أمله من ألفونس وعرّج نحو مملكة سرقسطة، علّه يجد عند ملكها المؤتمن بن هود ما لم يجده عند ألفونس[4] .

حاول المؤتمن الاستفادة من دهاء ابن عمار ومكره، ورغب في ضم حصن شقّورة، ونفسه تتوجس من ابن عمار ومن غدره، لكن صاحبا الحصن، وهما يومئذ إبراهيم وعبد الجبار ابنا سهيل تفطنا إلى مكيدة ابن عمار وقبضا عليه، ثم عرضاه للبيع على ملوك الطوائف[5].

عجّل المعتمد في إرسال ابنه الراضي لاجتلاب ابن عمار، وشراء حصن شقّورة سنة 477هـ/1084م، و لم تمض سوى أيام قليلة، حتى لحق باشبيلية ومعه ابن عمار يَرْسُف في قيوده فأُدخِل قصر اشبيلية وسُجِن هناك حتى يبقى قريبا من سيّده لينظر ما يصنع في أمره[6] ، وأخذت

= باسمه وأسقط اسم المعتمد، وكان يقول ينفذُ هذا إن شاء الله أي يصير.

أنظر: ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 2/140-141.

[1] نفسه، 2/142 ، 143

[2] نفسه، 2/145.

[3] نفسه، 2/146.

[4] ابن بسام : **الذخيرة**، ق2، مج2، 245، ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 2/146، المراكشي: **المعجب**، 111.أنظر أيضا: **Turk Afif .El Reino de Saragoza en el siglo XI de Cristo (V de Hegira) , Revista del instituto Egipcio de estudios Islamicos en Madrid volumen XVIII. 1974-1975 .p.15.**

[5] المراكشي: **المعجب** ، 111.

[6] ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 2/150، 151، 158.

الدسائس تعمل عملها لتزيد من غضب المعتمد وحنقه على صديقه الخائن[1]، حتى انتهى به الأمر إلى قتله مستخدما طبرزينا[2]، كان ألفونس قد أهداه إياه[3]، لتنتهي بذلك قصة ابن عمار الميكيافيلي والشاعر البارع المُجيد الذي دوّخ بدهائه ومكره تارة وخداعه وخيانته تارة أخرى، كثيرا من ملوك وأمراء الأندلس مدة تزيد على ربع قرن.

هـــ- القطيعة بين اشبيلية وقشتالة وعلاقتها بموضوع الجزية:

التزمت مملكة اشبيلية منذ عهد المعتضد بن عباد، بدفع جزية سنوية للملك النصراني فرديناند ثم لأبنائه بعد ذلك. وكان المعتمد لا يتأخر في إرسال المال المطلوب كل عام للملك ألفونس السادس[4]. لقد قام الوزير أبو بكر بن عمار بدور بارز في تمتين العلاقة بين اشبيلية وقشتالة، فقدّم الأموال الطائلة للنصارى في سبيل تحقيق المشاريع التوسعية لمملكة اشبيلية، دون اعتبار لما قد يسبّبه ذلك في إضعاف لاقتصاد هذه المملكة، المهم هو تجسيد الأهداف القريبة لابن عمار، الذي كان يعمل لحسابه الخاص في أغلب الأحيان[5]. كل ذلك بموافقة المعتمد راضيا أو مضطرا، فقد كانت غلبة ابن عمار عليه واضحة بحسب الكثير من المؤرخين [6].

وبرحيل هذا الوزير عام 477هــ/1084م، عرفت اشبيلية مرحلة جديدة في علاقتها مع قشتالة أو مع جيرانها المسلمين خاصة غرناطة [7].

تميّزت العلاقة الجديدة لاشبيلية بمملكة قشتالة وليون بنوع من الفتور، ومع ذلك استمرّ المعتمد بن

---

(1) زاد من غضب المعتمد على ابن عمار هجاؤه له ولزوجته اعتماد الرميكية ، بقصيدة جاء في مطلعها:[المتقارب]

ألا حيِّ بالغرب حيًّا حلالا   أناخُوا جمالاً وحازوا جَمالا

وعرّج بيومين أم القـــرى   ونم فعسى أن تراها خيالا

تخيّرها من بناة الهجـــان   رميكية ما تُساوي عِقالا

أنظر : علي سلمى سليمان : **المرأة في الشعر الأندلسي عصر الطوائف من سنة 400- 484هــ**، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية 1426هــ/2006م ، ص 239-240.

(2) الطَّبْرزِين : فأس ذات رأسين تُعلّق في قربوج السرج ، أنظر : دوزي رينهارت : **تكملة المعاجم العربية**، ترجمة محمد سليم النعيمي ، نشر وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1992 ، ج 7 ، ص14. مادة (طَبْرزِين)

(3) دوزي: **المسلمون في الأندلس**، 121/3 ، **Piquet.V. Op.Cit. p. 80.**

(4) **Khalis. S. Op. Cit. p. 133.**

(5) ابن عبود : **التاريخ السياسي** ، 74.

(6) ابن بلكين : **التبيان** ، 104 ، ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 222.

ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 2/ 134 ، المراكشي : **المعجب** ، 106.

(7) **Khalis. S. Op. Cit. p. 134.**

عباد في دفع الجزية السنوية المفروضة عليه، حيث يذكر المّقري[1]، وهو يبين أسباب هذه الجفوة بين المعتمد وألفونس فيقول: إنّ المعتمد بن عباد لم يزل بخير حتى سنة 475هـ/1082م، حينما أرسل ألفونس ملك قشتالة رسوله اليهودي ابن شاليب، الخبير في معرفة عيار الذهب الحسن من الزائف لقبض الجزية السنوية، فوجّه له المعتمد المال مع جماعة من وجوه دولته يتقدّمهم الوزير أبو بكر بن زيدون، لكنّ اليهودي رفض استلام الجزية بحجّة أنّها من عيار زائف، وأقسم أن لا يأخذ منه إلاّ ذهبا مشحّرًا [2] . ويبدو أنّ هذا اليهودي، قد تعمّد الإساءة في كلامه، ما أغضب المعتمد وجعله يأمر بصلبه، وأَسْرِ أصحابه النصارى الذين رافقوه، وكانوا آنذاك في خمسمائة فارس[3].

تطرح هذه الحادثة كثيرا من التساؤلات، وينتاب الغموض جوانب كثيرة منها ،بدءًا بتاريخها الذي يجعله المقري سنة 475هـ/ 1082م، مستندًا إلى رواية ابن اللّبانة [4]؟ وهو أمر يصعب قبوله. أما الإشكال الآخر، فيرتكز على دوافع ألفونس من إرسال ابن شاليب الخبير في أعيرة المعادن لاستلام الجزية، وقد اعتاد أن يبعث بعض قواده، ممّن ينوبون عنه في هذه المسائل ؟.

أمّا التساؤل الثالث الذي يطرح نفسه بقوة هو: كيف يُقْدِمُ المعتمد بن عباد على هذه الخطوة ويقتل رسول ألفونس، وهو يدرك تماما ما قد يجرّه هذا الأمر من غضب الملك النصراني ونقمته عليه؟ بل ويعطي هذا الملك المبرّر لغزو بلاده وإنهاء ملكه.

إنّ تاريخ هذه السفارة التي جعلها كل من المّقري[5]،والسلاوي[6]في عام 475هـ،أمر بعيد

---

[1] **نفح الطيب**. 246/4.

[2] الذهب المشحّر: لم أقف على معنى هذه الكلمة في قواميس ومعاجم اللغة العربية ، لكن رينهارت دوزي فسَّر الذهب المشحر بالذهب الخالص لأنه شُحِّرَ على النار فزال منه كل معدن خسيس . أنظر: (**تكملة المعاجم العربية** ترجمة محمد سليم النعيمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، 1992م،ج 6،ص267، مادة شحر) وهو ما ذهب إليه أحد المحققين. أنظر : (مجهول: **الحلل الموشية**، 42، هامش رقم77). ولا زالت هذه العبارة مستعملة في دارجة سكان بلاد المغرب. مع العلم أنّ المقري قد أورد هذه العبارة مشجرًا ، أنظر: **نفح الطيب** ، 246/4.

[3] مجهول : **الحلل الموشية**، 42 ، ابن الأثير : **الكامل** ، 439/8.

[4] هو أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني ، المعروف بابن اللّبانة ، كان من شعراء المعتمد بن عباد وأكثرهم وفاءً له ، أنظر ترجمته في : المراكشي : **المعجب** ، 131.

[5] **نفح الطيب**. 246/4.

[6] السلاوي: **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، المطبعة العصرية، القاهرة ،1312هـ ،ج1، ص110 ، مع العلم أنّ السلاوي لم يذكر تاريخ هذه السفارة صراحة ، وإنّما قرن سنة 475 هـ بردّة فعل ألفونس على مقتل رسوله اليهودي.

الاحتمال، رغم أخذِ بعض المؤرخين المحدثين بهذه الرواية[1]،وحجّتي في ذلك، الأسباب الآتية:

1- كان المعتمد في هذه السنة أي 475هـــ، لا يزال في حلفٍ مع ألفونس منذ عام 471هـــ/1078م حيث كانت مملكة طليطلة هدفًا لأطماعهما، واستمرّا في حلفهما حتى سقوط المدينة في يد ألفونس عام 478هـــ /1085م.

2- من جهة أخرى، كان ألفونس في السنة المذكورة، منشغلا بأحداث طليطلة، والثورات المتعاقبة لأهلها على ملكهم الضعيف المتخاذل، القادر بالله (467-478هـ)/(1075-1085م)، فقد وضع ألفونس نُصْبَ عينيه السيطرة على طليطلة عاصمة أسلافه القوط، لما تمثله من قيمة معنوية كبيرة لجميع النصارى الاسبان.

3- يتفق الكثير من المؤرخين المسلمين، على جعل سقوط طليطلة في يد النصارى، دافعًا قويا لاستنجاد ابن عباد وغيره من ملوك الطوائف بالمرابطين، ولو أنّ هذه السفارة، وقعت في وقت سابق كما يدّعي المّقري وغيره، لكان لألفونس الوقت الكافي لغزو اشبيلية وإخضاعها، ولسقطت في يده قبل طليطلة.

وعلى كل حال ، فقد حسم ابن الأثير[2] هذه المسألة وجعل هذه السفارة بعد سقوط طليطلة في يد النصارى[3]. وعليه فإن تاريخ سفارة ابن شاليب اليهودي كانت في عام 478هـــ/1085م أي بعد سقوط طليطلة بفترة وجيزة[4]، وهو ما تسبب في إحداث قطيعة بين اشبيلية وقشتالة، حيث أقسم ألفونس بأغلظ الإيمان لينتقمنّ من المعتمد، وأن يحشد له من الجنود عدد شعر رأسه. وتذكر

---

[1] أخذ بهذه الرواية كل من : دوزي: **المسلمون في الأندلس**، 125/3، عنان: **دول الطوائف**، 73.
سالم سحر: **تاريخ بطليوس** 48/2.

[2] **الكامل** ، 439/8.

[3] كما يفهم من نصوص أخرى أنّ سفارة ابن شاليب التي زرعت العداوة بين المعتمد وألفونس قد جاءت بعد سقوط طليطلة في يد ألفونس. أنظر: عبد الله الزيري: **التبيان** ، 129 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 244.
ويجدر التنبيه هنا إلى وجود اختلافات هامة في روايات المؤرخين المسلمين ، فمنهم من يذكر أن اليهودي ابن شاليب اشترط أخذ الجزية من عيار جيّد، وأنّ سيده لن يقبل في العام القادم إلاّ بأخذ البلاد . أنظر:المقري: **نفح الطيب**، 246/4، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** 224، فيما تذكر مصادر أخرى أنّ ألفونس صمّم منذ البداية على أخذ بعض الحصون والقلاع كجزية لهذا العام أنظر:ابن الأثير: **الكامل**، 439/8 ،ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**،تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت،ج 5، ص28 ، مجهول: **الحلل الموشية** ، 42.
أما الحميري، فينفرد برواية خاصة، ملخصها أنّ ألفونس اشترط بعض الحصون زيادة على قيمة الجزية، كما طلب أن يسمح لزوجته أن تلد في جامع قرطبة وأن تنزل بزهرائها . أنظر: **الروض المعطار** ، 84.

[4] ناقش الدكتور رجب عبد الحليم هذه الفكرة بشكل معمق في كتابه، أنظر: **العلاقات** ، 392- 395.

إحدى المصادر بالمناسبة ،الحملة العسكرية الضخمة التي قادها ألفونس ضد اشبيلية، حيث وصلت بحر الزقاق(البحر المتوسط)[1].

أما التساؤل الثاني فيتعلق بالدوافع الحقيقية لألفونس من إرسال اليهودي ابن شاليب لقبض الجزية وقد يتبادر إلى الذّهن أنّ ألفونس كان يخشى أن يزيّف المعتمد عيار الجزية كما فعل من قبل، أي سنة 471هـ/ 1078م، مع ريموند برنجير صاحب برشلونة، حينما افتدى منه ولده الرشيد[2].

لكنّ استبعاد هذا الاستنتاج ليس بالأمر العسير،إذا علمنا أنّ ألفونس سبق له تحصيل الجزية من اشبيلية دون أن يشكّك في عيارها طيلة خمس سنوات سابقة من (472هـ- 477هـ)/(1079م- 1084م).

لذلك يبدو أنّنا أمام خطّة جديدة لألفونس مغايرة تماما لسابقاتها، فلم يعد هذا الملك يقنع بخضوع ملوك الطوائف له ودفعهم الجزية ثمنا لشراء السلم منه، بل أخذ يتطلّع لأخذ الأرض في خطّة مدروسة لاسترداد كامل الأندلس من ملوكها الضعاف. والعجيب في الأمر، أنّ هذه الخطّة لم تكن تخفى عن هؤلاء الملوك والأمراء المتخاذلين، فقد شرح الأمير عبد الله الزيري سياسة ألفونس الجديدة بشكل مفصل وعميق، دلّ على إدراكه لأبعاد هذه السياسة وخطورتها[3]. لكن مع الأسف، لم يحرك هذا الأمير ساكنا، واكتفى كغيره بالانتظار لِما قد تسفر به الأقدار.

وبالاستناد إلى هذا التحليل، يمكن أن ندرك الأسباب التي جعلت رسول ألفونس يتطاول ويغلظ القول لملك اشبيلية، بل ويتعمّد إهانته برفض عيار الجزية أولاً، ثم طلب بعض الحصون والمعاقل، التي كان الموت أهون على المعتمد من التنازل عنها على حد تعبير أحد المؤرخين[4].

ومما لاشك فيه أنّ هذه الحصون التي طلبها ألفونس، كانت تمثل خط اشبيلية الدفاعي، الذي لا معنى للمدينة بدونه، فتسليمها للنصارى يُعَدُّ بمثابة التنازل عن اشبيلية كلّها بلا ثمن، لذلك نرى المعتمد يَعتَبِر من أخطاء القادر ملك طليطلة، ويرفض بصرامة وحزم مطالب الملك النصراني، بل نظنّه أدرك المصير المحتوم الذي ينتظر بلاده إنْ هو خضع لهذه الضغوط. ومع ذلك فإنّ هذه الدوافع، لا تفسّر لنا تعجّل المعتمد بقتل اليهودي ابن شاليب، دون أن يقيم وزنًا لغضب ألفونس وانتقامه. لكنّ هذا الغموض قد يزول بالاعتماد على ما جاء في أحد النصوص، فقد شاع بالأندلس آنذاك

---

[1] مجهول: **الحلل الموشية** ، 42.

[2] ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 122/2.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 129.

[4] نفسه ، 129.

خبر تهديد المعتمد لألفونس بالمرابطين[1]، ويبدو أن المعتمد بن عباد، قد حصل على وعد من المرابطين بنجدته ومساعدته ضدّ طغيان الملك النصراني، فلم يكن يخشى عداوته ما دامت قوات المرابطين مستعدّة لتقديم المساعدة .

وإذا كانت هذه الحادثة، تبدو في ظاهرها سياسية بحتة، فإنّه من الخطأ الكبير إهمال الجوانب الاقتصادية التي تكمن وراءها، إذ نرى في غالب الأحيان، كيف تكون المصالح الاقتصادية محركا قويا للسياسة الخارجية لدولة ما.

ممّا لاشك فيه أنّ دفع الجزية للنصارى قد شكل عبئًا كبيرًا على الاقتصاد الاشبيلي الذي أخذ يتراجع عاما بعد آخر، وللوقوف على تأثير الجزية، يجدر بنا أولا القيام بمحاولة إحصاء – ولو بشكل تقريبي– لقيمة المبالغ المالية المقدمة للنصارى خلال فترة حكم المعتمد بن عباد وحتى سقوط طليطلة بحسب ما تسمح به النصوص التاريخية المتوفرة، والجدول الآتي يوضح ذلك:

---

[1] الحميري: **الروض المعطار** ، 85.

المصدر	الحدث المرتبط بها	مقدار الجزية	السنة
/	/	/	462- 466هـ
ابن بلكين: **التبيان**، 91	*قام ابن عمار بعقد حلف مع ألفونس لغزو غرناطة مقابل إعطائه 50 ألف مثقال من الذهب.	الجزية+50ألف مثقال	467هـ
نفسه، 94.	*المحاولة الثانية لابن عمار لإغراء ألفونس بغزو غرناطة.	الجزية+50ألف مثقال	468-470هـ
ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 122/2.	*افتداء المعتمد بولده الرشيد وكانت الأموال المقدمة من عيار زائف.	30 ألف مثقال	471هـ
المراكشي: **المعجب**، 108- 109.	*رد ابن عمار لألفونس عن غزو اشبيلية بعد أن هزمه في لعبة الشطرنج وتعويضه بدفع جزية مضاعفة.	مضاعفة مقدار الجزية	471هـ
Dozy.le Cid.p.115.	*استلام السيد الكمبيادور للجزية من اشبيلية.	/	472هـ
/	/	/	473-477هـ

صحيح أن المصادر التي بين أيدينا لا تحدد قيمة الجزية التي فرضها ألفونس على مملكة اشبيلية لكن وجود إشارات بسيطة في بعض النصوص، قد يُمكّننا من تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبي، إذا أخذنا في الحسبان الاعتبارات الآتية:

- إدراك ألفونس لقُدرات اشبيلية على تحصيل مبلغ كبير من المال ، خلافا لمملكة غرناطة مثلا، التي

اكتفى بفرض جزية سنوية عليها مقدارها عشرة آلاف مثقال[1]. ذلك أنّ اشبيلية كانت غنية بثرواته الزراعية المختلفة وتجارتها مع الخارج كانت رائجة[2] إضافة إلى غزواتها التوسعية الكبيرة على حساب الممالك الطائفية الأخرى التي كان القصد منها التوسع وجمع الغنائم[3] .

- إنّ اتفاق ابن عمار مع ألفونس على غزو غرناطة في المرة الأولى والثانية، كان بإغراء مالي قدره خمسون ألف مثقال، ولا أستبعد أن تكون قيمة الجزية مشابهة أو قريبة من هذا المبلغ من المال.

وعليه يُفترض أنّ قيمة الجزية السنوية التي كانت اشبيلية ملتزمة بها لألفونس هي خمسون ألف مثقال وبعملية حسابية بسيطة، يكون مقدار ما دفعته اشبيلية كجزية سنوية للنصارى على مدى الستة عشر عاما الأولى من حكم المعتمد، هي ألف ألف مثقال(مليون مثقال)، وتدخل ضمنها المبالغ المالية الموضحة في الجدول. وللتوضيح أكثر ، أسلّم أنّ وزن المثقال من الذهب هو 2.35غرام [4]، فيكون بذلك مبلغ الجزية قد وصل إلى عشرين قنطارًا من الذهب، وهي مبالغ مالية ضخمة، لا شك أنها أضعفت بشكل كبير الاقتصاد الاشبيلي وجعلته يوشك على الانهيار، وبلغ درجة تعذّر على اشبيلية الوفاء بالتزاماتها المتزايدة للملك النصراني ألفونس.

من الصعب جعل حادثة مقتل اليهودي ابن شاليب سببا حقيقيا لاستنجاد المعتمد بن عباد بالمرابطين رغم ما أحدثته من قطيعة بين اشبيلية وقشتالة، وعليه فإنّ النظر إلى الموضوع من زواياه المختلفة من شأنه توضيح الصورة أكثر، ولنصل في النهاية إلى النتيجة التي تقول بأنّ العوامل السابقة مجتمعة، هي التي رسخت القناعة لدى المعتمد بن عباد والعديد من ملوك الطوائف الآخرين، بضرورة الاستنجاد بقوة المرابطين دفعًا للخطر النصراني الجارف، ويبدو أنّ المعتمد قد وازن بين خطر ألفونس المحقّق على بلاده، وبين الخطر المحتمل للمرابطين فحسم أمره وقرّر الاستعانة بالمرابطين.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 98.

[2] Constable. Olivia**. Trade and Traders in Muslim Spain.** University press. Cambridge. 1996.

[3] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 226.

[4] ابن هشام الحكيم: **الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة**، تحقيق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد6، العدد 1-2 ، 1378هـ/1958م، ص111، هامش رقم(1).

2/ مملكـــة غرناطـــة:

كان قَدَرُ غرناطة أن تكون جارة لمملكة اشبيلية القويّة، تُقاسمُها نفس الطموح وتسعى لمدّ نفوذها وتوسيع رقعتها على حساب الإمارات الطائفية الأضعف، وكثيرا ما نظرت غرناطة بعين الريبة لسياسة اشبيلية الخارجية، وهي ترى سقوط الإمارات البربرية في يد بني عباد اعتمادا في الغالب على مساعدة القوى النصرانية تارة وضمان حيادها تارة أخرى.

ويحاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين تفسير التصادم بين اشبيلية وغرناطة على أساس عرقي وكأنّه صراع بربري عربي ليس إلاّ[1]. وهو ما قادهم في النهاية إلى استنتاجات غير دقيقة تتسم بالسطحية لكونهم أهملوا العوامل الأخرى المحركة لهذا الصراع.

ليس من الصواب أن نركز على العلاقة بين مملكة اشبيلية ومملكة غرناطة ونهمل الدوافع الحقيقية للتقارب الذي حدث بين غرناطة والممالك النصرانية، فهل هو مجرد تقليد لسياسة اشبيلية الخارجية ومجاراتها في التودّد للنصارى الاسبان؟ أم هي ضرورة فرضتها الحالة السياسية والثقافية والنفسية للأندلس آنذاك . وكيف نُفسّر صمت المصادر الإسلامية وغير الإسلامية وتجنّبها الحديث عن علاقة غرناطة بالممالك النصرانية حتى عهد آخر أمرائها، وهو عبد الله الزيري ؟.

يصعب على المتتبع لتاريخ الأندلس إدراك حجم العلاقات السياسية بين غرناطة ونصارى الشمال الاسباني، أو تقدير حجم التهديدات العسكرية التي كانت تواجه هذه المملكة، ما لم يأخذ فكرة واضحة عن ظروف نشأة هذه المملكة البربرية في الجزء الجنوبي من الأندلس، والتحديات الكبيرة التي هدّدت وجودها في الداخل والخارج .

---

(1) يحاول ابن عذاري أن يصوّر الصراع بين ملوك الطوائف، خاصة بين اشبيلية وغرناطة كصراع طائفي عرقي بين الحزب العربي الأندلسي، الذي تقوده اشبيلية، والحزب البربري الوافد على الأندلس تحت زعامة الحموديين وحلفائهم في غرناطة. أنظر : **البيان المغرب** ، 206/3 ، 214 ، 271.

ويبدو أنّ ابن الخطيب الذي جاء بعده قد أخذ بهذا الموقف أيضا. أنظر: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 155.

أمّا من المؤرخين المحدثين فنجد : عنان: **دول الطوائف** ، 140 ، سحر عبد العزيز سالم: **تاريخ بطليوس** 381/1-382. لكن أمحمد بن عبود يخلص من دراسته لهذه المسألة إلى نتيجة مهمة، وهي أنّ الصراع كان محركه الأساسي المصلحة والنفوذ بغض النظر عن مسألة العرق، فقد حارب العربُ العربَ كما في حالة غزو المعتمد لقرطبة وحارب البربر بني جنسهم، كما في حال حرب الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة لأخيه تميم صاحب مالقة.

أنظر: **جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري**، ط2، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية تطوان، 1999،ص46 ، 47.

أ- نشأة مملكة غرناطة الطائفية:

لمّا وقعت الفتنة البربرية، وتمكن سليمان المستعين- في كرّته الثانية - من دخول قرطبة سنة 403هـ/1012 م، أرادت طوائف البربر التي آزرته وناصرته، أن تستفيد من هذا الوضع الجديد وشعر الخليفة بنفوذهم يزداد يومًا بعد آخر، وبخطرهم يتهدّده كل حين، فقرّر تفريق زعامات البربر على المدن والكور الأندلسية ليَحُدّ من شوكتهم، وحتى يبعدهم عن قرطبة عاصمة الخلافة[1]. فاختصّ بني زيري الصنهاجيين بمدينة إلبيرة[2]. ورغم كون هذه المدينة من قواعد الأندلس الجليلة والأمصار النبيلة آنذاك، بحسب الحِمْيَرِي[3]، فإنّ وقوعها في سهل منبسط مكشوف[4] جعلها عرضة لأيّ عدوان خارجي، وخاف البربر على أنفسهم وأموالهم من أعدائهم الأندلسيين، فارتأى زعيمهم زاوي بن زيري أن يختطّ مدينة جديدة في موقع حصين تؤمّن له ولقومه الحماية وتساعدهم على صد الأعداء فوقع الاختيار على غرناطة[5] التي سرعان ما أخذت مكان إلبيرة [6].

كان التحدّي الأول الذي واجهته غرناطة هو وقف الهجمة الكاسحة للأندلسيين، الذين التفت بعض زعاماتهم حول خليفة جديد من أحفاد الناصر،هو المرتضى. ويذكر المؤرخ الأندلسي ابن حيان قصة هزيمة هذا الخليفة أمام قوات غرناطة رغم التباين الكبير في حجم الجيشين، فقد فاقت أعداد الأندلسيين، جيش غرناطة أضعافا مضاعفة، لذلك لم يهمل ابن حيان أسباب هذه الهزيمة التي يُرجعها إلى خيانة رؤساء الأندلس وغدرهم لخليفتهم، يتقدمهم منذر بن يحي التُّجيبي صاحب الثغر الأعلى وخيران الفتى الصقلبي[7] .

ويُلفت (ابن حيان) انتباهنا إلى مسألة هامة، ترتبط بالتحالف الذي كان قائما بين سرقسطة وإمارة برشلونة، فقد أمدّ صاحبها رامون (الذي تسميه الرواية الإسلامية ريمندة) حليفه منذر بن يحي

---

[1] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 228.

[2] ابن عذاري:**البيان المغرب،** 113/3 ، عنان: **دول الطوائف** ، 123.

[3] **الروض المعطار** ، 29.

[4] ابن بلكين: **التبيان** ، 33.

[5] اختلفت المصادر في رسم اسم المدينة، بين غرناطة و إغرناطة، لكن ابن هشام اللخمي يذكر أنّ إغرناطة أصح . أنظر: **ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة،** تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 3، ج1، شوال 1376هـ/1957م،ص300، وبرأيه يأخذ الحميري ، أنظر: **الروض المعطار،** 23. لكن ابن عذاري المراكشي لم يجد حرجا في استخدام الرسمين معا في كتابه. أنظر: **البيان المغرب** ، 169/3 ، 191.

[6] ابن بلكين: **التبيان** ، 36.

[7] أنظر: ابن بسام : **الذخيرة** ، ق1 ، مج1 ، 283 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 131.

بقطعة من جيشه ليشارك بها في حملته على غرناطة[1]، ولعلّها المرة الأولى التي تحتك فيها غرناطة بجيش من الأعداء بينهم نصارى من برشلونة.

وإذا كان هذا الحلف لا يرقى لنجعل منه مظهرًا لعلاقات غير مباشرة بين غرناطة ونصارى الشمال الاسباني، فهو يوضح بلا شك الحالة السياسية والأخلاقية التي سادت ذلك العصر، الذي قرّبت فيه المصلحة الخاصة بين الأعداء، وفرّقت بين الإخوة الأشقّاء .

بعد هذا الانتصار الذي أحرزه زاوي بن زيري على الأندلسيين سنة 409هـ /1018م لم يعد أحد يَشُك في قوة البربر وبأسهم وقدرتهم على التصدّي لأعدائهم، وبدل أن يزيد هذا النصر زاوي بن زيري تمسّكا بغرناطة ورغبته في استيطانها وتعميرها، جاء رد فعله غير متوقع، حينما أعلن عن عزمه العودة إلى إفريقية موطنه السابق، وخاطب قومه قائلا: ((... إنّ انهزام من رأيتموه لم يكن عن قوة منّا، إنّما جرّه مع القضاء غدر ملوكهم لسلطانهم ليُهلكوه كما فعلوا، فإني عرفت ذلك من يوم نزولهم، ولذلك ما كنتُ أقوّى نفوسكم، وقد نجّانا الله منهم برحمته، ومضى القوم ولم يعدموا إلاّ رئيسهم، واستخلافه هيّن عليهم...))، ثم نصحهم بالخروج عن أرضهم واغتنام السلامة مع إحراز الغنيمة[2] .

وبالرغم من المعارضة الشديدة التي اصطدم بها زاوي بن زيري من أولاده ووجوه قومه، فقد ركب البحر من مرسى المُنكّب في سنة 410هـ/1019م، وقفل عائدا إلى العُدوة حاملا معه أهله وذخائره وأمواله ونزل بالقيروان عند حفيد أخيه، المعز بن باديس (408-454هـ)/(1017-1062م) صاحب إفريقية[3] .

تولّى حبوس بن ماكسن حُكم غرناطة بعد ارتحال عمه زاوي عنها[4]، فسار سيرة حسنة وضبط

---

[1] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق1 ، مج1، 283.

[2] نفسه، ق1، مج1، 286 ، ابن عذاري:**البيان المغرب**، 129/3.

[3] ابن بسام: **الذخيرة** ،ق1، مج1، 285 ، 286، وانظر أيضا: Terrassé. H. **Islam** . p. 115.

[4] تتفق معظم المصادر في طريقة تغلب حبوس بن ماكسن على غرناطة بعد رحيل عمه زاوي عنها، حيث أسرع في دخولها بدعم من زعيم البلدة وفقيهها عبد الله بن أبي زمنين، فيما ينبهنا الأمير عبد الله الزيري إلى نية زاوي في العودة إلى الأندلس في حال فشل مشروعه في إفريقية، والذي يرمي إلى فرض نوع من الوصاية على حفيد أخيه المعز بن باديس، الذي تولى الحكم وهو لا يزال طفلا، فتكون السلطة الفعلية في يد زاوي بن زيري. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ،39، ابن بسام: **الذخيرة** ،ق1 ، مج1 ، 287، ابن الخطيب: **الإحاطة** ،267/1،**وأعمال الأعلام** ، 229.

النظام والأمن بشهادة بعض المؤرخين[1]وضم إلى أملاكه كورتي قبرة وجيّان[2]، وعقد تحالفا مع جيرانه رؤساء البربر وفي مقدمتهم بني حمّود أصحاب مالقة. وامتدّ هذا الحلف ليشمل زهير العامري صاحب المرية، ولا ندري على وجه الدقّة الدوافع الحقيقية لهذا التحالف بين غرناطة والمرية في هذه الفترة بالذات[3].

امتدّت سنوات حُكم حبوس بن ماكسن سبعة عشر عاما، من سنة 411هـ/1020م إلى سنة 428هـ/ 1036م، ومع ذلك لم تأتِ المصادر على ذكر أيّ شكل من العلاقات السياسية أو العسكرية بين غرناطة والممالك النصرانية في شمال اسبانيا، ويبدو أنّ العامل الجغرافي كان حاسما في هذا الموضوع، فبُعد هذه الإمارة البربرية ووقوعها في الطرف الجنوبي من الأندلس أعاق بلا شك كل محاولة للاتصال السياسي بين غرناطة واسبانيا النصرانية، بل يبدو أنّ الممالك الاسبانية آنذاك لم تكن تفكر أصلا في ربط علاقات سياسية مع مناطق بعيدة عنها جغرافيا دون حاجة ملحّة، كما لم تكن امكاناتها الاقتصادية والعسكرية تسمح بإرسال حملات عسكرية لإجبار غرناطة على الطاعة والخضوع كما في عهد ألفونس السادس بعد ذلك، لهذا اكتفت ببعض الحملات العسكرية على ما جاورها من مدن الثغور الأندلسية.

وعليه، يكون حبوس بن ماكسن المؤسّس الحقيقي لإمارة غرناطة الطائفية، التي يعتبرها أحد المؤرخين، أعظم إمارة بربرية في جنوب الأندلس بعد مملكة الحموديين في مالقة[4]. والتي واصلت توسعها في جنوب الأندلس في عهد باديس بن حبّوس الصنهاجي.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان**، 40، ويدعمه ابن حيان في الثناء على حبوس فيقول: ((...وكان (أي حبوس) وقورًا حليما فظا مهيبا، نزر الكلام، قليل الضحك، كثير الفكر، شديد الغضب، غليظ العقاب، شجاعا حسن الفروسية)).
أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق1 ، مج1، 287 ،المراكشي: **المغرب**، 86/2.

[2] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 229 ، عنان ، **دول الطوائف** ، 125.

[3] لما قُتل الخليفة الحمودي يحي (المُعتلي) سنة 427هـ/1035م، على يد القاضي ابن عباد، خلفه في الحكم أخوه إدريس المتأيد بالله ، وكان حبوس بن ماكسن وزهير العامري من المعترفين ببيعته، بل سارا لمعاونته في محاربة القاضي ابن عباد صاحب اشبيلية، وهذا قد يُفسر دواعي التحالف بين صاحب غرناطة وصاحب المرية، واشتراكهما في محاربة العدو المشترك ابن عباد. أنظر: ابن عذاري:**البيان المغرب** ، 190/3 ، 191. ويفصل ابن الخطيب في هذه المسألة فيقول أنّ اعتراف زهير بالخليفة الحمودي الجديد جاء نتيجة لبنود الحلف الذي ربطه بجاره وحليفه حبوس بن ماكسن. أنظر: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 140، وهو ما ذهب إليه اسماعيل العربي أيضا. أنظر: **دولة بني زيري ملوك غرناطة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م،ص58.

[4] عنان: **دول الطوائف**، 121.

ب – الصراع بين غرناطة واشبيلية وخلفية الاحتكاك بالقوى النصرانية:

تزامن استلام باديس للسلطة في غرناطة تقريبا مع وصول المعتضد بالله إلى الحكم في اشبيلية وهناك تشابه كبير بين الرجلين في فرط القسوة وشدة البطش، والطموح غير المحدود للزعامة وحب التوسع[1]. لذلك كانت المواجهة بينهما شبه حتمية، فقط تنتظر الظروف الملائمة الكفيلة بإشعال فتيل الحرب بينهما.

كان باديس بن حبوس يرى أنّ الحكمة تقتضي تأمين حدود بلاده، خاصة الشرقية منها من جهة مملكة المرية، هذه المملكة التي كانت إلى عهد قريب حليفا تقليديا لغرناطة في عهد حبّوس بن ماكسن، وأراد باديس المحافظة على هذا الحلف لأنه يُتيح له التفرغ لمشاريع أخرى.

وتُحَمّل بعض المصادر التي أرّخت لهذه الفترة، زهير العامري مسؤولية الإخلال بهذا الحلف والاعتداء على جاره باديس مدفوعًا بغروره وبالنصائح المغرضة لوزيره ابن عباس[2].

لكنّ باديس خرج من هذه المعركة منتصرًا، وكان من أثر هذه الحرب ضدّ المرية، هزيمة زهير العامري ومصرعه وانهيار دولته، فاستولى صاحب غرناطة على قسم من مملكة المرية، كمدينة جيّان وأعمالها وكان ذلك سنة 429هـ/ 1038م[3].

ولم تمض سوى سنتين على هذه المواجهة بين المملكتين الجارتين، حتى وجدت غرناطة نفسها في مواجهة جديدة ضد مملكة اشبيلية هذه المرّة، لكنها كانت خلافا للمواجهة الأولى التي أُجبرت على خوضها، بإرادة صاحبها في هذه الحالة، فقد هبّ باديس لنجدة محمد بن عبد الله البُرزالي صاحب قرمونة، بعد أن استولى القاضي ابن عباد على مدينته، وحقق انتصارا على اشبيلية، وقُتل أثناءها قائد الجيش الاشبيلي اسماعيل بن عباد[4] .

عزّز هذا الانتصار الجديد ثقة باديس بنفسه، وسرعان ما استغلّه في تركيز حكمه بغرناطة، وارتفع

---

[1] أفرد دوزي لهذين الرجلين فصلا كاملا في كتابه ملوك الطوائف، وقدم مقارنة شاملة بين مزايا ومساوئ كل من باديس والمعتضد. أنظر: **ملوك الطوائف** ، 95- 116.

[2] ابن بلكين: **التبيان** ، 51، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 170/3، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 216.

[3] ابن بلكين: **التبيان**، 52.

[4] هناك تباين كبير بين المصادر حول الدوافع الحقيقية لهذه المواجهة الجديدة بين غرناطة واشبيلية، فبينما يرى ابن عذاري أنّ دافعها هو الحميّة التي أصابت باديس بعد حصار ابن عباد لقرطبة ومحاولة إجبارها على الاعتراف بالخليفة هشام. أنظر: **البيان المغرب**، 201/3، 202 ، يذكر المراكشي أنّ الدّافع الحقيقي لها ،كان رغبة ابن عباد في الاستيلاء على حصون البربر القريبة من اشبيلية، لكنّه لم يُصرّح بغزو ابن عباد لقرمونة. أنظر: **المعجب**، 89 .

ومع ذلك يؤكّد الأستاذ عبد الله عنان، والدكتور حمدي عبد المنعم على أنّ غزو اشبيلية لقرمونة كان السبب في هذه=

ذكره بين ملوك الطوائف، فأصبح مُهاب الجانب، والكلُّ يحسب حسابه[1].وفي الوقت ذاته وسّعت هذه الحرب الجديدة هوة الخلاف أكثر بين غرناطة واشبيلية، واتّخذت كل مملكة موقفا عدائيا من الأخرى، ومع ذلك لم يُقْدِم صاحب غرناطة على مغامرة الاستعانة بقوات النصارى الاسبان في حربه ضدّ اشبيلية. ورغم صمت المصادر في هذه المسألة بالذات، فإنّ الشيء المؤكّد هو اعتماد باديس على محالفة البربر لتنفيذ مشاريعه، سواءًا ما تعلّق بالحفاظ على مبدأ توازن القوة في جنوب وغرب الأندلس وصد أطماع اشبيلية، أو تحقيق أطماعه التوسعية على حساب ما يجاوره من إمارات طائفية ضعيفة.

استمرّ الخلاف بين غرناطة واشبيلية في عهد الأمير عبد الله بن بلّكين، خليفة باديس وحفيده بسبب تصادم المصالح بين المملكتين، ولقد كان باديس ندًّا للمعتضد بالله في أحيان كثيرة خلافا للأمير عبد الله الذي لم يكن كذلك، فقد اجتمعت عوامل عديدة في شخصه جعلته لا يرقى لمستوى من سبقه من ملوك غرناطة، ويمكن حصر هذه الأسباب والعوامل في النقاط الآتية:

- تَوَلّيه الحكم وهو صغير السن، حتى جعله ابن الخطيب ممّن يشتمل عليه شرط كتابه، ممّن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام[2].
- ضعف شخصية هذا الأمير واتّصافه بالجبن، وبُعده عن الصرامة والحزم خلافا لجدّه باديس[3] .
- حنكة الوزير سماجة، الذي تمكّن من فرض نوع من الوصاية على هذا الأمير الشاب عديم الخبرة وأخذ يتصرف بحرية في إدارة شؤون غرناطة مدّة من الزمن، حتى أبعده عبد الله بوشاية بعض المنافسين والحاقدين عليه[4] .

إنّ هذه العوامل مجتمعة، جعلت من غرناطة محل أطماع الممالك الطائفية الكبرى، خاصة اشبيلية التي تملك أكثر من دافع لغزو مملكة غرناطة وضمّ أراضيها، ولعلّ أقوى هذه الدوافع، هو الانتقام من هذه المملكة البربرية، التي استطاعت التصدي لأطماع اشبيلية التوسعية في جنوب الأندلس وعرقلت أطماع المعتضد بن عباد، كل ذلك بفضل صرامة باديس بن حبّوس (428-465هـ)/(1037-1072م) وإدراكه درجة الخطر الذي يمكن لاشبيلية أن تشكّله على مستقبل مملكته.

= المواجهة. أنظر: **دول الطوائف** ، 130 ، **دراسات في التاريخ الأندلسي دولة بني برزال في قرمونة**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990م، ص76.

(1) العربي: **دولة بني زيري** ، 73.

(2) أنظر: **أعمال الأعلام** ، 234.

(3) نفسه، 235.

(4) ابن بلكين: **التبيان** ، 110 ، 112.

ولمّا توفيّ باديس سنة 465هـ/1072م، جاءت الفرصة سانحة للانتقام، وبالفعل اكتسحت جيوش اشبيلية أراضي غرناطة واستطاعت إخضاع بعض المدن والحصون كمدينة جيّان[1].

كان من الصعب على الأمير الجديد لغرناطة إدراك حقيقة ما يجري من حوله، أو حتى فهم أبعاد السياسة الخارجية لجيرانه الاشبيليين، وعلى العكس من ذلك تماما، تفطّن وزيره المحنك سماجة للأمر وأظهر مقدرة كبيرة في الدفاع عن المدينة[2].

كان ألفونس السادس يراقب تطور الأحداث بين غرناطة واشبيلية بعين الغبطة والسرور، وينتظر الفرصة المناسبة للتدخل، ليُحاول الاستفادة من هذا الوضع الجديد[3] .

لا نعلم على وجه الدقة من الذي بادر بالاتصال بالآخر، فالأمير عبد الله الزيري يذكر أنّ ألفونس هو الذي بادره بالاتصال يطلب منه الجزية حيث يقول: ((...وأمّا ألفونش، لّما تيَقّن هذه الفتن عَلِمَ أنّ ذلك من أكبر سعادته وأعظم فُرَصِه في طلب الأموال، فأرسل إلينا رسوله: أوّلَ مداخلة نشأت بيننا وبينَهُ ، فأتى باطْرُ شولِش[4] يُطلب منّا ضريبته، فأبينا عليه...))[5].

لكنّ إحدى الدراسات الحديثة تؤكّد أنّ الأمير عبد الله اتّصل أولا بالملك النصراني ألفونس، يطلب مساعدته في حربه ضد ابن عباد[6]، بعد أن رأى وصول النفوذ النصراني إلى جنوب غرب الأندلس وتحديدا إلى اشبيلية. ومن الصعب الأخذ برواية هذا الأمير كما هي دون مناقشتها، والتّسليم بأنّ ألفونس قد وجّه مبعوثه لقبض الجزية دون سابق اتّصال بين الرجلين. وعلى كلّ حال ليس غريبا أن نلحظ من الأمير عبد الله هذا الموقف، فكثيرا ما كان يجتهد في مذكراته ليبرّر قراراته وتصرّفاته. أمّا إذا تعمّقنا في تحليل سياسة الملك النصراني ألفونس مع ملوك الطوائف، فنجدها مغايرة تماما لرواية

---

[1] لم تذكر المصادر الإسلامية صراحة، امتلاك المعتمد بن عباد لمدينة جيّان في هذه الحملة، لكن الأمير الزيري عبد الله أشار في مذكراته إلى ضياع هذه المدينة منه، ويُحمّل عمّه ماكسن- الذي كان واليا عليها- مسؤولية التفريط فيها خصوصا أنّ المعتمد استطاع فعلا سلب المدينة حصونها الدفاعية وهما : قَاشترُه ومارتش. أنظر: **التبيان**، 97 ، 119. لكن ابن الخطيب يؤكد أنّ هذه الحملة وصلت إلى مشارف مدينة غرناطة وأحكمت حولها الحصار.

أنظر: **أعمال الأعلام** ، 234.

[2] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 234.

[3] ابن بلكين ، **التبيان** ، 91 .

[4] هو Perdro Ansurez مبعوث ألفونس السادس إلى الأمير عبد الله لقبض الجزية. أنظر: ابن عبود: **جوانب من الواقع الأندلسي**، 44، 80.

[5] ابن بلكين ، **التبيان** ، 91 .

[6] أنظر: عنان، **دول الطوائف**، 142 ، 143، ويأخذ برأيه الدكتور رجب عبد الحليم ،أنظر: **العلاقات**، 363.

صاحب غرناطة ، فملك قشتالة تعوّد أسلوب الضّغط العسكري وإرهاق المنطقة المراد استهدافها بالحملات التخريبية حتى ترضخ في نهاية المطاف لشروطه وتقبل بالخضوع وتقديم الجزية، ولا أظنّ غرناطة استثناءً، وعليه أرجح ما ذهب إليه عبد الله عنان[1] في سعي عبد الله الزيري لمحالفة ألفونس والتعهد بأداة الجزية، لكنه حاول التنصّل من وعوده ظنّا منه أنّ الملك النصراني غير قادر على القيام بعمل عسكري ضدّ غرناطة ما دامت طليطلة تقع حاجزا بينهما.

سرعان ما تبيّن للأمير عبد الله سذاجة هذا الاعتقاد وسوء تقديره للموقف،ذلك أنّ ألفونس استجاب لإغراءات ابن عمار وأطلق يد اشبيلية في غرناطة، بهدف ممارسة المزيد من الضغط عليها لإجبارها على الرضوخ لشروطه،حيث شاركت قواته في الهجوم على غرناطة وبناء حصن بلّيلُش للتضييق عليها.[2]

ج- الأمير عبد الله يخضع لإرادة قشتالة:

سبق وفصّلتُ في المبحث السابق، الدور الكبير الذي نَهَض به أبو بكر بن عمار في تعميق الخلاف والفرقة بين غرناطة واشبيلية، وكيف عاود الاتصال بألفونس لإقناعه من جديد بغزو غرناطة مقابل إغراء مالي كبير[3]. وبدلا من خطة ابن عمار، فضّل ملك قشتالة تنفيذ خطّته الخاصّة فأرسل رسوله يَطلُب من الأمير الزيري الخروج إليه لتجديد الحلف بينهما، على عادته مع ملوك الطوائف الآخرين[4].

ويصف الأمير عبد الله في كتابه التبيان، حالته النفسية وصفًا مفصّلا، حيث انتابه الذعر، وظنّ أنّ ألفونس جاء للقبض عليه والاستحواذ على مملكته[5]؛ وغاب عنه أنّه كان يساومه فقط في مقابل

---

[1] يرى الأستاذ عنان أنّ الأمير عبد الله سارع بتوجيه من وزيره سماجة لعقد معاهدة حلف وصداقة مع ألفونس يتعهد فيها بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار، ويحصل مقابل ذلك على مساعدة عسكرية من ألفونس لمحاربة مملكة اشبيلية، وفعلا سارت هذه القوات المشتركة المشكلة من جنود غرناطة والجنود النصارى، وأغارت على اشبيلية واستطاعت استرداد حصن قبرة في جنوب غربي جيّان سنة 466هـ/1074م. أنظر: **دول الطوائف** ، 142، 143. ومن المهم هنا أن أشير أنّ هذه الرواية لم ترد في المصادر الإسلامية، والظّاهر أنّ الأستاذ عنان أخذ بالرواية النصرانية دون أن يصرح أو يشير إلى المصادر التي اعتمد عليها.

[2] ابن بلكين: **التبيان**، 91.

[3] نفسه ، 94.

[4] العربي: **دولة بني زيري** ، 152.

[5] ابن بلكين: **التبيان** ، 95.

الحرية التي يُتيحُها لابن عباد ضدّ مملكته[1] .

وبعد تردّد كبير ومشاورة وجوه دولته، قرّر المخاطرة، فلم تعد أمامه خيارات كثيرة، وهو في جميع الحالات تحت رحمة ألفونس وجنوده، وجرى اللقاء بينهما غير بعيد عن غرناطة، وساد اللقاء جوّ ودّي اندهش له الأمير عبد الله، وأسفر هذا الاجتماع على التزام غرناطة بدفع ثلاثين ألف مثقالا بدل خمسين ألفا، وهي التي طالب بها ألفونس؛ وبعد تضرّع وتوسل من صاحب غرناطة وإجهاد نفسه في إقناع ألفونس بمختلف الحجج، قَبِل ملك قشتالة وليون تخفيف قيمة الجزية[2]. وفي ذلك يقول هذا الأمير:

((...فشكونا إليه (يعني ألفونس) قلّة البلاد، وأنّ ذلك لا يُقْدَرُ عليه، وفيه من القطع لنا، وما يَفْتَرِضُنا به ابن عباد، فإنّه لو أخذ غرناطة، قوى عُنْصُرُه ولم يَنْطَع إليك، فخُذْ ما نقدر إليه،واترك رمقًا لا نُستأصَلُ من أجله! وما تَركتَ، تجده عندنا متى طلبت!...))[3].

كان ألفونس السادس يُتقن فنّ إدارة الصراع بشكل فريد، فَقَبِل هذه الحجج وهو يعلم أنّ تكليف غرناطة أكثر ممّا تُطيق، سيكون له انعكاسات خطيرة على مستقبل هذه الإمارة، وأنّ حصول ابن عباد عليها سيُحدث بكلّ تأكيد، خللاً في ميزان القوّة بين الممالك الطائفية وسيُقوّي طرفا على حساب آخر، وهو ما قد يؤدّي إلى تمرّد ابن عباد عليه مستقبلا، إن شعر بالقوة اللازمة لمناهضة الملك النصراني[4].

واستكمالا لهذه السياسة، فرض ألفونس على صاحب غرناطة جزية سنوية قدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يتنازل في نفس الوقت على بعض الحصون الهامة في جنوب غربي جيّان، وهما قاشترُه ومارتش[5]، واللذين باعَهُما ألفونس لابن عباد[6].

من الغريب أنّ الأمير عبد الله الزيري، كان يعي جيّدًا أهداف سياسة ألفونس ومناوراته مع ملوك

---

[1] العربي: **دولة بني زيري** ، 151.

[2] يبدو أنّ مبلغ خمسين ألف مثقال، وهي التي طالب بها ألفونس، إنّما هي جزية السنوات السابقة التي رفض فيها عبد الله الرضوخ لمطالب ملك قشتالة.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 96 ، 97.

[4] نفسه، 96.

[5] أصرّ المعتمد بن عباد للحصول على الحصنين مهما كلّفه من ثمن ، وفاوض وزيره ابن عمار، ألفونس عليهما،فضغط على عبد الله الزيري وأجبره على التنازل عليهما كأحد شروط إتمام معاهدة التحالف، ويخبرنا الأمير عبد الله في مذكّراته، أنّ ابن عمار وعد ألفونس على حصن مارتش بأموال كأنّه يشتريها منه. أنظر: **التبيان** ، 97.

[6] ابن بلكين: **التبيان**، 97 ، 98.

الطوائف، ومع ذلك بقي عاجزًا عن القيام بأيّة مبادرة لتغيير الوضع القائم والتجأ إلى أسهل الحلول وقبَل الخضوع والاستسلام لمنطق القوة والقهر. ويبدو أنّ ألفونس قد أحسّ هذا العجز والخضوع من ملوك الطوائف، فلم يجد مستشاره ششنند في هذه السفارة حرجًا في التصريح أمام صاحب غرناطة بأبعاد سياسة ألفونس وأهدافه الآنية والبعيدة، ومن ذلك قوله: ((...إنّما كانت الأندلس للرّوم في أوّل الأمر، حتى غلبهم العرب، وألحقوهم بأنحسِ البقاع: جلّيقية، فهم عند التمكّن، طامعين بأخذ ظلاماتهم! فلا يصحُّ ذلك إلاّ بضعف الحال والمطاولة، حتى إذا لم يبقَ مال ولا رجال أخذناها بلا تكلّفٍ!))[1].

وبالفعل ينطبق هذا الوصف الدقيق لهذه السياسة على مملكة طليطلة، التي سقطت في يد النصارى بأقل التكاليف، وذلك بعد إرهاقها بالجزى والحصار والحملات التخريبية، فسقطت هذه المملكة ثمرة ناضجة في يد ألفونس السادس دون عناء كبير سنة 478هـ/1085م[2]، وكان سقوطها عاملا مهمّا بل حاسما في إدراك ملوك الطوائف- ومنهم عبد الله – خطر ألفونس وسياسته، وهو ما دفعهم في النهاية إلى الاستنجاد بدولة المرابطين.

وعلى كلّ حال، فقد استمرّ الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة، في الخضوع لسلطان ملك قشتالة، والتزم طيلة هذه الفترة بتقديم الجزية السنوية المفروضة عليه، حتى معركة الزلاقة والانتصار الكبير الذي حققه المسلمون على النصارى الاسبان ، وهو ما سنُعنى بدراسته لاحقا.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان**، 95.

[2] نفسه ، 99، مجهول: **الحلل الموشية**، 38 ، ابن الكردبوس، **الاكتفاء**، 85، ابن أبي دينار: **المؤنس في أخبار افريقية وتونس** ،ط1، تونس، 1286هـ،ص99، ابن الأثير: **الكامل** ، 439/8.

3- بلنسية وشرق الأندلس:

أ- استقلال الصقالبة ببلنسية وشرق الأندلس:

سبق ورأينا في مدخل البحث، كيف تسببت الفتنة في مطلع ق 5هـ/11م، في انقسام الأندلس إلى طوائف مختلفة الأجناس والأعراق، ورأينا كيف غلب العنصر البربري على جنوب الأندلس كغرناطة ومالقة والجزيرة وغيرها، لكن الصورة كانت مختلفة في شرق الأندلس، فالغلبة كانت للعنصر الصقلبي، وهم موالي المنصور بن أبي عامر(366-392هـ)/(976-1002م) وابنه عبد الملك المظفر (392-399هـ)/(1002-1008م)، لذلك عُرفوا بالفتيان العامريين.

وجدت هذه العناصر الصقلبية في شرق الأندلس ميدانا لنشاطها وأطماعها، بل ملاذا آمنا في هذا الرّكن من شبه الجزيرة، بعيدا عن الصراعات الدامية التي شهدتها قرطبة عاصمة الخلافة الأموية آنذاك[1].

كانت مملكة بلنسية من أعظم قواعد الأندلس الشرقية، تجاور في طرفها الشمالي مملكة سرقسطة والثغر الأعلى، وكانت مدينة بلنسية عاصمة هذه المملكة وشاطبة من مدنها الرئيسية[2].

سيطر الصقالبة بشكل واضح على هذه المنطقة، فكان مظفر ومبارك أول من استقل بها أيام الفتنة، وهما عبدين مغمورين من عبيد المظفر بن أبي عامر، أخبر المؤرخ ابن حيان بقصة اعتلائهما السلطة في بلنسية، بعد أن علّق متهكما قائلا: ((...من غرائب الليالي والأيام اللاعبة بالأنام...))[3] ثم وصف اشتراكهما في إدارة شؤون المملكة، و حياتهما الخاصة أيضا، بحيث كانا يجتمعان في أوقات كثيرة على مائدة طعام واحدة، ويبدو أنّ مباركاً كان متقدما على صاحبه في رسوم الإمارة بفضل صرامته وحزمه، مما جعل مظفرا ينقاد له في مختلف الأمور[4].

اعتمدت سياستهما على تغليب العنصر الصقلبي على سائر العناصر الأخرى المكونة للمجتمع الأندلسي آنذاك، فانضمت إليهم هذه الطائفة، لميلها إلى بني جنسها من الصقالبة وموالي الدولة العامرية[5].

كَثُرت جباية هذين العبدين -كما يحلو لابن بسام تسميتهما- حتى بلغت مائة وعشرون ألف

---

[1] عنان: **دول الطوائف**، 217.

[2] الحجي: **التاريخ الأندلسي**، 367.

[3] ابن حيان برواية ابن بسام: **الذخيرة**، ق3، مج3، 7، ابن عذاري :**البيان المغرب**، 158/3.

[4] ابن بسام: **الذخيرة**، ق3 ، مج 3 ، 7، 8.

[5] نفسه، ق3 ، مج3 ، 8.

دينار في الشهر، سبعون في بلنسية، وخمسون بشاطبة، استخرجاها من الناس بأشدّ أنواع العنف والقسوة[1].

ولم تطل مدّة حكمهما حتى ثارت العامة على مظفّر فقتلته بعد وفاة مبارك في سنة 408هـ/1017م أو سنة 409هـ/1018م[2].

لم أجد في المصادر الإسلامية ما يشير إلى أيّ اتصال بين ملوك اسبانيا النصرانية ومملكة بلنسية حتى هذه الفترة، ولعلّ السبب في ذلك دائما هو انشغال كل طرف بشؤونه الداخلية، لكنّ هناك بعض الإشارات التي تكشف لنا عن الصداقة التي ربطت بين حاكم بلنسية الجديد لبيب الصقلبي مع أمير برشلونة رامون بوريل، حتى صار لبيب هذا كأحد عمال الأمير النصراني حسب تعبير ابن حيان[3] فمقتته العامة وثارت عليه فقتلته ، ويبدو أنّ الناس في بلنسية قد ملّوا من حكم الموالي العامريين وقرّروا توجيه الدعوة هذه المرّة لأحد أحفاد المنصور بن أبي عامر وهو عبد العزيز بن عبد الرحمان شنجول وتمّ تأميره على بلنسية[4].

ب- بلنسية العامرية واسبانيا النصرانية:

استقرّ عبد العزيز حاكما على بلنسية منذ سنة 412هـ/ 1021م [5] وتلقّب بالمنصور، وسعى كغيره من ملوك الطوائف لتوسيع حدود مملكته ومدّ نفوذه، فاستولى على المرية بعد مقتل صاحبها زهير العامري سنة 429هـ/ 1037م، وأرسل وزيره وصهره مُعَن بن صُمادح إلى باديس بن حبّوس يحُثّه على إعدام وزراء زهير وقوّاده، ومنهم أحمد بن عبّاس ، حتى لا ينازعه أحدهم في حكم المرية فكان له ما أراد[6].

وبهذا أضحت مملكة بلنسية من أعظم ممالك الطوائف في شرق الأندلس بعد انضمام المرية ومرسية ولورقة إليها[7].

---

(1) ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 6، 7، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 164/3.

(2) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 302/3.(الذيل)

(3) ابن حيان برواية ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ،11 ، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 164/3.

(4) ابن حيان برواية ابن عذاري: **البيان المغرب**، 164/3.

(5) حسب رواية ابن حيان تولّى عبد العزيز الحكم في سنة 412هـ (ابن بسام: **الذخيرة**، ق3، مج3، 160) ويجعلها القلقشندي في سنة 411هـ (**صبح الأعشى**، 252/5 ، 253).

(6) ابن عذاري: **البيان المغرب**، 172/3 ، عنان: **دول الطوائف** ، 222.

(7) العذري: **ترصيع الأخبار**، 16، عنان: **دول الطوائف** ، 222

وهنا نظر مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية[1] نحو بلنسية بعين الحسد والخوف، وهو يرى توسع هذه المملكة على هذا النحو، خاصة وأنّ مملكة دانية أصبحت معظم أراضيها محصورة بين أطراف مملكة بلنسية الشمالية والجنوبية، فقرّر مهاجمتها لوقف هذا التوسع.

كان عبد العزيز بن أبي عامر على علاقات طيبة مع ملوك اسبانيا النصرانية، وبالأخصّ مع فرديناند(426-458هـ)/(1035-1065م) ملك قشتالة، والذي لم يتردّد في إمداده ببعض جنوده المرتزقة ليُحارب بهم عدوّه مجاهد العامري[2]. وبحُكم هذه العلاقة المتينة مع النصارى، كانت مملكة بلنسية بمنأى عن الحملات التخريبية التي خاضها الملك فرديناند في شمال الأندلس وغربها[3]، ويفسّر ابن الخطيب خلفيات هذه العلاقة[4] ، برابطة الدم التي تجمع عبد العزيز هذا بنصارى الاسبان من جدته زوجة المنصور بن أبي عامر، التي كانت ابنة أحد ملوك اسبانيا ويدعى شانجة، قدّمها عربون ودّ للمنصور الذي تزوّجها وأنجبت له ابنه عبد الرحمان الملقب بشنجول، وهو تصغير لاسم جدّه شانجه[5].

لم تذكر كتب التاريخ التي اطلعتُ عليها، غير هذا الخبر حول علاقات مملكة بلنسية بإسبانيا النصرانية في عهد عبد العزيز بن أبي عامر، رغم امتداد فترة حكمه زهاء أربعين عاما (411-452هـ)/(1027-1060م)، ولا ندري على وجه الدّقة الأسباب التي تقف وراء ذلك، هل هو تقصير من أصحاب هذه المصادر الذين لم يفصّلوا في هذه الأحداث ، التي رأى أحدهم أنها ليست على درجة من الأهمية [6]. أم نتيجة للسلام والهدوء الذي خيّم على العلاقات بين الجانبين طيلة هذه الفترة.

وفي كل الأحوال، توفّي عبد العزيز في ذي الحجة سنة 452هـــ/ 1060م وخلفه ولده عبد الملك في حكم هذه المملكة.

لم يكن عبد الملك من صنف أبيه، بل كان على العكس من ذلك ((... منهمكًا في الشراب

---

[1] كان مجاهد العامري من أشهر فتيان الدولة العامرية، استقلّ بشرق الأندلس منذ بداية الفتنة، ثم بسط نفوذه على مدينة دانية والجزر الشرقية، ميورقة ، مينورقة ، يابسة ، أنظر: مجهول: **ذكر بلاد الأندلس** ، 217/1.

[2] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 195 ، عنان: **دول الطوائف** ، 222، 223.

[3] عنان: **دول الطوائف** ، 223.

[4] **أعمال الأعلام** ، 195.

[5] نفسه ، 66.

[6] أحجم ابن الخطيب عن تفصيل أخبار عبد العزيز بن أبي عامر واستعانته بملوك النصارى ضدّ مجاهد العامري، لا لشيء سوى أنّ هذه الأخبار يطول شرحها. أنظر: **أعمال الأعلام**، 195.

غاربا عن الخصال المحمودة مع رقّة الدّيانة ونقص المرووّة وكثرة الاستهمال والانحطاط في مهاوي اللّذات...))[1]. ولعلّ ما يُميّز فترة حكمه في علاقاته مع النصارى الاسبان، هو حصار الملك فرديناند لمدينة بلنسية ووقعة بَطِرنة Paterna.

اختلفت المصادر في ضبط تاريخ محدّد لهذه الوقعة بين سنة 456هـ/1036م عند ابن بسام[2] والمقري [3] وسنة 455هـ/1063م عند ابن عذاري[4]، ومع ذلك فهما يشتركان في الخطأ ذاته حينما يجعلان حدوث هذه الوقعة في عهد عبد العزيز بن أبي عامر بدل عبد الملك ولده[5].

ومن الغريب، إهمال ابن حيان مؤرخ الطوائف الشهير التأريخ لهذه الوقعة على أهميتها، وعبثا حاول ابن بسام البحث في كتاب المتين عن هذه الوقعة دون جدوى[6].

على أنّ المهم في ذلك، هو هزيمة عبد الملك بن عبد العزيز أمام جنود فرديناند ملك قشتالة وليون فبعد فشل هذا الجيش في اقتحام المدينة لحصانتها، لجأ إلى الحيلة والتظاهر بالانهزام والتراجع، حتى اطمأنّ سكان المدينة وفي مقدّمتهم أميرهم عبد الملك، فخرجوا لمطاردة النصارى وهم يرفلون في ثياب فخمة كأنّهم في يوم عيد، وعندئذ فاجأهم القشتاليون وهاجموهم وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا، ثم عادوا لمحاصرة المدينة من جديد [7].

هبّ المأمون بن ذي النون لنجدة صهره (زوج ابنته) عبد الملك، وهو لايزال في حلف مع فرديناند وملتزم بدفع الجزية له، من أجل استنقاذ المدينة لنفسه[8]، وساعده الحظ حينما رفع فرديناند الحصار عنها قبل وصول المأمون ، ودخلها فاتحا لا منقذا، وأبعد صاحبها عبد الملك عن الحكم[9].

---

[1] ابن عذاري : **البيان المغرب** ، 303/3 (الذيل)

[2] **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 558.

[3] **نفح الطيب** ، 448/4.

[4] **البيان المغرب** ، 252/3 ، ويبدو أنّ ابن عذاري اعتمد رواية ابن بسام وتصرّف فيها.

[5] توفي عبد العزيز بن أبي عامر سنة 452هـ/1060م، وهذا يعني أنّ وقعة بطرنة كانت في عهد خلفه عبد الملك.

[6] ابن بسام: **الذخيرة**، ق3، مج3، 557.

[7] المقري : **نفح الطيب** ،448/4.

[8] سبق لي وناقشت هذه المسألة ومسائل أخرى تتعلق بهذه الوقعة في الفصل الأول من هذا البحث، ص36-37 .
أنظر أيضا: Dozy. **Histoire**. T4. pp. 124.125.

[9] تختلف الروايات بشأن الدوافع الحقيقية لغزو المأمون لبلنسية رغم رابطة المصاهرة التي تجمعهما، فقد كان المأمون صهر عبد الملك (أبو زوجته). فبعضها يقول أنّ المأمون تحرّك بدافع العاطفة والأبوة لينتقم من صهره الذي كان يهين ابنته ويسيء معاملتها. (ابن عذاري: **البيان المغرب**، 266/3 ، 267)، وتذكر رواية أخرى، أنّ المأمون طلب من عبد الملك مساعدة عسكرية لغزو ابن عباد لكنه رفض ، فحَنق عليه صهره وعزم على النيل منه . =

استخلف المأمون على بلنسية أحد وزرائها، وهو أبو بكر أحمد بن أبي عبد الله بن عبد العزيز كان أبوه وزيرا لعبد الملك، وهو ليس من بني عامر كما ظنّ أحد المؤرخين[1]، ويشير ابن بسام في هذا السياق، أنّ هذا الوزير كان ممّن مال إلى صفّ المأمون وأعانه على دخول المدينة فكافأه على هذه الخيانة باستخلافه على بلنسية، و لم تطل المدّة حتى خان سيّده الجديد وأعلن استقلاله بالمدينة لنفسه بعد وفاة المأمون مباشرة سنة 467هـ/1074م[2].

بعد عام واحد على امتلاك المأمون بن ذي النون لقرطبة، استطاع المقتدر بن هود صاحب سرقسطة انتزاع دانية من يد مجاهد العامري سنة 463هـ/1075م[3]، ولا شك أنّ أصداء هذا الأمر قد عمّت الأندلس ، وبالأخص بين دول الطوائف المجاورة، وتفرقت مواقف ملوك الطوائف بين حاسد للمقتدر على تحصيله لمملكة دانية بأقل التكاليف، وبين متخوّف من تعاظم قوته ومتأهّب لشرّه ،كما يشهد بذلك أحد الأمراء المعاصرين[4]، فكانت بلنسية ممّن نظر بعين الخوف لاستقواء المقتدر بضمّه لدانية، لأنّها أضحت محاصرة بين أراضي مملكة سرقسطة من الشمال ومن الجنوب ورأي أبو بكر بن عبد العزيز خلاصه في الملك النصراني ألفونس السادس، فخاطَبَهُ واحتمى به وتعهّد له بأداء الجزية على نمط سائر ملوك الطوائف الآخرين[5] .

لم يذكر ابن بسام صراحة، التزام صاحب بلنسية بتقديم الجزية لألفونس، لكن عبد الله عنان ورجب عبد الحليم استنتجا ذلك من طريقة حديث ابن عبد العزيز مع الملك النصراني[6]حيث ذكر

= (عنان: **دول الطوائف** 223، 224). وحتى لو سلّمنا بصحة هذه الروايات، فالدافع الحقيقي للصراع بين ملوك الطوائف، كان دائما المصلحة الخاصة وجنون السيطرة والنفوذ، بغض النظر عن الاعتبارات الأخرى التي تبقى ثانوية.

[1] مجهول:**ذيل على البيان المغرب** (قطعة من كتاب مجهول العنوان والمؤلف)، 303/3.وقارن ذلك برواية ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 24 ، 25.

[2] **الذخيرة** ، ق3، مج3 ، 24 ، 25.

[3] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 171.

[4] يقول في ذلك الأمير الزيري عبد الله بن بلّكين: ((...فإنّ ابن هود، اهتزّت له الأندلس عند حصوله على دانية وجزع جميع الرؤساء لأخذه لها دون قتال ولازمان، وأعدّ كل أحدٍ عُدَدَهُ متأهبًا لشرُه...)).
أنظر: **التبيان** ، 100 101.

[5] رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، 349 ، Dozy. **Le Cid**. p. 123.
وترى بعض المصادر أنّ المقتدر بن هود قد أعطى ألفونس مائة ألف دينار لقاء مساعدته لغزو بلنسية، وأنّ الملك النصراني أعدّ حشوده بالفعل، وأقبل يطلب المدينة، وطلب العون من حلفائه في جنوة وبيزا لإمداده بالسفن، لكن حنكة الأمير ابن عبد العزيز جنّبته المواجهة. أنظر: ابن الكردبوس: **الاكتفاء**.99، ابن بسام:**الذخيرة**، ق3،مج3، 25

[6] أنظر: عنان: **دول الطوائف** ، 226، رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، 349.

صاحب الذخيرة : ((...حتى خرج إليه ابن عبد العزيز منسلخا من عديده، في ثياب جُمْعَته وعيده فكلّمه بما أرَقّ قلبَه وكفّ غَرْبَه، وكان مما قال: هي بلادك فقدّم من شئت وأخّر، ونحن طاعتك وقوّادك، فأقلل منا أو أكثر...))[1].

وبهذا يكون ابن عبد العزيز قد استطاع دفع الخطر النصراني عن بلاده، بأقل جهد وعناء، ربما لإعجاب ألفونس بأبي بكر ، لأنه كان يثني عليه ويقول: رجال الأندلس ثلاثة: أبو بكر بن عبد العزيز، وأبو بكر بن عمار وششنند[2].

لاحظنا من خلال ما سبق، أنّ العلاقات السياسية بين بلنسية والنصارى الاسبان، كانت أقل تطورًا إذا ما قورنت بعلاقاتهم مع دول طائفية أخرى، كاشبيلية أو سرقسطة أو حتى غرناطة ، لذلك يمكن القول أنّ هذه العلاقات كانت مرتبطة بشكل وثيق بالاستعانة بالنصارى لصد العدوان الخارجي لدولة طائفية أخرى، أو لتحقيق مشروع توسّعي معين، مقابل تقديم الأموال في شكل جزية. ويمكن تفسير ضعف العلاقات بين الطرفين، بضعف المركز السياسي والوزن الاقتصادي والمعنوي لبلنسية وشرق الأندلس عموما طيلة هذه الفترة التي سبقت سقوط طليطلة ، وانشغال ألفونس السادس بمشاريعه وخططه في الجزء الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية، لكنّ بلنسية سرعان ما أصبحت تتصدّر الأحداث في شرق الأندلس ،خصوصا بعد سقوط طليطلة في يد النصارى سنة 478هـ/1085م والتحول العميق في خطة ألفونس، وبداية مرحلة جديدة من حروب الاسترداد .

ج- بلنسية وعهد السيادة القشتالية:

كانت بلنسية بعد 478هـ/1085م أنموذجا للفوضى السياسية التي أصابت الأندلس في زمن الطوائف ونالت بذلك النصيب الأوفر من الأزمات والنكبات المتعاقبة، بدءًا بالمؤامرات والأطماع الخارجية لبعض ملوك الطوائف كمجاهد العامري (400-436هـ)/(1009-1044م)، والمقتدر بن هود (438-474هـ)/(1046-1081م)، وانتهاءً بالضغوطات المستمرة لملوك النصارى الاسبان على رأسهم الملك فرديناند (426-458هـ)/(1035-1065م) وألفونس السادس (458-502هـ)/(1065-1109م) الذي جاء بعده.

على أنّ أهم حدث أثّر بشكل خطير في شرق الأندلس وحدّد مصير مملكة بلنسية، بل وهزّ الأندلس من أقصاها إلى أقصاها، كان سقوط طليطلة في قبضة ألفونس السادس، وسبق لي أن أشرت

---

[1] ابن بسام : **الذخيرة**، ق3 ، مج3 ، 26.
[2] نفسه، ق3 ، مج3 ، 26.

في معرض حديثي عن علاقات هذه المملكة بالنصارى، وكيف ركّز ألفونس بشكل خاص على هذه المدينة، لما تمثله من رمزية بالنسبة له ولاسبانيا النصرانية كلّها [1]. وكان من شروط التسليم المتفق عليها بين يحي القادر وألفونس، أن يعوّضه ببلنسية لقاء تنازله عن طليطلة[2].

وخرج يحي القادر من طليطلة خائبا كما وصفه ابن بسام[3]،ولجأ عند أشياعه من بني الفرج في قونكة[4]، بعدما رفضت باقي المعاقل والحصون الأخرى استقباله وإيواءه، ومن حسن حظّه وسوء حظ بلنسية، أنّ مقامه هناك لم يَطُل، فسرعان ما بلغه نبأ وفاة أبي بكر بن عبد العزيز، فتعجّل السير إلى بلنسية في حماية البرهاسن[5] وجنوده القشتاليين[6]، وهكذا استولى يحي القادر على بلنسية وقامت دولة بني ذي النون من جديد في شرق الأندلس بعد سقوط طليطلة، فكانت دولة ضعيفة تابعة تَدينُ بوجودها لملك قشتالة وحراب جنوده النصارى[7].

سرعان ما أبدى يحي القادر على بلنسية صولة الضعيف إذا تحكّم، وفرض طغيانا شاملا على المدينة زادهُ وطأةً، مطالب القشتاليين ومغارمهم التي لا تنتهي[8]، فأخذ يطالب بمزيد من الأموال سدادًا لمطالب القشتاليين كما فعل من قبل في طليطلة. فعمّت الفوضى وغادر المدينة كثير من الأعيان والأكابر وغدت السيادة الحقيقية في بلنسية للبرهانس وجنوده[9].

كانت علاقة الخضوع والاستسلام التي أبداها ابن ذي النون نحو ألفونس مقبولة من هذا الملك القشتالي، فواصل نهج سياسته المعهودة مع بلنسية ومع باقي الممالك الطائفية الأخرى في شرق الأندلس، لكنّ الجديد في الأمر، هو ظهور طرف ثالث في هذا الصراع، ساهم إلى حدٍّ بعيد في تعقيد صورة العلاقات بين بلنسية والنصارى الاسبان، هذا الطرف الجديد هو السيد الكمبيادور، وعليه

---

(1) راجع الفصل الأول، ص38-48.

(2) ابن بسام : **الذخيرة،** ق3 ، مج3 ، 57 ، ابن بلكين: **التبيان ،** 99.

(3) ابن بسام: **الذخيرة** ، ق4، مج4 ، 103.

(4) هي مدينة ، Cuenca وسبقت الإشارة إليها في الفصل الأول،ص41.

(5) البرهانس: هو القائد الاسباني المعروف Alvar Hanèz ابن أخي السيد الكمبيادور، وكان من كبار قواد الملك ألفونس السادس . أنظر: ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 86 ،هامش رقم(3).

(6) ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3، 58 ، ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 86.

(7) عنان: **دول الطوائف،** 228.

(8) قدّر دوزي تكاليف الجنود القشتاليين بـــ 600 قطعة ذهبية في اليوم الواحد. أنظر:
Dozy.R**. Le Cid**. p.127.

(9) عنان: **دول الطوائف،** 228 ، أنظر أيضا: Dozy.R. **Le Cid**. pp. 129 , 130.

أرى من الأهمية بما كان، التوقف قليلا عند هذه الشخصية التي طفت على مسرح الأحداث في الأندلس إذا أردنا فعلا، فهم هذه العلاقة في تلك الفترة الحرجة من تاريخ بلنسية وشرق الأندلس.

لستُ هنا بصدد التأريخ للسيد الكمبيادور، بل لا أرى أهمية لذلك أصلا، فقد لقي هذا الفارس المغامر اهتماما كبيرًا من مؤرخي عصره، ومن المؤرخين المتأخرين [1]، ونُسِجت حوله الأساطير وأُلِّفَت عنه الكتب والملاحم، ويرى المستشرق الهولندي دوزي أنّه لا توجد شخصية في التاريخ ظُلمت بإخراجها من حيّز الأسطورة إلى ضوء التاريخ كما كان حال السيد الكمبيادور [2]، وإنّما الهدف الأساسي، هو إدراك الدّور الذي اضطّلع به السيد في بلنسية وشرق الأندلس والوقوف على حقيقة السياسة التي كان ينتهجها مع ملوك الطوائف أو حتى مع مَلِكِهِ ألفونس السادس.

في هذه الأثناء كان جنوب شبه الجزيرة يعرف أحداثا هامة، فقد عبر المرابطون إلى الأندلس في ربيع الأول سنة 479هـ/أوت 1086م، استجابة لنداء الاستغاثة الذي توجه به أمراء الأندلس ليوسف بن تاشفين[3]، وأخذ ألفونس السادس يجمع الجيوش ويُنظّمها استعدادا للمعركة الفاصلة وغادر البرهانس بلنسية ليلتحق بسيّده ويخوض المعركة إلى جانبه، فتنفس أهل بلنسية الصعداء برحيل القشتاليين[4].

كانت بلنسية محاطة بالأعداء الطامعين من كلّ جانب، والكلٌّ ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض عليها وامتلاكها، فالمنافسة بين المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة، والمستعين (478-503هـ)/(1085-1110م) صاحب سرقسطة كانت على أشُدِّها،كما طَمَع السيد الكمبيادور فيها أيضا، وانتهج سياسة تسير في هذا الاتجاه.

وتجسيدا لهذه المنافسة، تحرّكت قوات المنذر بن هود صوب بلنسية تدعمها سَرِيّة من المرتزقة النصارى من برشلونة، وتقدمت هذه القوات مجتمعة لتفرض حصارًا حول المدينة في سنة 481هـ/1088م[5] ، ويبدو أنّ موقع بلنسية الذي كان يقسّم مملكة المنذر ويحُول دون وحدة

---

[1] أنظر : ابن بسام : **الذخيرة** ، ق3،مج3، 59-62 ، ابن علقمة : **البيان الواضح في الملم الفادح** ، وهذا الكتاب مفقود ، لكن هناك نقولات هامة منه في كتابات بعض المؤرخين المتأخرين، أمثال: ابن الأبار : **الحلة السيراء** 126/2،125.ابن عذاري: **البيان المغرب**، 31/4-41. ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 98-108. ابن الخطيب : **أعمال الأعلام** ، 203-205.

[2] Dozy. R . **Le Cid**. P.2.

[3] أنظر تفاصيل هذه المسألة في الفصل الثالث من هذا البحث، ص131.

[4] Dozy.R. **Le Cid**. pp.130. 131. ، أنظر أيضا: عنان: **دول الطوائف** ، 228، 229.

[5] Dozy.R. **Le Cid**. p. 131.

أراضيه، كان دافعا قويا للحصول على هذه المدينة[1].

استولى الذعر والاضطراب على يحي بن ذي النون، وتذكر إحدى الروايات أنّه فكر في تسليم المدينة للمنذر لولا نصائح ابن طاهر (455-471هـ)/(1063-1078م) صاحب مرسية السابق[2] الذي أشار عليه بالتريث وطَلَبِ مساعدة ألفونس ملك قشتالة ، والمستعين صاحب سرقسطة[3].

لم تكن أطماع أحمد المستعين في بلنسية تقلّ عن أطماع عمّه المنذر، ورأى في استغاثة يحي القادر فرصة مواتية لتحقيق هذه الأطماع، بل كان يتوقُ لافتتاح هذه المدينة التي كلّفت جدّه المقتدر من قبل أموالا طائلة دون جدوى[4]، ومن المرجح أنّ المصاهرة التي عقدها المؤتمن مع أبي بكر بن عبد العزيز كانت تتماشى وهذه الأطماع [5].

لا تكاد المصادر الإسلامية تذكر هذه الأحداث إلاّ بالقدر اليسير باستثناء ابن الكردبوس في كتابه الاكتفاء، الذي أتى على ذكر بعض التفاصيل الهامة حول الاتفاق الذي عقده أحمد المستعين صاحب سرقسطة مع حليفه السيد الكمبيادور الفارس القشتالي، ومن ذلك قوله: ((...وخرج الحاجب منذر بن أحمد بن هود من لاردة، ونزل على بلنسية وحصرها طامعاً في أخذها من يد القادر، فلمّا سمع به ابن أخيه المستعين، استنصر بالقنبيطور لعنه الله، وخرج معه في أربعمائة فارس و القنبيطور في ثلاثة آلاف فارس، وغزا معه بنفسه حرصًا منه على تملّك بلنسية على أنّ للقنبيطور

---

[1] عنان: **دول الطوائف** ، 229.

[2] هو أبو عبد الرحمان محمد بن طاهر ، كان واليا على مرسية باسم عبد الملك بن عبد العزيز صاحب بلنسية واستمر في منصبه على غاية سنة 471هـ/1078م حينما أزاحه ابن عمار بعد استيلائه على مرسية، حيث ذكر الفتح بن خاقان ، أنه لجأ إلى بلنسية واحتمى بصاحبها، حتى وفاته سنة 507هـ/1113م، أنظر : **قلائد العقيان**،58-59.

[3] Dozy.R. **Le Cid**. pp. 131.132.

[4] سبق وأشرت في حاشية سابقة كيف قدّم المقتدر مائة ألف مثقال لألفونس مقابل مساعدته في تحصيل بلنسية، لكن هذه الخطة باءت بالفشل وضاعت هذه الأموال دون فائدة. أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 25.

[5] قام أبو بكر بن عبد العزيز سنة 477هـ/1084م بتزويج ابنته للأمير أحمد بن المؤتمن ليحفظ بلاده من أطماع بني هود، لكنه أخطأ التقدير، فسرعان ما استغلّ أحمد المستعين هذا الوضع ليحاول ضمّ بلنسية مستغلا وجود عناصر داخل المدينة تؤيده وتعمل على حصوله عليها. أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 303/3 ، 304 (الذيل).

أموالها وللمستعين جَفْنها[1]...))[2].

ويُفهم من هذا النّص، أنّ اتفاقا مسبقا تمّ بين المستعين والسيد الكمبيادور من أجل التعاون على غزو بلنسية وهما يُظهران عزمهما على مساعدتها ضدّ أطماع المنذر.

لم ينتظر المنذر وصول أعدائه إلى بلنسية وهو يُدرك عدم قدرته على مجابهتهم، فسارع لرفع الحصار عن المدينة، وحاول عقد تحالف مع القادر مقابل عدم تسليم المدينة لخصمه المستعين.[3]

في هذه الأثناء، أخذت المناورات والاتفاقات السرية والوعود الكاذبة تعمل عملها بين أطراف الصراع، ويبدو أنّ (السيد) كان الطرف الأقوى، إذا قسنا الأمور بميزان القوة العسكرية فهو يحتكم ويقود ثلاثة آلاف فارس –وهي قوة كبيرة بمقياس ذلك العصر– ومع ذلك لم يكن (السيد) قادرًا على مواجهة أطرافًا متعدّدة في وقت واحد، لذلك سعى للخديعة واتصل سرًّا بالقادر ينصحه بألاّ يُسلّم المدينة لأحد، ووعد القادر و المستعين كلٌّ بمعزل عن الآخر بتقديم المساعدة، وأكّد للمستعين على استعداده لدعمه في فتح بلنسية وبعث سرًّا إلى المنذر يَعقِدُ معه اتفاقا بالصداقة والتحالف. بل ذهب أبعد من ذلك، فخاطب ألفونس ملك قشتالة وأكّد له أنّه فيما يعمله ويغنمه، إنّما هو تابع له، وأنّ فرسانه الذين يقودهم في أراضي المسلمين، إنّما هم تحت تصرّف الملك، وفي مقدورهم الحصول على شرق الأندلس بسهولة ويُسر. ورأى ملك قشتالة في رسالة (السيد) دليلا على الولاء والطاعة، فوافقه عليها، وأذِنَ له أن يجول بفرسانه حيث يشاء في بلاد المسلمين[4].

وكان السيد قد طمع فيما هو أكبر، ورأى في رسالة ألفونس عملا لا يلبّي طموحاته وأطماعه، ولا يعطيه مشروعيته فيما يقوم به، فذهب بنفسه إلى قشتالة والتقى بالملك ألفونس، وحصل منه على وثيقة الموافقة التي تؤكّد على أنّ كل الأراضي والحصون التي ينتزعها السيد من المسلمين تصبح ملكًا خاصا له ولورثته من بعده ، ويبدو أنّ ملك قشتالة قد دعّمه بفرقة من جنده تجسيدًا

---

[1] يرى دوزي أنّ جفن المدينة يعني ما يحيط به السور في المدينة ، أنظر : (**تكملة المعاجم**، 231/2، مادة جفن) ، أما الدكتور أحمد مختار العبادي ، فيرى أنّ المراد بها هنا ، أن يحصل السيد الكمبيادور على ثروات بلنسية ، فيما يحصل المستعين على المدينة ذاتها، أنظر : الاكتفاء ، 89، هامش رقم(3).

[2] ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 98.

[3] Dozy.R. **Le Cid**. pp. 132.133.

[4] Dozy.R. **Le Cid**. pp.134. 135. ، عنان: **دول الطوائف** ، 236 ، 237 رجب عبد الحليم: **العلاقات** 351 ، 352.

لهذا الاتفاق، بدليل عودة السيد إلى بلنسية على رأس سبعة آلاف مقاتل[1].

استطاع السيد الكمبيادور بهذا الجيش الكبير من المرتزقة النصارى، أن يفرض إرادته على دويلات الطوائف في شرق الأندلس، ولجأ لنفس الأسلوب الذي مارسه ألفونس في غرب الأندلس ،بإرهاق هذه الدويلات بالغارات التخريبية والضغط عليها عسكريا من أجل إخضاعها. وفعلا خضع له ابن رزين صاحب السهلة[2] وتعهّد من جديد بأداء الجزية لملك قشتالة، وهي عشرة آلاف دينار في العام كما أخضع ابن لُبّون [3]صاحب مربيطر[4]، وفرض عليه جزية سنوية قدرها ثمانية آلاف دينار.

---

(1) Dozy.R. **Le Cid**. p. 135. ، عنان: **دول الطوائف** ، 237.

يجعل دوزي تاريخ سفارة السيد إلى قشتالة في سنة 482هـ/ 1089، أي بعد الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس وحصار حصن لييط ، معتمدا على الرواية القشتالية. أنظر: Dozy.R. **Le Cid**. pp. 135-137. ولا أظنّ ذلك صحيحا، لأنّ علاقة السيد بألفونس آنذاك كانت متوترة بسبب اتهام السيد بالخيانة لتأخّره عن نصرة سيده في حصن لييط، حيث يذكر كل من ابن أبي زرع و صاحب الحلل الموشية، أنّ حصار المسلمين لهذا الحصن جاء إثر الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس، وذلك في سنة 481هـ/1088م. أنظر: ابن أبي زرع: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس،** دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972م،ص52، مجهول: **الحلل الموشية** ، 66، لكنّ دوزي حاول تجنّب هذا التناقض فجعل تاريخ حصار حصن لييط في سنة 483هـ/ 1090م، مستندا إلى رواية غير دقيقة لابن الأبار في الحلة السيراء. أنظر:

ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 175/2. ولذلك أرجح أن يكون تاريخ هذه السفارة سابق لسنة 1089م/482هـ.

(2) هو أبو مروان عبد الملك بن رزين الملقب بذي الرياستين وبحسام الدولة، حكم شنتبرية الغرب أو سهلة بني رزين بين 436هـ/1046م- 496هـ/1103م، اخترق السيد الكمبيادور أراضي السهلة أثناء عودته من قشتالة وأجبره على دفع الجزية السنوية. أنظر ترجمته في: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 69- 71، **الحلة السيراء**، 109/2-110 **البيان المغرب** ، 309،310/3 ، **أعمال الأعلام**، 205 ، 206 ، ومعظمهم ينقل عن ابن حيان.

(3) هو صيغة التكبير من الاسم لُب، وهو اسم اسباني معرّب من Lobo أي ذئب شبه الجزيرة، وعلى هذا فلُبّون إمّا أن تكون Lobón أو Lupón ، وهي صيغة تكبير أخذتها اللغة الاسبانية عن اللاتينية وطبقها العرب على أسمائهم فقالوا: حمدون، زيدون فرحون...الخ. أنظر: ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 167/2 ،هامش رقم(1).

(4) هو لُبّون بن عبد العزيز بن لُبّون ، وكان من جملة أصحاب القادر يحي بن ذي النون ، استقل بحصن مربيطر من أعمال بلنسية، ولّما أرهقه السيد الكمبيادور، آثر الدخول في حماية ابن رزين صاحب السهلة وسلّمه الحصن.أنظر: ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 167/2، 168.

ثم جاء دور بلنسية التي كانت تواجه الحصار[1]، حيث سارع صاحبها القادر لتقديم الأموال والتحف والهدايا للسيّد الكمبيادور، وأبلغه أنّه يضع نفسه ومملكته تحت حمايته، وتعهّد له بدفع جزية سنوية قدّرها ابن الكردبوس[2] بمائة ألف دينار سنويا[3].

كان لهذا النجاح الكبير الذي أحرزه السيّد في شرق الأندلس أثره السيئ في نفس ألفونس السادس الذي ازداد حَنَقا وغضبًا بسبب تخلّف السيد عن نصرته في فك الحصار عن حصن لييط سنة 481هـــ/1088م، واعتبرها من قبيل الخيانة، فقرّر معاقبة السيّد، وانتزع منه جميع الأراضي والحصون التي منحها له في السابق، وأمر بالقبض على زوجته وأبنائه[4]. وعقد حلفًا مع جمهوريتي جنوة وبيزا لكي يعاوناه بأساطيلهما من البحر على فتح بلنسية وانتزاعها من يد السيّد، الذي كان يعتبر نفسه سيّدها الحقيقي ، غير أنّ تأخّر هذه الأساطيل في الوصول في الوقت المحدّد أحبط هذه الخطة واضطرّ ألفونس لرفع الحصار وعاد مسرعا نحو قشتالة التي كانت تتعرّض أطرافها للتّخريب من جانب قوّات السيّد كتعبير عن غضبه من سياسة الملك القشتالي[5].

وهكذا عاد ألفونس من جديد لسياسة اللّين، وأصدر عفوه عن السيّد وأعاد إليه أملاكه، وسمح له بالعودة إلى قشتالة متى شاء[6].

وفي أثناء ذلك، اشتدّ الاضطراب أكثر في بلنسية، وزاد غضب البلنسيين على ملكهم القادر، و لم يكتُموا خوفهم من أن يُسلّم المدينة للنصارى كما فعل من قبل مع طليطلة. ويبدو أنّ قاضي المدينة

---

[1] بعدما فقد أحمد المستعين صاحب سرقسطة ثقته في السيد الكمبيادور، وتيقّن من أطماعه، فضّ التحالف القائم بينهما وتوجّه إلى كونت برشلونة ريموند برنجير وعرض عليه الأموال الكبيرة ليساعده على غزو بلنسية، وهو ما تمّ فعلا لكن عودة السيد من قشتالة بجيش ضخم (سبعة آلاف مقاتل)، دفع صاحب برشلونة إلى رفع الحصار والعودة إلى بلاده. أنظر: Dozy.R. **Le Cid**. p.136. ، أمّا الأستاذ عنان فيذكر رواية مناقضة دون أن يكشف عن مصادره، مفادها أنّ الطرفين تواجها وكانت الغلبة للسيد الذي أسر برنجير ثم أطلق سراحة لقاء فدية كبيرة ، أنظر: **دول الطوائف** ، 237.

[2] **الاكتفاء** ، 100.

[3] قدّر دوزي قيمة الجزية التي فرضها السيد على بلنسية بنحو عشرة آلاف دينار شهريا معتمدًا على المصادر الاسبانية خاصة المدوّنة العامة Cronica général أنظر: Dozy.R. **Le Cid**. p.137.

[4] Dozy.R. **Le Cid**. p.138.139. ، عنان: **دول الطوائف** ، 239.

[5] ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 99، 100. أنظر أيضا: Piquet. V. Op. Cit. p. 147.

[6] عنان: **دول الطوائف** ، 240.

ابن جحّاف [1] كان يرقب الأوضاع عن كثب ويتحيّن الفرصة لتحريك المعارضة المناوئة للسيّد والوجود القشتالي في بلنسية عموما. واستغلّ وصول الزحف المرابطي إلى مرسية ودانية، واتّصل سرًّا بالقائد المرابطي ابن عائشة يسألُه المساعدة والعون في محاربة القادر وحلفائه القشتاليين، فوافقه ابن عائشة في مطالبه طمعًا في فتح المدينة، و لم يطل الوقت، حتى تمكّن القاضي ابن جحّاف وأنصاره من اقتحام القصر، وفرّ القادر بذخائره يطلب النجاة لنفسه ، لكن سُرعان ما عُثر عليه وقُتل في الثالث والعشرين من رمضان سنة 485هـ/28 أكتوبر 1092م. واستحوذ ابن جحّاف على أموال القادر وذخائره، وتمّ اختياره رئيسا للجماعة يحاكي بذلك القاضي اسماعيل بن عباد في اشبيلية[2].

اعتبر السيّد الكمبيادور هذه الحركة في بلنسية عملا يستهدفه ويعيق مشروعه في تحصيل المدينة لنفسه فعاد مسرعًا من سرقسطة إلى بلنسية، والتقى بأنصار الملك القتيل، ثمّ ضرب الحصار حول المدينة واستولى على ما حولها من المروج والضياع. وعبثا حاول ابن جحّاف المقاومة والتصدّي لهذه الحملات التخريبية دون جدوى، على الرغم من وجود فرقة مرابطية تقدّر بثلاثمائة فارس. واستطاع السيد كعادته خداع القاضي بعد أن أدرك حبه للرئاسة والسلطان، فطلب منه سرًّا طرد المرابطين من المدينة مقابل تركه سيّدًا عليها وتعهد له بالعون والحماية، فجنح للسلم، وتم الاتفاق على خروج المرابطين سالمين، وأن يؤدي ابن جحّاف ثمن ما كان مودعًا بمخازنه من المؤن وقت مقتل القادر، وأن تُؤَدّى له الجزية، وتمّ توقيع هذه الشّروط، فعادت بلنسية من جديد تخضع لإرادة هذا الفارس القشتالي[3].

سرعان ما نقض السيّد وعوده، وأخذ يُضايق المدينة ويطالب أهلها بالأموال، وتشدّد مع ابن

---

[1] هو جعفر بن عبد الله بن عبد الرحمان بن جحّاف المعافري، من أهل بلنسية وقاضيها، تولّى رئاسة المدينة بعد مقتل القادر بن ذي النون، وتعرّض لمحنة السيّد الكمبيادور انتهت بحرقه سنة 488هـ/1095م. أنظر ترجمته والمحنة التي تعرّض لها في: ابن الأبار: **التكملة**، 194/1، والحلة السيراء ، 125/2، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 306/3(الذيل)

البيان المغرب، 38/4،37، ابن بسام: **الذخيرة**، ق3، مج3، 61،60، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**،203–205
Piquet. V. Op. Cit. pp. 154,155. ، Dozy.R. **Le Cid**. pp.152-203.

[2] عاب بعض المؤرخين على القاضي ابن جحّاف سياسة الغلظة وإظهار أبّهة الملك بعد تزعّمه لبلنسية، وتهكّم عليه ابن بسام فقال: ((...لم يعلم أنّ تدبير الأقاليم غير تلقين الخصوم، وأنّ عقد أولوية البنود، غير الترجيح بين العقود وانتحال الشهود ...)). أنظر: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ،60 ، راجع أيضا: ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 32/4 . ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 203.

[3] راجع هذه الأحداث في ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 32/4 ، 33 ، ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 103.
Dozy.R. **Le Cid**. pp.160-178. ، عنان: **دول الطوائف** ، 241 ، 242.

جحّاف في تحصيلها، حتى تحوّل- حسب دوزي- إلى عامل للسيّد يُجبي له الضرائب كما كان حالُ القادر في السابق، ولكي يظمن السيّد ولاء القاضي وخضوعه، طلب منه تسليم ابنه رهينة، لكنّه رفض هذا المطلب، وقرّر إغلاق أبواب المدينة أمام السيّد وجنوده، وأرسل يستغيث بالمرابطين فوعدوه بالنصرة[1]،وبعث بنفس الصريخ إلى المستعين صاحب سرقسطة وإلى ألفونس السادس ملك قشتالة[2].

صوّرت الروايات التاريخية المعاناة التي تعرض لها سكان بلنسية من الحصار الذي فُرض على المدينة مدّة عشرين شهرًا، حتى أكل الناس الجلود والدواب. واستعجل السيّد فتح المدينة قبل وصول المرابطين لنجدتها، وسعى لإرهاب سكانها، ودفعهم لعدم التفكير في مغادرتها ((...فمن فرّ منهم فقئت عيناه ،أو قُطّعت يداه، أو دُقّت ساقاه أو قُتل...))[3]، وهدفه في ذلك منع الفقراء من ترك المدينة حتى لا يتوفر الطعام للأغنياء، فيصبروا على الحصار، ويذكر ابن عذاري كيف هان على الناس الحرق بالنار من شدّة الجوع، وخرج بعضهم من المدينة، فقابلهم الجنود النصارى بالقتل[4].

وألّف ابن علقمة[5] في محنة بلنسية وحصارها كتاباً يُبكي القارئ ويُذهل العاقل حسب أحد المؤرخين [6]، الذي اعتمد على هذا الكتاب في ذكر أخبار بلنسية ومحنتها، ومن المؤسف أنّ هذا المصدر الهام مفقود، و لم يصلنا منه سوى شذورًا تتناثر بين ثنايا بعض المصادر التي أرّخت لهذه الفترة من تاريخ بلنسية وشرق الأندلس [7].

---

[1] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 60.

[2] اقتصرت الرواية العربية على ذكر استنجاد ابن جحّاف بالمرابطين ونستثني من ذلك نصاً لابن عذاري، أشار فيه إلى تباطؤ المستعين في نصرة أهل بلنسية (**البيان المغرب**، 39/4). لكنّ الرواية النصرانية كانت أكثر تفصيلا فهي تضيف إلى ذلك إرسال ابن جحّاف إلى المستعين وألفونس يطلب المساعدة لفك الحصار على بلنسية، فوعداه بتقديم العون دون أن يُقدما على خطوات عملية من أجل ذلك.أنظر:.Dozy.R. **Le Cid**. pp.183-184

[3] ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 33/4.

[4] نفسه ، 39/4.

[5] هو أبو العباس أحمد بن علقمة من سكان بلنسية وشاهد على محْنَتها على يد السيّد، ألّف كتابا في تاريخ هذه المدينة بعنوان: البيان الواضح عن المُلِم الفادح. وعنه ينقل من جاء بعده من المؤرخين كابن عذاري، وابن الأبار وغيرهما.

[6] ابن عذاري: **البيان المغرب**، 305/3 (الذيل).

[7] من بين المصادر التي نقلت أخبار بلنسية ومحنتها من كتاب ابن علقمة ، نجد : ابن الأبار : **الحلة السيراء**، 168/2 (الهامش)، **والتكملة**، 194/1، ، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 3/ 306، (الذيل) ، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 38/4، أما ابن الخطيب، فنقل أخبار هذه الأحداث عن ابن عذاري دون أن يصرح بذلك، أنظر: ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 203 – 205.

صمَدَ أهل بلنسية أمام هذا الحصار المطبق على أمل أن تصل نجدة المرابطين إليهم في الوقت المناسب، واستجاب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين(465-500هـ)/(1073-1109م) لنداء الاستغاثة وأمر قواده ورجاله بالتحرّك واجتمعت هذه الجيوش بشاطبة على رأسها أبو بكر بن إبراهيم اللمتوني ابن أخي يوسف بن تاشفين وأخذت هذه الجموع تتقدّم حتى شارفت مدينة بلنسية. ويذكر ابن عذاري أنّ هذه الجموع كانت عظيمة حتى استبشر بها سكان المدينة وطمعوا في الانتقام من عدوّهم[1]. وهذا يؤكد مقدرة هذا الجيش المرابطي على استنقاذ المدينة لو توفرت لقائدها الإرادة لذلك. لكنّ المفاجأة جاءت بقرار من أبي بكر بن إبراهيم بالعودة إلى مرسية، وترك المدينة تواجه مصيرها[2].

كان لهذا القرار المفاجئ من القائد المرابطي أثره السيئ على سكان بلنسية الذين خاب أملهم في المرابطين، الذين انسحبوا دون تحقيق الهدف الذي جاؤوا من أجله، ودون الاشتباك مع الجنود القشتاليين ، أو فرض الحصار على المدينة. وقد وجه الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين إلى قائد الجيش أبي بكر إبراهيم ، اللوم على انسحابه، وبلغ به الغضب إلى حدّ عزله عن ولايته بعدما تسبّب في ضياع بلنسية من المسلمين[3].

وتحاول المدوّنة العامة الأولى والتي اعتمدت بدورها على رواية ابن علقمة، تبرير موقف القائد المرابطي أبو بكر بن إبراهيم وتفسير سبب انصرافه عن بلنسية بقلّة الأزواد معه وبهطول الأمطار وتدافع السيول، مما جعل مسير الجيوش عسيرًا، فلم يكن له بد من العودة إلى بلنسية لكنه وعد بالعودة إليها لغوثها في القريب[4].

لقد كان شعور السيّد الكمبيادور بنشوة الفرح، وهو يرى المرابطين يتراجعون عن لقائه على هذا النحو الغريب، ويمكن أن نتصور الصدمة والذّهول الذي أصاب البلنسيين وهم يَرَوْنَ أنفسهم يقعون بين يدي جلاّدهم دون نصير[5]. وكان من الطبيعي أن يزداد غضب السيّد وحقده عليهم، وعبّر عن

---

[1] **البيان المغرب**، 33/4.

[2] نفسه ، 33/4.

[3] حسين مؤنس: **السيد القمبيطور** ، 60 ، 61.

[4] نفسه ، 61 (هامش رقم1). مع العلم أنّ هذا النص جاء في كتاب ابن علقمة: البيان الواضح عن الملم الفادح وعنه تنقل المدونة العامة الأولى Premera Cronica général التي تمّ تأليفها بناءًا على طلب من ألفونس العاشر المعروف بالعالم El Sabio ، وقام الأستاذ بيدال Pidal بنشرها عام 1906م.

[5] مؤنس : **السيد القمبيطور**، 61.

ذلك ابن عذاري قائلاً ((...وأقام يُجبي الرعية ويُوجّه المغيرة، ويمنع الدخول إلى المدينة، ويعيث في فلّ الفارّ عنها، ومن تحرّك من قريته أو شُعر بحركته، يستبعِدُ أهلَه وولده، فلم يقدم أحدٌ على التحرّك ولا حدّث نفسه بالتحول...))[1].

لّما بلغ بالناس ما لا يُطيقون، وعمّت المجاعة داخل المدينة[2] وفقد النّاس الأمل في نصرة المرابطين رجعوا إلى قاضيهم ابن جحّاف يطلبون تسليم المدينة وفتح أبوابها أمام السيّد وجنوده، و لم يجد ابن جحّاف مخرجا، وخضع لهذه الضغوط، وترك لبعض أعيان المدينة مهمّة التفاوض مع السيّد حول التسليم، وتمّ الاتفاق على الشروط[3]، وهكذا فتحت أبواب بلنسية ودخلها السيّد على رأس جنوده القشتاليين في جمادى الآخر سنة 487هـــ/يونيو 1094م[4].

وكان قد اشترط على ابن جحّاف أن يُسلّمه جميع ذخائر القادر بن ذي النون ، فأجابه إلى طلبه

---

[1] **البيان المغرب** ، 33/4.

[2] يصف ابن علقمة حال سكان بلنسية في جمادى الأولى وهو الشهر الذي يسبق تسليم المدينة فيقول:
((ودخل جمادى الأولى، وعدمت الأقوات بالجملة، وهلك الناس، و لم يبق من ذلك الجمّ إلاّ نزر يسير، وتوالى اليبس واستحكم الوباء، وبينما الرجل يمشي، سقط ميّتا...))، أمّا في جمادى الآخر وفي يوم تسليم المدينة، فيقول:
((وفي هذا اليوم وصل القمح ثلاثة مثاقيل للرطل، ورطل الشعير مثقالين ونصف، وأوقية الجبن بعشرة دراهم ، وبيضة دجاجة بثمانية دراهم...)). أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب**. 39/4.

[3] أشار صاحب الذيل في البيان المغرب، إلى بعض شروط التسليم، وأهمها تأمين الناس في أنفسهم وأموالهم وأهليهم مقابل فتح المدينة أمام السيّد الكمبيادور. أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب** (الذيل) ، 305/3 ، 306. والظاهر أنّ بقاء ابن جحّاف قاضيا على المدينة بعد تسليمها للنصارى كان من صميم هذه الشروط. أنظر: ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 126/2 ، Dozy.R. **Le Cid**. p. 191.

[4] تختلف الرواية الإسلامية في سنة دخول السيّد بلنسية، فابن بسام يجعلها في 488هـــ (**الذخيرة**، ق3، مج3) وهو ما ذهب إليه صاحب الذيل في **البيان المغرب** ، 306/3، لكنّ ابن الأبار يؤكّد أنّ هذا التاريخ غير صحيح ويذكر أنّ دخول السيّد الكمبيادور بلنسية كان سنة 487هـــ، (**الحلة السيراء**، 126/2،125 ، **التكملة** ، 246/2) ويتقاطع معه في تحديد نفس التاريخ، ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 103، وابن الخطيب: **أعمال الأعلام** 204، وهو التاريخ المرجح لسببين أوّلهما: أنّ ابن علقمة الذي عاصر هذه الفترة وعايش أحداثها، يجعل دخول السيّد للمدينة في سنة 487هـــ، أمّا السبب الثاني فهو توافق الرواية القشتالية مع هذا التاريخ، أي في شهر جوان (يونيو1094).
أنظر:
Dozy.R. **Le Cid**. p. 195.
كما يمكن مراجعة المناقشة التي قام بها عنان لهذا التاريخ في: **دول الطوائف** ، 244 هامش رقم (1).

لكنّه احتفظ على ما يبدو بذخيرة ثمينة كانت سبباً في محنته[1].

وما إن فُتحت المدينة أمام الغزاة المنتصرين، حتى سارع جنود السيّد لاحتلال أبراجها خلافا لشروط الاتفاق، ونزل هو بالقصر الملكي، ثم جمع أشراف المدينة وألقى فيهم خطاباً، وعد فيه بالعدل في حكم المدينة، وأن يخصّص يومين في الأسبوع للاستماع لشكاوي سكانها وظلاماتهم، وأن يرُدّ على الناس حقوقهم، ولا يكلفهم من الضرائب غير الزكاة[2]. وهكذا استطاع بهذا الخطاب كسب ثقة سكان بلنسية واستمالتهم ولو إلى حين.

لم تجد هذه الوعود سبيلا لتطبق في أرض الواقع، وسرعان من احتلّ النصارى معظم دور المدينة وضياعها، ولم يلتفت السيّد لشكاوى الناس وظلاماتهم، بل أغراهم في المقابل بتسليم القاضي ابن جحّاف لينال عقابه على خيانته السابقة وقتله سيّده القادر[3].

كانت نكبة هذا القاضي مروعة، فقد أمر السيّد بالقبض عليه وأفراد أسرته، وعذّبه عذابا شديدًا، ثم أمر بإعدامه حرقا على مرأى من الناس، ثم همّ بإحراق زوجته وبناته، لكن شفاعة بعض أشراف النصارى أنقذتهم من هذا المصير[4].

وتذكر بعض المصادر أنّ انتقام السيّد الكمبيادور شمل أيضا أحد أدباء مدينة بلنسية، وهو أحمد

---

[1] فصّل كل من دوزي وميرندا بشكل دقيق في هذه الأحداث، بالاعتماد على المصادر العربية والقشتالية. أنظر:

Dozy.R. **Le Cid**.. pp.200.201 , Mirada Huici. **El Cadi de Valencia Ibn Ŷahhãf quemado vivo por el Cid**. Revista del instituto Egipcio de estudios Islamicos en Madrid. volumen XI y XII.año.1963-1964 pp .149-166.

[2] Dozy.R. **Le Cid**. p195. ، أنظر أيضا: عنان: **دول الطوائف** ، 244 ، 245.

[3] Dozy.R. **Le Cid**. pp. 198, 199.

[4] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 61 ، ابن عذاري: **البيان المغرب**، 4/ 37 ، 38 ، ابن الأبار: **الحلة السيراء** 126/2 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 204، عنان: **دول الطوائف** ، 245 ، أنظر أيضا

Lucas Hippolyte**. Documents relatifs à l’histoire du Cid** Paris.1860.p.207.

Piquet. V. Op. Cit. pp. 154,155. ، Dozy.R. **Le Cid**. p.203.

بن عبد الولي البتّي[1] فأحرقه بالنار كما فعل مع ابن جحّاف[2]، و لم أوفّق في العثور على نصوص تاريخية في مختلف المصادر التاريخية التي وقفت عليها، لمحاولة التعرّف على الدوافع الحقيقية التي جعلت السيّد يقدم على هذه الجريمة، أو الذنب الذي أخذه على هذا الأديب البلنسي.

يشكّك ابن بسام في قصة العثور على ذخيرة القادر عند ابن جحّاف، التي سبق للسيّد أن استحلّ دمه من أجلها، ويعتبرها ضربًا من حيل السيّد الماكرة ورغبته في الانتقام من ابن جحّاف، فعبّر عن ذلك قائلا: ((...ولعلّها كانت (أي قصة العثور على الذخيرة) من حيلة أدارها، وداهية من دواهيه سدّاها وأنارها...))[3]. كما نلمس موقفا مشابها عند ابن عذاري حينما يُفسّر الدوافع الحقيقية لإحراق السيّد لابن جحّاف بقوله ((...و لم يكن غضب الطاغية (أي السيّد) عليه إلاّ لشدّة صبره على تلك الأزمة (يعني الحصار)، واجتهاده في طلب النّصرة، ودفعه إيّاه بالمطاولة رجاءًا في استمساك البلدة وإبقاء الكلمة...))[4].وهذا يؤكّد أنّ إخفاء ابن جحّاف لبعض الذّخائر، لم يكن في حقيقة الأمر إلاّ ذريعة اعتمد عليها السيّد لتبرير الفتك به وحرقه، ولسان حاله يقول: هذا جزاء من يخرج عن طاعة السيّد أو يفكّر في مقاومته.

وبين السياسة والترهيب، استطاع السيّد الكمبيادور تأسيس مُلكٍ له في بلنسية، بعدما كان فارسًا أجيرًا ينتقل بين الإمارات والممالك يعرضُ خدماته على أصحابها لا يُفرّق بين أمير مسلم أو نصراني.

رُوّعت الأندلس لسقوط بلنسية في أيدي النصارى الاسبان، كما رُوّعت من قبل بسقوط طليطلة وشعر المرابطون بمسؤوليتهم عن ضياع المدينة، وتوالت الصّرخات على أمير المسلمين تحثّه ليُعجّل باسترجاع المدينة[5]، لكن ذلك لم يتحقق إلاّ بعد ثماني سنوات وتحديدًا في سنة 495هـ/1101م[6]

---

[1] ترجمت بعض المصادر لهذا الأديب الشاعر ونَسَبَهُ الضبّي لقرية بتة أي البتّي. أنظر: **بغية الملتمس،** 180، ترجمة رقم(443)، وأظن أنّ الصحيح هو البِنّي، نسبة لقرية بِنّه، ، لأنه لا توجد بالأندلس قرية اسمها **بتة** وإنما قرية **بِنّه** ذكرها ابن سعيد في المغرب حينما ترجم لهذا الأديب ، أنظر: **المغرب،**289/2 ، ترجمة رقم (572) والظاهر أنّ الناسخ وقع في الخطأ لتشابه رسم الكلمتين، ويدعم هذا الموقف أيضا، ترجمة السيوطي حينما يجعله بنيني نسبة إلى قرية بنة أو بنينة. أنظر: **بغية الوعاة في طبقات الغويين والنحاة،** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المطبعة العصرية ، بيروت، 1424هـ/2003م، ج1،ص 332، ترجمة رقم(629).

[2] أنظر: الضبي: **بغية الملتمس،** 180 ترجمة رقم(443) ، السيوطي: **بغية الوعاة** ، 332/1 ترجمة رقم (629).

[3] **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 61.

[4] **البيان المغرب** ، 38/4.

[5] عنان: **دول الطوائف** ، 246.

[6] لتفاصيل أكثر حول استرجاع المرابطين لمدينة بلنسية. أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 62.

= Dozy.R. **Le Cid**. pp. 212,213.

أي بعد وفاة السيّد بنحو عامين وتولّي زوجته (خمينا)مهمّة إدارة المدينة والدّفاع عنها ضدّ هجمات المرابطين[1].

ولئن نجح المرابطون في إعادة بلنسية إلى حكم المسلمين كنوع من التكفير عن تخاذلهم في إنجادها قبل السقوط، فإنهم لم يستطيعوا تحقيق هذا الهدف في طليطلة من قبل. وكان سقوط هذه الحاضرة الكبرى في الأندلس (أي طليطلة) من الدوافع القويّة لاستنجاد ملوك الطوائف بقوّة المرابطين لردّ الزّحف النصراني المتزايد على الأندلس الإسلامية، وتبقى هذه القضية وغيرها من المسائل الغامضة في تاريخ ملوك الطوائف والدّور المرابطي في الأندلس. لذا سأحاول الكشف عن جوانب من هذا الغموض في الفصل التالي.

= هذا وقد رثى الشاعر ابن خفاجة سقوط المدينة في يد النصارى وإحراقها عند خروجهم منها فقال: [الكامل]

عاثت بساحتك العدا يا دار ... ومحا محاسنك البلى والنـــارُ

فإذا تردّد في جنابك ناظـــر ... طال اعتبار فيك واستعبتارُ

أرض تقاذفت الخطوب بأهلها ... وتمخضت بخرابها الأقـــدارُ

كتبت يد الحدثان في عَرَصاتها ... لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديارُ

وردت هذه الأبيات عند: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 62. وهي موجود أيضا عند الحميري: **الروض المعطار** 48. مع بعض الفروق.

(1) Dozy .R . **Le Cid**. p.212.

الفصل الثالث:

العلاقـــات السياسية بين ممالك الطوائف و ممالك
اسبانيـــا بعد 479 هــ/1085م

1- استنجاد ملوك الطوائف بالمرابطين .

2- معركة الزلاقة وآثارها على مواقف ملوك الطوائف.

3- الخلافات بين ملوك الطوائف وتبنّي سياسة الخضوع
لملوك اسبانيـــا.

4- زوال ملوك الطوائـــــف.

العلاقات السياسية بين ممالك الطوائف وممالك اسبانيا بعد 479هـ/1085م:

1- استنجاد ملوك الطوائف بالمرابطين:

كان التركيز في الفصلين الأول والثاني من هذا البحث، على العلاقات السياسية بين أهم الممالك الطائفية في الأندلس والممالك النصرانية في الشمال الاسباني، وبدأتُ بدُول الثغور وحاولتُ إبراز دورها في هذه العلاقات قدر الإمكان، والتحدّيات الكبيرة التي واجهت هذه المناطق في ظلّ الاحتكاك القويّ بين المسلمين والنصارى، والذي أفرز نوعًا من الحراك السياسي والاجتماعي داخل المناطق الثغرية أو الحدودية FRONTERAS بين المسلمين والنصارى. وربّما قلّ تأثير هذه التحدّيات بشكل واضح في الممالك الطائفية الأبعد عن منطقة الحدود مثل إشبيلية وغرناطة.

سمح هذا التقسيم الذي استند إلى أساس جغرافي، بتقديم تحليل أعمق لتطور كل مملكة طائفية وإدراك دوافعها المعلنة أو الخفية للاحتكاك بالقوى النصرانية، ومحاولة ربط علاقات سياسية معها بإرادتها حينًا، وتحت الإكراه والضغوط أحيانًا أخرى. وكان هذا التقسيم عمليًّا، لأنّ كلّ مملكة عاشت أوضاعًا مختلفة رغم مظاهر التشابه التي طبعت بعض دول الطوائف بصفات مشتركة. ولئن كانت هذه النّظرة صالحة في الفترة السابقة لسقوط طليطلة، فإنّها لا تنسحب على الفترة اللاّحقة بسبب التطوّرات الهامّة التي أصابت الأندلس على المستويين الرسمي والشعبي. وأرى من المفيد هنا أن يُنظَرْ لهذه المرحلة نظرة شمولية تستوعب التحوّل الذي طرأ على موقف ملوك الطوائف، الذين قرّروا رفض الوضع القائم، وأخذت حركتهم تتجه نحو تغييره وصورة طليطلة وسقوطها ماثلة في أذهانهم تنذرهم بنفس المصير.

أ- جذور المبادرة: الاتصالات الأولى بالمرابطين:

أثارت مسألة الاستنجاد بالمرابطين جدلاً كبيرًا وخلافًا واسعًا بين المؤرخين المسلمين[1]، ومن الواضح أنّ هذا الخلاف انعكس بشكل صريح في كتاباتهم، ورغم كثرة النصوص التاريخية التي وصلتنا حول هذا الموضوع، فإنّ معظمها يشُوبها الغموض والتناقض، وتفتقر إلى الترتيب والانسجام. فتُحاول بعض الروايات على سبيل المثال، إظهار المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بمظهر البطولة، لأنّه

---

[1] أنظر بعضا من هذه الروايات عند: ابن بلكين: **التبيان** ، 130 ، ابن بسام: **الذخيرة**، ق2، مج2 385 ،386 ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 98/2، المراكشي: **المعجب** ، 116، 117 ، ابن الكردبوس: **الاكتفاء** 89 ، 90 ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 143 ، 144.

بادر باستدعاء المرابطين لإنقاذ الأندلس [1]، وراسل يوسف بن تاشفين يصوّر له سوء الحال، ويلهب حميّته وحماسته. وذهب بعضهم أبعد من ذلك إلى القول، أنّ المعتمد عَبَرَ البحر بنفسه واجتمع بيوسف بن تاشفين يستعجله في العبور لنصرة إخوانه المسلمين[2]، وعلّق على ذلك أحد الباحثين بقوله: وكأنّ يوسف بن تاشفين كان عازفًا عن التدخّل حتى حمله المعتمد على ذلك حَمْلاً[3].كما حاولت هذه الروايات في الوقت ذاته التقليل من شأن أهل المغرب، وأظهرتهم بمظهر الذي يُلَبّي نداء أهل الأندلس ويأتمر بأمرهم[4]. ومن السّهل ملاحظة هذا الميل الواضح نحو المعتمد وملوك الطوائف عمومًا في كتابات المؤرخين المنحدرين من أصل أندلسي، فهم يحاولون أن يرفعوا من شأن الأندلس ويُعلوا ذكرها، على حساب دور المغرب الذي هبّ لإنقاذ الأندلس وعمل على استمرار الحكم الإسلامي بها[5].

صحيح أنّ المعتمد بن عباد كان أشهر ملوك الطوائف وأقواهم، لكنّه لم يكن أوّل من بادر بالاستنجاد بالمرابطين مهما حاولت بعض المصادر التاريخية التسويق لذلك[6].

من الثابت أنّ المراسلات الأولى بين المعتمد ويوسف بن تاشفين، كانت قبل سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس سنة 478هـ/1085م، وبقراءة سريعة لمختلف النصوص التاريخية الموجودة بين أيدينا، يتّضح أنّ أقدم اتصال قام به المعتمد بالمرابطين كان سنة 467هـ/1074م، حسب رواية ابن أبي زرع[7]، التي جاء فيها أنّ المعتمد بن عباد أرسل في هذا التاريخ رسالة إلى يوسف بن تاشفين يستدعيه للجواز إلى الأندلس جهادًا في سبيل الله ونصرة لإخوانه المسلمين، لكنّ الأمير المرابطي اعتذر

---

[1] ابن الأبار : **الحلة السيراء** ، 2/54-55.

[2] المراكشي: **المعجب** ، 116 ، 117 ، المقري: **نفح الطيب** ، 4/246. ومن الصعب الأخذ بهذه الرواية ،فالثابت أنّ المعتمد بن عباد عبر إلى العدوة المغربية ، قبيل الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين ، وليس قبل جوازه الأول، أنظر : ابن بلكين : **التبيان** ، 136.

[3] محمود حسن أحمد: **قيام دولة المرابطين : صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى**، دار الفكر العربي القاهرة، د.ت ، ص 262.

[4] نفسه ، 262.

[5] تشترك بعض الكتابات المشرقية مع بعض كتابات المؤرخين الأندلسيين في النظرة المنحازة لملوك الطوائف، ويبدو أنّ أغلب هذه الكتابات جاءت بعد سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين، حينما اعتاد الناس النظر بعداء للمرابطين. أنظر: ابن الأثير: **الكامل** ، 8/445 ، 446 ، ابن خلكان: **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، تحقيق احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت، ج 5 ، ص28.

[6] ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 142 ، ابن خلدون: **العبر** ، 6/ 247 ، (طبعة دار الفكر).

[7] **روض القرطاس** ، 142.

وأرجأ ذلك لما بعد فتح سبتة وطنجة[1] . لكنّ الغريب في رواية ابن أبي زرع، ذكره رواية أخرى مشابهة جعلها في سنة 475هـ/ 1082م[2]، وأرى التشكيك في الرواية الأولى أجدر وأجدى[3].

تبدو الرواية الثانية أكثر انسجامًا مع سياق الأحداث التاريخية، خاصة أنّ التاريخ الذي ذكره ابن أبي زرع وهو سنة 475هـ يسبق فتح المرابطين لمدينة سبتة بعام واحد[4]، هذه المدينة التي اشترط يوسف بن تاشفين فتحها حتى يتمكّن من العبور إلى الأندلس لنجدة ملوك الطوائف من الخطر النصراني[5]، لكنّنا نجد أنّ المعتمد بن عباد كان حينها لا يزال في تحالف مع ألفونس السادس، وملتزم بإرضائه بالأموال لدفع أطماعه عن مملكته ،فهو إذن يفتقد لمحرّك قوى يدفعه للاستنجاد بالمرابطين ضدّ ألفونس في هذه الفترة ، وفي المقابل نرى أنّ الخطر النصراني الحقيقي آنذاك كان يتّجه نحو مملكة بطليوس التي كانت أطرافها الشمالية عرضة لهجمات قشتالية متكرّرة، وكان من نتائجها سقوط مدينة قورية Coria في يد ألفونس السادس عام 473هـ/1080م وبذلك انفتح الطريق أمامه للسيطرة على باقي القواعد الأخرى، وتبيّن للمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس خطورة الوضع فبادر بالتحرّك وخاطب أمير المرابطين يوسف بن تاشفين يستنجد به[6].

يؤكد صاحب الحلل الموشية أنّ عمر المتوكل بن الأفطس (464-488هـ)/(1072-1095م)، كان أوّل من استنجد بيوسف بن تاشفين، حيث كتب إليه برسالة يستصرخه ويُبيّن له سوء المصير الذي ينتظر المسلمين بالأندلس،ومن حسن الحظّ أنّ صاحب الحلل الموشية قرن نص هذه الرسالة بتاريخ إرسالها[7]، وأوضح أنّ المتوكل أرسلها في سنة 474هـ/1081م، وهي من تحرير الوزير الكاتب أبو

---

(1) ابن أبي زرع : **روض القرطاس** . 142.

(2) نفسه، 143.

(3) كان المعتمد بن عباد في سنة 467هـ/1074م منشغلاً بحرب غرناطة تارة، ومحاربة المأمون بن ذي النون تارة أخرى وكان همّه متجها نحو استعادة قرطبة من يدي ابن ذي النون، وكان لا يزال في حلف مع ألفونس السادس و لم يكن هناك أي خطر خارجي يتهدّده كي يبادر بالاستنجاد بأمير المرابطين في هذا الوقت. وعليه من الصعب القبول بتاريخ 467هـ الذي جاء به ابن أبي زرع.

(4) ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 390 ، ابن خلدون: **العبر** ، 248/6،(طبعة دار الفكر).

(5) ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 143.

(6) سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 37/2.

(7) جاء نص الرسالة كاملاً عند ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 385 ، 387، دون الإشارة إلى تاريخها عكس صاحب الحلل الذي ذكر الرسالة في سياق حديثه عن وصول جماعة من الأندلسيين إلى بلاد المغرب لطلب المساعدة والعون من المرابطين، وذلك في سنة 474هـ. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية**، 33- 36. ملحق رقم1 ،ص166.

عبد الله محمد بن أيمن[1].

ويبدو أنّ يوسف بن تاشفين في أثناء ردّه على رسالة ابن الأفطس قد وعد بالجواز إلى الأندلس وتقديم المساعدة لمواجهة العدو[2].

لم تقتصر صيحات الاستغاثة بالمرابطين على ابن عباد وابن الأفطس، بل كان للأمير الزيري تميم بن بلّكين (465-483هـ)/(1073-1090م) والي مالقة نصيب منها، حيث يؤكّد شقيقه الأمير عبد الله بن بلّكين في مذكراته أنّ تميما هذا، اتصل فعلاً بالمرابطين يستغيث بهم ضدّ أخيه عبد الله[3]. والظّاهر أنّ يوسف بن تاشفين لم يُلق لهذا النداء بالاً، كونه يدخل في إطار الخصومة الشخصية على السلطة، وليس بهدف الجهاد والذبّ عن حمى الإسلام والمسلمين في الأندلس[4] .

يتّضح من خلال ما سبق، أنّ ملك بطليوس المتوكل بن الأفطس سبق ملوك الطوائف الآخرين إلى الاستنجاد بالمرابطين ضدّ الملك النصراني ألفونس السادس، لكنّ أغلب المؤرخين بخسوه حقّه في نيل شرف المبادرة، وخَطَفها منه المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية لأسباب واقعية حينًا ونفسية أحيانًا أخرى[5].

لكن ما يهمّنا من هذا كلّه، هو معرفة ما إذا كانت هذه المبادرات التي قام بها ملوك الطوائف،قد أثّرت بشكل أو بآخر على العلاقات بينهم وبين الملك الاسباني ألفونس السادس؟.

ليس من السهل الحكم على درجة التحول في العلاقات الأندلسية الإسبانية في هذه الفترة التي تسبق سقوط طليطلة، خاصّة بين المعتمد بن عباد وألفونس السادس، ذلك أنّ العديد من المصادر التاريخية تُشير إلى استمرار العلاقات الثنائية بين الملكين إلى غاية قتل المعتمد لابن شاليب سفير ألفونس سنة 478هـ/1085م، وما تلا ذلك من قطيعة بين اشبيلية وقشتالة[6]. ومع ذلك يَصعُب

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن أيمن ذو الوزارتين ، استوزره المتوكل بن الأفطس ، أنظر ترجمته عند: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 385 ، ابن سعيد: **المغرب** ، 286/1 ترجمة رقم (258).

(2) مجهول: **الحلل الموشية** ، 36.

(3) **التبيان**: 130 ، عنان: **دول الطوائف** ، 145 ، سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 52/2.

(4) ابن بلكين: **التبيان** ، 130.

(5) أنظر: على سبيل المثال لا الحصر: المراكشي: **المعجب** ، 116 ، 117 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 159. الحميري: **الروض المعطار** ، 84 ، 85 ، ابن الأثير: **الكامل** ، 446/8 .

(6) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام**، 159. الحميري: **الروض المعطار** ، 84 ، المقري: **نفح الطيب**، 246/4، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** ، 28/5.

إهمال هذه الاعتبارات الجديدة التي طرأت على الساحة الأندلسية والتنامي السريع لقوة المرابطين ونفوذهم، وأنّ المعتمد بن عباد أصبح يشعر بهذا الدعم المعنوي القوي من جهة الجنوب، الذي يمكن الاعتماد عليه في وقت الحاجة، وهذا ما دفعه لاتخاذ قرارات جريئة أثّرت بشكل واضح على علاقاته بألفونس، وجعلته يكتسب شهرة نتيجة استنجاده بالمرابطين[1].

أما في مملكة بطليوس، فتبدو الصورة أوضح وأقل تعقيدًا، والخطاب الذي ردّ به ابن الأفطس على رسالة التهديد والوعيد التي بعث بها ألفونس، تُشير إلى التحوّل العميق في العلاقات السياسية بين بطليوس وقشتالة، حيث يُؤكّد صاحب الحلل الموشية أنّ المتوكل بن الأفطس وصلته رسالة من ألفونس السادس يهدّده فيها ويطلب منه تسليم بعض القلاع والحصون،ويتوعّده بشرّ العواقب إذا رفض، ومع ذلك أبى أن يستجيب إلى الوعيد، وردّ على ملك قشتالة برسالة قوية وحازمة تفيض شجاعة وإباء[2].

لم يُحدّد صاحب كتاب الحلل الموشية تاريخًا دقيقًا لهذه الرسالة التي ردّ من خلالها ابن الأفطس على ادعاءات ألفونس وفنّدها[3]، ومع ذلك يُفهم من سياقها أنّها سبقت سقوط طليطلة ببضع سنوات[4] فلا نجد أيّة إشارة في الرسالة إلى سقوط هذه المدينة في يد النصارى. وهذا ما ذهبت إليه سحر عبد العزيز سالم[5]. ويحق لي والحالة هذه أن أتساءل عن سرّ النبرة الجديدة التي ملأ بها ابن الأفطس رسالته، وهي نبرة لا تخلو من النديّة والكبرياء، فهل هي الشجاعة وحسب؟ أم هناك أسباب موضوعية وراء ذلك. ولماذا أحجم ألفونس السادس عن اتخاذ موقف حازم ضدّ ملك بطليوس، وكان قادرًا على معاقبته واحتلال بلاده، خصوصًا بعد تحدّيه الصّريح له في رسالته ورفض الخضوع

---

[1] يذكر الحميري في هذا الصدد قوله: ((...وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على إجازة المرابطين الصحراويين والاستظهار بهم على ابن فرذلند فاستبشر الناس...)). أنظر: **الروض المعطار**، 85 (مادة الزلاقة).

[2] راجع النص الكامل لهذه الرسالة في: مجهول: **الحلل الموشية**، 36-37. أنظر أيضا:عنان: **دول الطوائف**، 90.

[3] مجهول: **الحلل الموشية** ، 36-37.

[4] يذكر صاحب الحلل الموشية قوله: ((...وقد كان المتوكل على الله ابن الأفطس، وَصَله كتاب من عند عدو الإسلام (يعني ألفونس السادس)، المواجه إلى بلاده، ومن الجواب يُفهم مقصده...))، أنظر : مجهول : **الحلل الموشية** ، 36، ويُفهم من كلامه هذا أنّ رسالة ألفونس إلى ابن الأفطس جاءت قبل مراسلة هذا الأخير للمرابطين. وعلى إثر هذه الرسالة، بعث ابن الأفطس بصريخه إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ومعنى ذلك أنّ تاريخ هذه الرسالة يمكن أن يكون في سنة 474هــ/1081م أو يسبقها بقليل.

[5] **تاريخ بطليوس**: 39/2.

لإرادته؟.

إنّ الإجابة عن التساؤل الأوّل تقتضي منّا أن نأخذ في الحسبان، الوعد الذي قدّمه يوسف بن تاشفين في ردّه على رسالة الاستنجاد التي بعث بها ابن الأفطس[1]، ولا شكّ أنّ هذا الوعد قد رفع معنويات ملك بطليوس، وجعله يُعوّل على المساعدة المرابطية ، وتجرّأ وردّ على رسالة ألفونس بمثل ذلك الحزم، ولا غرابة أن يتكرّر نفس المشهد مع المعتمد بن عباد بعد ذلك[2].

أمّا الجواب عن التساؤل الثاني، فيتطلّب الوقوف قليلاً عند الأوضاع الداخلية لمملكة طليطلة آنذاك والتي كانت مضطربة إلى حدّ أطمع فيها ألفونس السادس، وقد فصّلت في هذه المسألة بشيء من التعمّق في الفصل الأول من هذا البحث[3]، والخلاصة أنّ ألفونس كان يسعى للحصول على طليطلة بكلّ الوسائل والأساليب وبذل في سبيلها جهدًا كبيرًا ووقتًا طويلاً حتى تمكّن في نهاية المطاف من دخولها سنة 478هـ/1081م، بعد حصار لها دام سبع سنين[4].

---

(1) مجهول: **الحلل الموشية** ، 36.

(2) ردّ المعتمد بن عباد ردًّا يماثل رد المتوكل بن الأفطس على ألفونس السادس إن لم يكن أشدّ وأنكى، وكان ذلك بعد سقوط طليطلة. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية**، 39- 41 ، وراجع أيضا: سالم سحر: **تاريخ بطليوس**، 36/2.

(3) راجع المبحث الثالث من الفصل الأول.ص40-46.

(4) لتفاصيل أوفى حول سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس، راجع: ابن بلكين: **التبيان** ، 98 ، 99 .

ابن بسام: **الذخيرة** ، ق4 ، مج4 ، 94-103 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 179-182، ابن الكر دبوس: **الاكتفاء** ، 80-85، المقري: **نفح الطيب** ، 447/4 ، عنان: **دول الطوائف** ، 106-115.

Buresi. P. La Frontière entre Chrétienté et Islam dans la péninsule Ibérique. Editions publibook. Paris. 2004. p. 37.

ب- انعكاسات سقوط طليطلة على علاقات ملوك الطوائف بألفونس السادس:

لا شكّ أنّ سقوط طليطلة في قبضة ألفونس السادس، قد غيّر طبيعة العلاقات بين قشتالة ودول الطوائف، وتغيّرت معها نظرة ألفونس وسياسته نحو ملوك وأمراء الأندلس. ويظهر هذا التحوّل في الانتقال من أسلوب يقوم على فرض ضغوط عسكرية ودبلوماسية بغرض الحصول على أموال الجزية إلى أسلوب جديد يعتمد على فكرة الاحتلال العام للأندلس[1]، ومن السّهل ملاحظة هذا التحول من خلال السياسة التعسفية التي تبنّاها ألفونس في طليطلة، حيث سارع لاتخاذها عاصمة جديدة له وحوّل مسجدها الجامع إلى كتدرائية وهو ما تسبّب في إثارة غضب المسلمين في جميع أنحاء الأندلس[2].

ومن المهم هنا أن نُشير إلى معارضة المستعربين[3] (Mozarabes) أيضا لهذه السياسة الجديدة منذ البداية ، يتقدّمهم المستعرب ششنند (سيسناندو دافيديث) Sisnando Davidez، وهو من مستشاري الملك ألفونس، عيّنه حاكمًا على طليطلة، حيث نصحه بالاعتماد على ملوك الطوائف لفرض حكمه على الأندلس، وقال له: ((...اخفض جناحك لأهلها، واستجلب جاليتها بما تمدّ من ظلّها، ولا تلحّ على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم، ولا تجدُ عمّالاً أطوع منهم، فانّك إن أبيت إلاّ الإلحاح عليهم، والتسرّع بالمكروه إليهم، نفّرهم عن ذراك وأحوجهم إلى مداخلة سواك...))[4].

ويتّضح من كلام سسناندو وتحليله السليم للواقع، مدى إدراكه العميق للأوضاع السياسية العامة في الأندلس، وهو ما دفعه ليُشير على ملِكِه بانتهاج سياسة مرنة لا تؤثّر بطريقة عنيفة على توازن القوى بالأندلس، لأنّ اختلال هذا التوازن من شأنه أن يؤدّي إلى تدخّل خارجي من بلاد المغرب

---

[1] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 250.

[2] ذكر ابن بسام في شأن تحويل جامع طليطلة إلى كنيسة فقال ((...حدّثني من شَهِد طواغيته تبْتدره، في يوم أعمى البصائر والأبصار منظرُه، وليس فيه إلاّ الشيخ الأستاذ المُغامي آخر من صدر عنه، واعتمده في ذلك اليوم ليتزوّد منه وقد أطاف به مردةُ عفاريته، وسَرَعانُ طواغيته وبين يديه أحد التلامذة يقرأ، فكلّما قالوا له عجّل، أشار إلى تلميذه بأن أكمل، ثم قام ما طاش ولا هَيّبَ، فسجد به واقترب وبكى عليه وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه، ويهابون مكانه...)). أنظر: **الذخيرة** ، ق4 ، مج4، 104.

[3] تأثّر المستعربون باللغة العربية وبالحضارة الاسلامية عموما، وكان تعايشهم مع المسلمين يؤثر تأثيرًا عميقاً في مزاجهم وأسلوب حياتهم، وقابلوا تسامح المسلمين نحوهم بالمثل، فلم يتّخذوا موقفًا متطرّفًا ومتعسّفًا من المسلمين. أنظر: ابن عبود: **التاريخ السياسي** 253 ، عبادة: **تاريخ النصارى** ، 246.

[4] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق4 ، مج4، 103.

يمسّ بمصالح قشتالة وينال منها، وهو ما حدث فعلاً بعد ذلك[1].

لم يُلقِ ألفونس بالاً لهذه النصائح، وفضّل تبنّي سياسةً أكثر تعسّفًا نحو ملوك الطوائف خصوصًا بعدما ذاق حلاوة الانتصار في طليطلة[2]، فأعلن عن رغبته في احتلال باقي مدن الأندلس، ونقل لنا كل من ابن بسام وابن الخطيب نصوصًا تشيرُ إلى هذه السياسة الجديدة[3]. لكنّ الملاحظ هنا أنّ ملوك الطوائف لم يُدركوا حقيقة هذا التحول في سياسة ألفونس، فسارعوا لتقديم التهاني له بمناسبة احتلال طليطلة، وقدّموا الهدايا على أمل أن يُبقي الملك النصراني عليهم عمّالا يُجبون له الأموال. لكنّ ألفونس عبّر على لسان رسوله لابن عباد، عن رفضه الاستمرار في سياسة الجزية مقابل السلام[4] ورغم ذلك ، يبدو أنّ رسالته لملوك الطوائف لم تُستوعب جيدًا، واستمرّ بعض الأندلسيين يراهنون عليه مدّة من الزمن[5].

حاول ملوك الطوائف أن يجدوا لأنفسهم مخرجًا من هذه الأزمة التي وضعهم فيها ألفونس السادس وسياسته ، وتعاملوا بازدواجية مع هذا الوضع الجديد، من خلال الضغط على الملك النصراني وتهديده بالمرابطين، في محاولة يائسة لدفعه كي يقبل بالجزية مقابل الإبقاء عليهم[6] ، ولمّا لم يُجْدِ هذا

---

(1) ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 253 ، 254.

(2) عبّر ابن الكردبوس عن السياسة الجديدة لألفونس بقوله: ((...وانتحى ألفنش انتحاء الجبابرة، وأنزل نفسه منازل القياصرة، وداخله من الإعجاب ما احتقر به كلّ ماشٍ على تراب، وتسمّى بالإنبراطور (يعنى الإمبراطور) وهو بلغتهم أمير المؤمنين...)). أنظر: **الاكتفاء**، 89.

(3) بعد احتلال طليطلة، أشارت الحاشية على ألفونس بلبس التاج، فرفض وأرجأ ذلك إلى ما بعد أخذ قرطبة. أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق4 ، مج4، 104، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 244.

(4) أقسم ألفونس لرُسل ملوك الطوائف ((... أنّه لا يترك في الجزيرة من الثوار أحدًا، ولا يُبقي لهم ملتحدًا سوى من اكتنفته رعايتي ، وشملته عنايتي...)). وصرّح رسوله للمعتمد بن عباد فقال له: ((...كيف أترك قومًا مجّانين (كثيرو المجون) تسمّى كلّ واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسلّ في الذّب عن نفسه سيفًا، ولا يرفع عن رعيته ضيمًا ولا حيفًا...)). أنظر: ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 89.

(5) حينما شاور المعتمد بن عباد خاصته ووجوه دولته في شأن استدعاء المرابطين، أشاروا عليه بمداراة ألفونس وإجابته إلى ما يطلب من شروط، أفضل من الاستنجاد بالمرابطين. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 44 ، سالم عبد العزيز السيّد: **تاريخ المغرب الكبير** ((**العصر الاسلامي**))، دار النهضة العربية ، بيروت، 1981، ج2، ص720.

(6) صرّح المعتمد بن عباد في ردّه على رسالة الاستهزاء التي بعث بها ألفونس، بهذا التهديد فقال: ((سأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية (يعني المرابطين) تروِّح منك لا تروِّح عليك إن شاء الله...)). أنظر: الحميري: **الروض المعطار** ، 85 ، وساق ابن الكردبوس عبارة تفيد معنى التهديد. أنظر: **الاكتفاء** ، 91.

الأسلوب نفعًا – بدليل رسالة التحدّي التي بعث بها ألفونس إلى يوسف بن تاشفين[1]– جمعوا أمرهم وقرّروا الاستنجاد بالمرابطين. ويؤكّد ابن الكردبوس في هذا الصدد على مسألة مهمة، تتعلّق بخيبة الأمل التي أصابت ملوك الطوائف ، ساقها لنا في عبارات دقيقة، ومنها قوله: ((...ولمّا تيقّن كلّ من ثار ورأس، ولاسيما رؤساء غرب الأندلس، كابن عباد وابن الأفطس، مذهب ألفنش فيهم، وأنّه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية، رأوا أنّ الرّجوع إلى الحقّ أحق، فاستصرخوا بالمرابطين واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين...))[2].

وهذا يعني أنّ الاستنجاد بالمرابطين لم يكن عن طواعية واختيار من هؤلاء الملوك والأمراء ، بل كان اضطرارًا من أجل الحفاظ على عروشهم من الزوال.

توالت السفارات بين ملوك الطوائف والمرابطين، وتمكّن المعتمد بن عباد من تزعُّم حركة الاستنجاد بالمرابطين بسرعة، حيث كلّف وزيره ابن القصيرة[3] بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف الآخرين لإقناعهم بضرورة استدعاء المرابطين والاستعانة بهم لصدّ العدوان النصراني، ويبدو أنّ هذا الوزير قد أبلى بلاءً حسنًا في مساعيه، فجعله المعتمد بن عباد سفيره إلى يوسف بن تاشفين[4].

قطع المعتمد تردّده بهذه الخطوة على عكس الملوك والأمراء الآخرين الذين طال تردّدهم نحو هذه المسألة، وعبّر أكثرهم عن توجّسه من المرابطين، ورأوا في استدعائهم مقدمة لزوال عروشهم، و لم يكن هذا الأمر غائبا عن بال المعتمد، فقد حدث أنّ نبّه ابنه الرشيد إلى الخطر الذي ينتظرهم باستدعاء المرابطين، فأجابه المعتمد بقولته المشهورة: ((...والله لا يُسمع عني أبدًا أنّي أعدت الأندلس دار كفر، ولا تركتُها للنصارى، فتقوم عليّ اللّعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري، حرز الجمال والله عندي، خير من حرز الخنازير...))[5].

---

[1] مجهول: **الحلل الموشية** ، 42 ، 43.

[2] **الاكتفاء** ، 89 ، 90.

[3] هو أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة. أنظر ترجمته في ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 148.

[4] ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 148.

[5] مجهول: **الحلل الموشية**، 44، 45 ، ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، 245، دوزي: **المسلمون في الأندلس** 130/3. أنظر أيضا:

Chapman. E. C. A History of Spain , the free press**.** New York. P. 69. Piquet .V. Op.Cit. p.84. , Gayangos. P. Op. Cit. p.273**.**

ولّما استقرّ رأي ابن عباد على الاستعانة بالمرابطين وراسل ملوك الطوائف، استجاب المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وعبد الله بن بلكين صاحب غرناطة لدعوته، وحرّكا قاضييهما للاجتماع بقاضي الجماعة بقرطبة، فوصل من بطليوس قاضيها أبو إسحاق بن مقانا، ومن غرناطة قاضيها القليعي واجتمعا في اشبيلية بالقاضي أبي بكر بن أدهم ، وانضاف إليهم الوزير أبو بكر بن زيدون وتوجّهوا جميعًا إلى العدوة المغربية لمقابلة يوسف بن تاشفين[1].

كانت هذه السفارة أول اتصال رسمي بين ملوك الطوائف والمرابطين، وهي تؤكّد درجة التحوّل في لغة الخطاب التي استخدمها ابن عباد في رسائله إلى المرابطين، حيث غلبت عليها عبارات دينية لم يعتد على استخدامها من قبل[2]، لذلك لا نستغرب أن يجعل على رأس هذه السفارة جماعة من الفقهاء القضاة بدل وزرائه الشعراء كما اعتاد أن يفعل سابقا، ويبدو أنّ الهدف من ذلك، هو إرضاء الفقهاء والعلماء في الأندلس ومن ورائهم الرّأي العام الأندلسي حتى يظفر بالتّأييد الشعبي استعدادًا للمعركة الفاصلة ضدّ النصارى، وحتى يُظهر نفسه أمام المرابطين بمظهر من يبجّل العلماء، وقد علِم مكانة هؤلاء في دولة المرابطين.

مُنح هذا الوفد، التفويض للتحدّث باسم ملوك الطوائف، ويُفهم من عبارة ابن الأبار ((...وتوجهوا جميعًا إلى يوسف بن تاشفين، على شروط لا تُتعدّى إلى غيرها...))[3]، أنّ هذا التفويض لم يكن مطلقًا، ومع ذلك طلب الوفد الأندلسي من أمير المسلمين أن يتأهّب للجهاد، لكنّ يوسف بن تاشفين اشترط في المقابل أن يتنازل له ابن عباد عن الجزيرة الخضراء نزولاً عند نصيحة كاتبه عبد الرحمان بن أسباط[4].

---

[1] ابن الأبار: **الحلة السيراء** ، 99/2.

[2] استخدم المعتمد بن عباد في رسائله إلى المرابطين الكثير من الآيات القرآنية التي تدعوا إلى الجهاد وتحثّ عليه. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 46 ، 47 ، 48.

[3] **الحلة السيراء** ، 99/2.

[4] كان عبد الرحمان بن أسباط من كُتّاب يوسف بن تاشفين، وهو أندلسي من مدينة المرية، نصح يوسف بن تاشفين أن يشترط على المعتمد بن عباد التنازل عن الجزيرة الخضراء قبل أن يشرع في العبور إلى الأندلس وقال له: ((...فاكتب إليه (يعني المعتمد) أنك لا يمكنك الجواز إليه إلاّ أن يعطيك الجزيرة الخضراء، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت، فقال له: (يعني يوسف بن تاشفين)، صدقت يا عبد الرحمان، لقد نبّهتني لشيء لم يخطر ببالي ...)). وهذا يبين معرفة ابن أسباط الواسعة بجغرافية الأندلس، وبالأهمية الاستراتيجية للجزيرة الخضراء. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 49 ، 50.

واستنادًا إلى بعض النصوص التاريخية، يتّضح أنّ الشعور بالتوجّس والرّيبة كان مشتركًا بين ملوك الطوائف والمرابطين،وكلّ ينظر في كشف نوايا الطرف الآخر عبر فرض الشروط، حيث يذكر الأمير الزيري عبد الله بن بلكين أنّ رسله ورسل ابن عباد اتفقوا مع أمير المسلمين على التعاون لصدّ الأعداء النصارى، وألاّ يحاول الاستيلاء على أملاك الأمراء الأندلسيين، وألاّ يقبل شكاوى الرعية ضدّهم[1] وفي المقابل تخوّف يوسف بن تاشفين من مماطلة المعتمد بن عباد في تسليم الجزيرة الخضراء [2]، وظنّ أنّه يسعى لكسب مزيد من الوقت لإبرام اتفاق جديد مع ألفونس على حساب المرابطين، فقرّر أن يُفوّت عليه الفرصة وبعث عساكره إلى بلاد العدوة الأندلسية، وفرض سيطرته على الجزيرة الخضراء، حتى يؤمّن لجيشه العبور إلى الأندلس، فلا يكون تحت رحمة المعتمد بن عباد[3]. وهكذا بدأت الاستعدادات للمعركة الفاصلة بين المسلمين والنصارى في الأندلس.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 131.

[2] أنظر نص الرسالة التي بعث بها يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد يطلب فيها تسليمه الجزيرة الخضراء كشرط لجوازه إلى الأندلس، مجهول : **الحلل الموشية** ، 50،51. وقد أوردت نص الرسالة كاملا في الملحق رقم06 ، ص171 من هذه الرسالة.

[3] يذكر عبد الله الزيري أنّ رُسل المعتمد بن عباد حينما وردت على يوسف بن تاشفين، وعدته بإخلاء الجزيرة الخضراء، وطلب منه المعتمد بن عباد البقاء بمدينة سبتة ثلاثين يوما ريثما يُخلي له الجزيرة. فأجابه إلى ذلك، لكنّ بعضهم نصحوا يوسف، وقالوا له: ((لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلاّ لأنّه يريد أن يرسل إلى ألفونس يُعْلمه بقدومك ولعلّه يتأتّى له منه ما يرغب، ويهدّده بك، ويسألُه أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعوامًا، فإن فعل، استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز فاسبقه إليها !، وإن كان النصراني لا يتأتّى له، أرسل إليك في الجواز)). أنظر: **التبيان** ، 130 ، 131. وهذا يُؤكّد مسألة هامة تتعلق بغياب الثقة بين المرابطين وملوك الطوائف، ممّا يُفسّر لنا تأخر يوسف بن تاشفين في الاستجابة لنداء الأندلسيين حتى يتيقّن من صدق نواياهم في محاربة الأعداء، وأمّن طريق العبور إلى الأندلس.

2- معركة الزلاقة وآثارها على مواقف ملوك الطوائف :

أ- جواز المرابطين وآثارُه الأولية:

بعدما تأكّد يوسف بن تاشفين من صدق نوايا ملوك الطوائف، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد ورأى أنّ الظروف أصبحت مناسبة، أمر جيوشه بالعبور إلى الأندلس، فنزلت أعداد كبيرة منها بالجزيرة الخضراء في منتصف ربيع الأول عام 479هـ/30 يونيو 1086م[1]، ولا نعلم على وجه الدّقّة الأعداد الحقيقية للمرابطين الذين عبروا المجاز، في ظلّ الاختلافات الموجودة بين المصادر التاريخية[2].

سارع يوسف بن تاشفين لتحصين المدينة وإصلاح أسوارها، قبل أن تمضي حشوده باتجاه اشبيلية [3] ، وقد انتشرت في الأندلس أنباء عبوره بشكل سريع، وكان لهذا الحدث تأثير هام على ملوك الطوائف، وعلى ألفونس على حدٍّ سواء. ذلك أنّ عبور المرابطين إلى الأندلس تزامن مع حصار ألفونس السادس لمدينة سرقسطة لعدّة أشهر، وهو مصمّم على أخذها كما فعل مع طليطلة، وعبثًا حاول صاحبها أحمد المستعين إغراء الملك النصراني بالأموال ودفع الجزية، وهو يظنّ أنّ هذا الأسلوب لا يزال يُجدي نفعا معه، لكنّه سرعان ما اكتشف مدى التحوّل الكبير في أهداف الملك ألفونس الذي رفض الأموال المقدّمة، وأصرّ على أخذ المدينة بما فيها من الأموال، وحاول إضعاف روح المقاومة بين أهالي سرقسطة وأشاع أنّه في حالة سقوط المدينة المحاصرة في يده، سوف يسير بين سكانها بالعدل ولا يُلزمهم من الضرائب إلاّ ما جاءت به شريعة المسلمين[4].

استمرّ حصار ألفونس لسرقسطة حتى وصلته الأنباء بقدوم المرابطين، فاختلطت حساباته وأدرك عدم جدوى الحصار، فقرّر أن يخدع المستعين، حيث أرسل إليه يُعلمه أنّه يقبل بالأموال التي عُرضت عليه في السّابق مقابل رفع الحصار، وهو يظنّ أنّ عدوّه يجهل خبر جواز المرابطين إلى الأندلس، لكنّ

---

[1] ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 145.

[2] يجعل ابن الكردبوس أعداد المرابطين الذين جازوا برفقة يوسف اثني عشر ألف مقاتل (**الاكتفاء** ، 90) .

أمّا ابن خلكان فيذكر أنّ أعدادهم بلغت عشرة آلاف (**وفيات الأعيان**، 29/5).

[3] مجهول: **الحلل الموشية** ، 51 ، أنظر أيضا: سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 55/2.

[4] يذكر ابن الكردبوس أنّ ألفونس وعد أهل سرقسطة بمعاملة حسنة، ((وجعل لكلّ من دان له من الإسلام البِرَّ والرّعاية، وأخْذِ نفسه بالعدل فيهم والأمان ، والرّفق في السرِّ والإعلان ووعدهم ألاّ يلزمهم غير ما توجبُه السُّنة الإسلامية، وأنّه يحملهم في سائر ذلك على الحرية، وقد كان تحقّق أنّه فرّق على ضعفاء أهل طليطلة مائة ألف دينار ليستعينوا بها على الزراعة والاعتمار، فاستدلّ أهل سرقسطة على صدق مقاله وتحقّق فعاله)). أنظر: **الاكتفاء** ، 91.

أمله خاب بعدما رفض المستعين أن يدفع له درهمًا واحدًا خشية أن يتقوّى به ، وقد اطمأنّ جانبه بدخول المرابطين[1].

وعندها، اضطرّ ألفونس إلى رفع الحصار عن سرقسطة، وقفل عائدًا إلى طليطلة استعدادًا لمواجهة المرابطين، وبعث إلى سانشو راميرث Sancho Ramirez التي تعرّفه الرواية الإسلامية بابن ردمير ملك أراغون(435-487)/ (1043- 1094م) وإلى قائده البرهانس Alvar Hanez، وكان راميرث يحاصر مدينة طرطوشة، أمّا البرهانس فكان يحاصر بلنسية، فأتياه بجيوشهما، فلحقوا به. ويذكر ابن أبي زرع أنّ ألفونس بعث أيضًا إلى بلاد قشتالة وجليقية وبنبلونة فأتاه من تلك البلاد من حشود الروم أمم لا تحصى[2]، ولما اجتمعت لديه هذه الجيوش، أمرها بالتحرّك للقاء المسلمين[3].

والظّاهر أنّ ألفونس كان متخوّفًا من مواجهة المرابطين، وهو الذي لم يألف حربهم، ولا عرف طريقة قتالهم، أمّا الأندلسيون، فكانوا أحقر في عينه من أن يعبأ بهم ،حسب قول أحد المؤرخين[4] ويُتَرجَم هذا التخوّف، في استعدادات ألفونس الكبيرة لهذه المعركة، وتكاد تُجمع المصادر على بذل هذا الملك أقصى جهوده في استنهاض كل ما كان يقدر على حمل السلاح من النصارى، رغبة في تحقيق التفوق العددي على المسلمين، ولتخويف المرابطين بكثرة جنوده ، وبالفعل نجح إلى حدٍّ ما في خطّته، فقد اندهش يوسف بن تاشفين من أعداد النصارى عند اللقاء، وقال: ما كنت أظنّ هذا الخنزير (يعني ألفونس) يبلغ هذا الحد![5] .

وهناك مسألة هامة ينبغي التّأكيد عليها، وهي أنّ هذه المعركة اتخذت بُعدًا دينيا وطابعًا صليبيا واضحًا منذ الاستعدادات الأولى لها، فقد توافدت على اسبانيا أعداد هامة من النصارى فيما وراء جبال البرنية (البرانس)، وتقاطر عليها سيل من الفرسان المتطوعة من جنود فرنسا وايطاليا[6]، بمباركة من الكنيسة الكاثوليكية، خاصة بعد اعتراف الملك ألفونس السادس بسلطتها الروحية على اسبانيا[7] ويؤكّد الحميري على الدور البارز الذي قام به رجال الدين النصارى في إثارة الحماسة الدينية في

---

(1) ابن الكردبوس: **الاكتفاء**، 92.

(2) **روض القرطاس** ، 145 ، 146.

(3) نفسه ، 146.

(4) المراكشي: **المعجب** ، 118.

(5) نفسه ، 119.

(6) عنان: **دول الطوائف** ، 322.

(7) تخلّى ألفونس السادس سنة 473هـ/1080م، عن المذهب الاسباني، الذي كانت تقوده كنيسة المستعربين وتعزّز جانب الرهبان الكْلُونِيين وأصلهم من فرنسا، الذين ساندوا ألفونس في سياسته التعسّفية ضدّ الأندلسيين، وكان =

جنود ألفونس، بقوله: ((ولما تحقّق ابن فرذِلند (يعني ألفونس السادس) جواز يوسف، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءَها، ورفع القسِّيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصى عدده...))[1]. ويأتي التأكيد أيضا على هذه الفكرة من رواية أخرى لابن الكردبوس[2] هذه المرة، يذكر فيها إقبال أعداد كبيرة من النصارى من أقصى الرومية[3]، كما يُقر دوزي أيضا بمشاركة أعداد هامة من الجنود الفرنسيين في هذه المعركة[4] ولعلّ هذه الدّلائل تكون كافية لإثبات الأبعاد الدينية الصليبية لمعركة الزلاقة.

حاول يوسف بن تاشفين مواجهة هذا التحالف النصراني، برصّ صفوف ملوك الطوائف وتوحيدهم تحت قيادته، وأرسل عند وصوله إلى اشبيلية يخاطب رؤساء الأندلس ويأمرهم باللّحاق به فاستجاب الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ،وأرسل المعتصم بن صُمادح ابنه معتذرًا بضعفه وكبر سنّه[5]، أمّا المتوكل بن الأفطس فبقي متربّصًا بمدينة بطليوس ينتظر وصول المرابطين ومن انضاف إليهم من الأندلسيين كي ينضمّ إليهم ومن معه من الجنود[6]، وسارت هذه القوات المشتركة نحو مدينة بطليوس وما إن اقتربت منها، حتى خرج إليهم صاحبها المتوكل بن الأفطس على ثلاثة مراحل من المدينة، واحتفل لهم بالتضييف. أمّا ألفونس السادس فبادر بالتحرّك لملاقاة المسلمين[7].

ويبدو أنّ يوسف بن تاشفين كان متخوّفًا من نتائج المعركة، وفضّل أن تجري وقائعها قرب مدينة

= من نتائجها انضواء اسبانيا تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية، مقابل دعم هذه الأخيرة له في حرب الاسترداد، راجع: ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 254.

(1) **الروض المعطار** ، 88.

(2) **الاكتفاء** ، 92.

(3) لعلّ ابن الكردبوس يقصد بذلك ايطاليا الحالية.

(4) دوزي: **ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام**، ترجمة كامل كيلاني ،ط1، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1351هـ/1933م ،ص296.

(5) يشكّك الأمير عبد الله بن بلكين في الأعذار التي قدّمها المعتصم بن صمادح ليبرّر تخلّفه عن اللّحاق بيوسف بن تاشفين وجيوش الأندلس، ويرى أنّ المعتصم فضّل التريث والانتظار إلى ما بعد المعركة ليقرّر إلى أيّ طرف يميل. أنظر: **التبيان** ، 132.

(6) نفسه ، 132.

(7) مجهول: **الحلل الموشية** ، 53.

بطليوس، حتى إذا لحقت به الهزيمة، استطاع الاحتماء داخل أسوار المدينة[1]، لكنّ ألفونس أدرك هذه الخطّة، وبعث برسالة استفزازية عن طريق ابن الأفطس، يخاطب بها يوسف بن تاشفين قائلاً:
((ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك وأنت تتربّص وتختبئ لأصل المدينة!))[2]، وعندها فقط، قرّر يوسف بن تاشفين الانتقال نحو القوات النصرانية، لتبدأ المراسلات بين الجانبين لتحديد موعد اللقاء بينهما.

حاول ألفونس كعادته استعمال الحيلة والخديعة في مثل هذه الظروف وأراد الغدر بالمسلمين، وتذكر بعض المصادر في هذا الشّأن، أنّه بعث برسالة إلى يوسف بن تاشفين يقول فيها: ((... إنّ غدًا يوم الجمعة، ولا نحبّ مقاتلتكم فيه لأنّه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلتنا ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين))، فقال أمير المسلمين، اتركوا اللّعين وما أحب[3]. وهو يظن أنّ الملوك لا تغدر[4] ، لكن المعتمد بن عباد تنبّه للأمر وأمر جنوده بالاستعداد لمواجهة العدو في أيّة لحظة ، وقد حدث ما توقعه المعتمد ،لأنّ ألفونس حاول مباغتة المسلمين وهاجم معسكرهم يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب من سنة 479هـــ الموافق للثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1086م[5].

---

[1] كان ليوسف بن تاشفين ما يكفي من الأسباب لحالة التخوّف والقلق التي أصابته قبل المعركة، فهو يجهل جغرافية الأندلس من جهة، ولا زال يشك في ولاء ملوك الطوائف وصدقهم من جهة أخرى، وهو ما عبّر عنه عبد الله الزيري بقوله: ((ولا يعرفون من لهم أو عليهم)). أنظر: **التبيان** ، 133.

[2] الظاهر أنّ هذه الرسالة جاءت بعد رسالة يوسف بن تاشفين إلى ألفونس يُخيّرُه فيها بين أمور ثلاث: الدخول في الإسلام، أو الجزية، أو القتال. فلمّا وصلت إلى ألفونس، ((...جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نُغرِم الجزية لأهل ملّته منذ ثمانين سنة**!** وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه، وقال: يزحف إلي فإنّني أكره أن ألقاه قرب مدينة تعصمه، وتمنعني منه، فلا أشفي نفسي بقتله، ولا أبلغ أملي فيه ، بيني وبينه هذا البسيط المتسع (يعني سهل الزلاقة)...)). أنظر: مجهول: **الحلل الموشية**، 53 ، 54.

[3] نفسه ، 57 ، وأورد الحميري رواية قريبة منها، أنظر: **الروض المعطار** ، 90 (مادة الزلاقة).

[4] المراكشي: **المعجب** ، 119 .

[5] اختلفت الرواية الاسلامية في تحديد تاريخ معركة الزلاقة، فجعلها ابن الكردبوس يوم الجمعة 10 رجب 481هـــ (**الاكتفاء**، 95)، وإلى نفس السنة ذهب ابن خلدون (**العبر** ، 248/6،طبعة دار الفكر). أمّا المراكشي، فيجعل تاريخ المعركة في 12 رمضان 480 (**المعجب**، 119، 120)، أمّا الروايات الأخرى، فكلّها تشير إلى سنة 479هـــ مع اختلافات في تحديد اليوم والشهر، وعلى سبيل المثال جعلها ابن الأثير في يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان 479هـــ (**الكامل**، 447/8)، وابن خلكان في 15 رجب 479هـــ (**وفيات الأعيان** ، 29/5 ، 117/7)، وابن الأبار في رجب ،479 (**الحلة السيراء** ، 55/2) ، ويبدو أنّ روايات ابن بسام (**الذخيرة** ، ق2، مج2، 149)،والحميري: (**الروض المعطار** 83، مادة الزلاقة)، وابن أبي زرع (**روض القرطاس**، 149)، ومجهول (**الحلل الموشية** ، 59) ، أقرب إلى الصواب ، لاتفاقها على يوم الجمعة الثاني عشر رجب 479 ، من جهة =

ب- انعكاسات معركة الزلاقة على السياسة الخارجية لملوك الطوائف:

لقيت معركة الزلاقة اهتمامًا كبيرًا من المؤرخين المسلمين[1]، حتى حاول بعضهم لفّها بجوّ أسطوري غامض[2]، ويمكن أن أتفهّم ذلك بالنظر لما تمثّله هذه المعركة من قيمة معنوية كبيرة بالنسبة للأندلسيين وللمسلمين عامة، ولكونها حدثًا تاريخيًا فاصلاً تقرّر من خلاله مصير ومستقبل الإسلام والمسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية، ومع ذلك لا أرى الخوض في تفاصيل المعركة وحيثياتها مناسبًا هنا، لذلك سيتم التركيز على تأثيرات معركة الزلاقة وانعكاساتها على العلاقة بين ملوك الطوائف وألفونس السادس[3].

كانت نتائج معركة الزلاقة ذات أهمية بالغة عند المرابطين، حيث مهّدت لأميرهم يوسف بن تاشفين السبيل لفرض سيادته على الأندلس، بفضل الدور الكبير الذي قام به خلال المعركة، واعترافًا بهذا الدور، لم يجد ملوك الطوائف، وهم الطرف الأضعف المهدّد من ألفونس، حرجًا في القبول بقيادة

= ولتوافق هذا التاريخ مع ما ذكره يوسف بن تاشفين في خطابه بالفتح إلى العدوة، وهو يتطابق أيضا مع بعض الروايات النصرانية من جهة أخرى ، والتي جعلت تاريخ المعركة في 23 أكتوبر 1086م. وبهذا التاريخ الأخير أخذ الكثير من الباحثين. أنظر: دوزي: **المسلمون في الأندلس** ، 134/3، سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 83/2 ، عنان: **دول الطوائف** ، 323. أنظر أيضا الملحق رقم 09 من هذا البحث ، 173-176.

راجع نص الخطاب الذي بعث به يوسف بن تاشفين إلى العدوة المغربية يُعلم بالانتصار في الزلاقة في عنان: **دول الطوائف** ، 451 ، 452.، (ملحق رقم2).

[1] تطرّق مؤرّخو القرن الخامس الهجري، والذين جاؤوا بعدهم لمعركة الزلاقة، فعالجها البعض بكيفية مختصرة. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 133- 134، ابن الأثير: **الكامل**، 447/8، ابن خلكان: **وفيات الأعيان** 116/7، 117. وعالجها البعض الآخر بشيء من التفصيل، أنظر: ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2، مج2، 149- 152 الحميري: **الروض المعطار**، 85-95، المراكشي: **المعجب**، 118-120، ابن الكردبوس: **الاكتفاء**، 90-96 ، ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 145-152 ، مجهول: **الحلل الموشية** ، 38-66.

[2] أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 54-56، ابن أبي زرع: **روض القرطاس**، 145، ابن الكردبوس: **الاكتفاء**، 93.

[3] تذكر المصادر التاريخية الاسلامية ، أنّ ألفونس السادس اعتمد على الخديعة والحرب الخاطفة في معركة الزلاقة ليحقق النصر على أعدائه المسلمين ، لكن المعتمد بن عباد نصح يوسف بن تاشفين بالاستعداد للمواجهة في أية لحظة وعدم الثقة في كلام ألفونس ووعوده وبالفعل ،لم تمض سوس ساعات ، حتى شنّ النصارى هجومهم على محلة الأندلسيين ، الذين لم يكن في مقدورهم الصمود لولا مساندة القوات المرابطية ، وانتهت المعركة بهزيمة النصارى فانسلّ ملكهم ألفونس السادس في جنح الليل مع شرذمة من جنوده فارا نحو طليطلة. راجع تفاصيل معركة الزلاقة في: ابن بسام : **الذخيرة** ، ق2،مج2، 150-152 ، الحميري: **الروض المعطار**، 91-93 ، ابن الكردبوس : **الاكتفاء**، 93-94. كما يمكن مراجعة بعض التفاصيل حول هذه المعركة في الملحق رقم 08 من هذه البحث ، 172-173.

يوسف بن تاشفين لهم[1]، ووضعوا أنفسهم تحت وصايته الروحية والمعنوية ، وأصبحوا ملزمين باستشارته قبل اتخاذ أي قرار من القرارات الهامة، ووصل بهم الحال إلى ما هو أبعد من ذلك، فجعلوه حكمًا بينهم في خلافاتهم مع بعضهم البعض[2]، وعلى الرغم من رفض يوسف بن تاشفين لهذا الدور استنادًا فيما يبدو إلى عهوده السابقة التي قطعها لملوك الطوائف، فإنّ مركزه قد ارتفع في الأندلس بعد معركة الزلاقة، ووجد ملوك الطوائف أنفسهم عاجزين عن التصدّي لهذا النفوذ المتزايد.

أمّا التأثير الآخر لمعركة الزلاقة، فكان على الملك النصراني ألفونس السادس، الذي أُصيب كبرياؤه بضربة قاسية، وقد دخل المعركة على حال من لا يشك في النصر[3]، وإذا بجيشه يُهزم شرّ هزيمة، حيث لجأ للتحصّن بربوة عالية ينتظر حلول الليل، حيث تسلّل في جنح الظّلام عائدًا إلى طليطلة بصحبة عدد قليل ممّن تبقّى من جنوده، وقد أُصيب بطعنة في فخذه، أثناء المعركة، جعلته يُعاني من عاهة لازمته بقية حياته[4].

لاشكّ أنّ هذا الانتصار الكبير للمسلمين على النصارى، قد أعاد للأندلسيين جزءًا من ثقتهم في أنفسهم، وجعلهم يتحرّرون من الضغوط العسكرية والنفسية التي كان يمارسها عليهم ألفونس السادس، لذلك كانت فرحتهم عارمة بهذا الانتصار الذي ذكّرهم بالانتصارات الكبرى للمسلمين في معارك شهيرة مثل اليرموك والقادسية[5]. وقد تجلّت معنوياتهم المرتفعة فيما كتبوا من الرسائل في وصف انتصارهم[6]، وكان يوسف بن تاشفين والمعتمد بن عباد محلّ مدح وتبجيل لقاء شجاعتهما في المعركة[7].

غير أنّ الانعكاس المهم لهذه المعركة، هو توقّف الخطر النصراني وتراجع نفوذه في الأندلس ولو

---

[1] يمكن ملاحظة هذا القبول بقيادة يوسف بن تاشفين والاعتراف بدوره الحاسم في المعركة من خلال رسالة المعتمد بن عباد إلى اشبيلية ، التي بشّر فيها بانتصار الزلاقة. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية ،** 66 ، كما يعترف الأمير عبد الله بن بلكين بذلك أيضا في مذكراته . أنظر: **التبيان ،** 133.

[2] حَكّمَ تميم صاحب مالقة، يوسف بن تاشفين في خلافه مع أخيه عبد الله، وكذلك فعل ابن رشيق مع المعتمد بن عباد. أنظر: ابن بلكين: **التبيان،** 134، 135،138، ابن عبود: **التاريخ السياسي ،** 258.

[3] ابن بلكين: **التبيان،** 132

[4] الحميري: **الروض المعطار،** 92، 93. ، مجهول: **الحلل الموشية ،** 61.

[5] مجهول: **الحلل الموشية ،** 66.

[6] أنظر نص الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد إلى اشبيلية يُعلم فيها بالنصر، في: مجهول: **الحلل الموشية،**64، 65 وأورد الحميري مقتطفًا منها تصرّف فيه بشكل كبير. أنظر: **الروض المعطار ،** 94.

[7] مجهول: **الحلل الموشية ،** 66 ، الحميري: **الروض المعطار،** 95.

مؤقتا[1]، حيث اصطدم مشروع ألفونس السادس في الاحتلال العام للأندلس والقضاء على الحكم الإسلامي، بمواجهة خصم جديد غير متوقع، وقادر على التصدّي له وإفشال مشاريعه. وبالفعل أدرك ملوك الطوائف حقيقة التوازن الجديد في ميزان القوة-وإن كان نسبيا- ممّا سمح لهم بتبنّي سياسة جديدة مع ملك قشتالة، فتوقّفوا عن سداد الجزية السنوية التي اعتادوا دفعها لسنوات طويلة، وقد علموا أنّ ألفونس غير قادر على القيام بإجراء عقابي ضدّهم.

رغم ما خلّفته معركة الزلاقة من تأثير على مختلف الأطراف المتصارعة في الأندلس، فإنّ بعض خصائص الحالة السابقة ظلّت على ما هي عليه، ومن تلك الخصائص، عودة تهديدات ألفونس من جديد للممالك الطائفية.

جعل أحد المؤرخين من عودة يوسف بن تاشفين المفاجئة إلى بلاد المغرب، سببا لتجدّد تهديدات ألفونس للمسلمين[2]، حيث استغلّ هذا الملك غياب يوسف بن تاشفين، ودفع بقواته نحو شرق الأندلس فشنّت الغارات على سرقسطة وجهاتها، وبلنسية ودانية وشاطبة ومرسية، وغيرها[3]، وهذا يُوضّح أنّ ألفونس السادس استطاع في وقت قصير استعادة قوّته، وإعادة تنظيم صفوفه، وإذا كانت قواته غير قادرة على مواجهة مباشرة مع المرابطين مثلما حدث في معركة الزلاقة، فهي قادرة على إخضاع الممالك والإمارات الطائفية الأضعف، وهذا ما يفسّر لنا اختياره لشرق الأندلس وتجنّب المناطق الغربية منها، لأنّ يوسف بن تاشفين ترك عند عودته إلى العدوة، ثلاثة آلاف فارس في اشبيلية تحت تصرّف المعتمد بن عباد[4].

وتذكر بعض المصادر التاريخية أنّ عودة يوسف بن تاشفين السريعة إلى بلاد المغرب، جاءت

---

[1] لم تدم فرحة الأندلسيين طويلاً، فسرعان ما استعاد ألفونس قوته، وجمع جيوشه وأخذ يُغير على بعض المدن في شرق الأندلس، وفضّل أمراء الطوائف شراء السلم منه من جديد بدفع الجزية.

[2] ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 95 ، 96.

[3] نفسه ، 96.

[4] مجهول: **الحلل الموشية** ، 66، ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 95 ، ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 152.

بسبب وفاة أحد أبنائه[1]، وإذا كان من شأن هذا الخبر–لو صحّ– أن يُعطي المبرّر ليوسف بن تاشفين في العودة إلى بلاده، فإنّه لا يُعفيه من المسؤولية في إضاعة فرصة ثمينة باستثمار انتصار الزلاقة ومطاردة ألفونس للقضاء على قوّته بشكل نهائي، حسب ما كان يأمل المعتمد بن عباد، ولاستعادة ما فقده المسلمون من مدن كبرى، كقورية وطليطلة.

وعلى غير عادته حاول الحميري مناقشة هذه المسألة، وتوضيح جوهر الخلاف الذي حدث بين المعتمد بن عبّاد ويوسف بن تاشفين حول ملاحقة ألفونس وجنوده أو الاكتفاء بما تحقّق من النصر وذكر أنّ ابن عباد كان يحرّض على اتّباع ألفونس وقطع دابره، لكنّ ابن تاشفين اعتذر وقال: ((لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلكهم؛ بل نصبر بقيّة يومنا حتى يرجع إلينا أصحابُنا، ويجتمعوا بنا، ثمّ نرجع إليه فنحسم داءه))[2]. وأصرّ ابن عباد على موقفه في البداية، لكنه نزل عند رغبة يوسف بن تاشفين في نهاية المطاف، وعلق الحميري على ذلك فقال: ((وتكلّم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين، فقال شِيَعُ ابن عباد: لم يَخَف على يوسف أنّ ابن عبّاد أصاب وجه الصواب والرأي في معالجته، لكن خاف أن يهلك العدوّ الذي من أجله استدعاه فيقع الاستغناء عنه! وقالت شيَعُ يوسف: إنّما أراد ابن عبّاد قطع حبال يوسف من العود إلى جزيرة الأندلس! وقال آخرون: كلا الرّجلين أسَرَّ حَسْوًا في ارتِغاءٍ، وإن كان ابن عبّاد أحرى بالصواب))[3].

وإذا سلّمنا بصحّة ما جاء في هذا النص، فذلك يعني أنّ معركة الزلاقة، كانت خطوة أساسية ليوسف بن تاشفين في سعيه لإخضاع ملوك الطوائف، وأنّ التوسع كان هدفُه منذ البداية، عندما قطع البحر ونزل بالأندلس. وإذا كان من شأن هذا الادعاء أن يشوه سمعة يوسف بن تاشفين ويشكّك في

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 66 ، ابن الكردبوس : **الاكتفاء** ، 95 ، ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، 152.
ويرى الدكتور أحمد مختار العبادي أنّ عودة يوسف بن تاشفين لم تكن بسبب وفاة ولده ووليّ عهده الأمير عبد الله سير، وإنّما بسبب وفاة عمّه أبي بكر بن عمر اللمتوني الحاكم الشرعي لبلاد المغرب، وكان يوسف لا يزال نائبا عنه في حكم شمال المغرب، فاضطرّ يوسف للعودة إلى وطنه لتدعيم سلطانه وأخذ البيعة لنفسه. أنظر: ابن الكردبوس: **الاكتفاء** 95 ، 96، هامش رقم (8) ، ومع أنّ الدكتور العبادي لم يوضح المصدر الذي اعتمد عليه فيما ذهب إليه، إلاّ أنّه أخذ في الحسبان إهمال الأمير عبد الله بن بلكين الإشارة إلى هذه المسألة، حيث اكتفى صاحب التبيان بالقول أنّ عودة يوسف بن تاشفين إلى بلاد المغرب جاءت نتيجة استيائه من سوء أحوال الأندلس وفساد أمرائها وحكّامها وسوء نيّاتهم نحوه ، أنظر: **التبيان** ، 135.

[2] **الروض المعطار** ، 93.

[3] نفسه ، 93.

نواياه، فلا توجد إلاّ أدلّة قليلة تسانده[1]، إذ لا يوجد ما يثبت نيّة يوسف بن تاشفين في إخضاع الأندلس قبل وقوع معركة الزلاقة، التي لم يكن لديه سبيل للتأكّد سلفًا من نتائجها، إضافة إلى أنّ المبادرة في الاستنجاد جاءت من ملوك الطوائف وليس بمبادرة المرابطين، كما أنّ يوسف بن تاشفين كان متردّدًا وحذرًا عند إجابته للدّعوة وعليه لا يمكن أن نستنتج ثبوت النيّة عند يوسف بن تاشفين في إخضاع الأندلس قبل وقوع المعركة أو حتى أثناءها، وأنّ الأدلّة المتوفرة، تثبت أنّ قرار التخلّص من ملوك الطوائف، جاء بعد اقتناعه بعجزهم عن لمِّ شملهم وعدم قدرتهم على التصدّي لسياسة ألفونس التوسعية[2].

---

[1] يذكر المراكشي أنّ يوسف بن تاشفين تطلّع إلى امتلاك الأندلس منذ أن وطأت قدماه فيها، وأنّه اندهش من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية التي قدّمها له المعتمد بن عبّاد. أنظر: **المعجب** ، 117. ويذهب ابن الكردبوس أبعد من ذلك، فيذكر أنّ يوسف بن تاشفين، حينما رأي انهزام المعتمد وأصحابه أمام ألفونس أثناء معركة الزلاقة، قال: أتركوهم للفناء، فكلا الفريقين من الأعداء)). أنظر: **الاكتفاء** ، 94. وهذا يتعارض مع ما جاءت به النصوص التاريخية الأخرى، التي أكّدت معظمها ،أنّ يوسف بن تاشفين حينما علم بأنّ العدو قد باغت جيش المعتمد بن عباد أمر بعض قواده أن يهبّوا لنصرة ابن عباد. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 60، ابن أبي زرع: **روض القرطاس،** 147 148، الحميري: **الروض المعطار** ، 92.

[2] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 259- 261.

3- الخلافات بين ملوك الطوائف وتبنّي سياسة الخضوع لملوك اسبانيا:

أ- الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين ودوافعه:

بعد الانتصار الكبير الذي تحقّق على يد المرابطين في معركة الزلاقة سنة 479هـ/1086م، جمع يوسف بن تاشفين (465-500هـ)/(1073-1109م) رؤساء الأندلس، وأوصاهم بالاتفاق والائتلاف وتوحيد الكلمة، ثمّ قفل عائدًا إلى بلاد المغرب،ومهما اختلفت أسباب عودته السريعة إلى بلاده، فقد خفّفت مغادرته للأندلس من مخاوف ملوك الطوائف وهواجسهم[1].

ولا شكّ أنّ ملوك الطوائف، أخذوا بعد عودتهم إلى بلادهم يشعرون بالخطر يحيط بهم، وإن كانوا لا يدركون تمام الإدراك مصدر هذا الخطر، هل يأتي من النصارى في شكل انتقام لهزيمة الزلاقة أم من المرابطين الذين فُتنوا بخيرات الأندلس وثرواتها، وحتى لو أيقنوا مصدره لما استطاعوا فعل شيء إزاءه، فقد كانوا جميعًا في حالة من الاضطراب والفوضى والشعور بالضياع، وهذا ما يفسّر اتخاذهم لسياسات ارتجالية مرتبكة، تتّسم بضعف التخطيط، والتّركيز فقط على دفع الخطر الآني دون الأخذ في الحساب العواقب الوخيمة التي تترتّب عن مثل هذه التصرّفات[2].

وعلى كلّ حال، فقد ساءت أوضاع الأندلس من جديد بعد عامين من معركة الزلاقة، وعاود ألفونس السادس تطبيق سياسته التقليدية، بإرهاق الأندلسيين بالحملات التخريبية والغارات المختلفة التي تركّزت هذه المرة على شرق الأندلس وجنوب شرقها[3].

كان شرق الأندلس آنذاك يسوده الاضطراب والفوضى من جرّاء تدخّل القشتاليين، وما تلا ذلك من مغامرات السيّد الكمبيادور في تلك المنطقة، بيد أنّ هناك مصدر آخر لعدوان النصارى على تلك المناطق[4]،هو حصن لييط أو أليدو Aledo[5]،وكان ألفونس السادس قد بعث بقواته على إثر

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** 134 ، 135.

[2] سالم سحر: **تاريخ بطليوس**، 109/2.

[3] فصّل ابن الكردبوس أكثر في هذه المسألة فيقول: ((فلمّا تحقّق عند النصارى أنّه قد جاز (يعني يوسف بن تاشفين)، وقطع البحر وفاز، اتفقوا على تدويخ شرق الأندلس، فشنّوا الغارات على سرقسطة وجهاتها، وتمادوا إلى بلنسية ودانية وشاطبة ومرسية وذواتها، فانتسفوها نسفًا، وتركوها قاعًا صفصفًا، وأخذوا حصن مره رايط (مربيطر Murviedro) وغيرها، فساء حال الشرق وحسن الغرب بمن كان فيه من المرابطين)). أنظر: **الاكتفاء**، 96 ،97.

[4] حول مغامرات السيد الكمبيادور وسياسته في بلنسية وشرق الأندلس، راجع الفصل الثاني من هذا البحث. ص 107-113.

[5] حصن لييط أو أليدو Aledo ، وهو حصن على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم، أقامه النصارى بهدف السيطرة على شرق الأندلس، كانت سراياه تغير على تلك النواحي شرقًا وغربًا، ممّا دفع بأهالي هذه المناطق =

سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م ، إلى شرق الأندلس لتعيث في أرضها فسادًا، بقيادة غرسية خمينيث Garcia Giménez[1] فاجتاحت هذه القوات النصرانية، المنطقة الواقعة بين مرسية ولورقة،ثم رأى القشتاليون إنشاء حصن ضخم في لييط، يقع بين مرسية ولورقة وشحنوه بالسلاح والرجال[2] واتخذوه قاعدة أمامية لهم للإغارة على أراضي مرسية والمرية، وبثّوا بواسطته الرّعب في قلوب الأهالي فهبّ وجوه هذه النواحي للاستصراخ بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين[3].

ويحاول عدد من الباحثين تفسير بعض جوانب سياسة ألفونس وتركيزه على شرق الأندلس خاصة لورقة ومرسية، بأنّها تدخل في باب انتقامه من المعتمد بن عباد لاستدعائه المرابطين، وهم سبب هزيمته في معركة الزلاقة[4].

وكان المعتمد بن عباد، وهو صاحب السيادة الشرعية على مرسية ولورقة، أشدّ الناس اهتمامًا بإنقاذ تلك المنطقة من عدوان القشتاليين، وكان يشاطره هذا الاهتمام، المعتصم بن صمادح صاحب المرية، لما كان يترل بأراضيه من عيث نصارى حصن لييط[5] .

وخلافًا للجواز الأول، قرّر المعتمد بن عباد العبور بنفسه نحو العدوة المغربية لطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين واستنهاضه لنجدة الأندلسيين[6]، حيث يذكر صاحب الحلل ((أنّ ابن عباد تحرّك من إشبيلية في خاصّته، وجاز البحر إلى يوسف بن تاشفين، فتلقّاه بالمعمورة على حلق وادي سيبو

= إلى طلب المساعدة من المرابطين لإزالة خطر هذا الحصن عليهم. وتابعهم في ذلك المعتمد بن عباد، وكان أكثرهم تضرّرًا من هذه الغارات المتتالية على أملاكه في لورقة ومرسية. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية، 67**، ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 152، عنان: **دول الطوائف** ، 334، سالم سحر: **تاريخ بطليوس 112/2** هامش رقم(1) .

[1] كان من كبار قواد الملك ألفونس السادس، وهو الذي احتلّ قلعة لييط Aledo بالقرب من لورقة، ثمّ أخذ يشنّ الحملات على المرية ونواحيها. أنظر: ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 100، هامش رقم 04.

[2] قدّر صاحب الحلل الموشية أعداد الجنود النصارى داخل الحصن بألف فارس وإثني عشر ألف راجل. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 69.

[3] نفسه ، 67.

[4] أنظر: عنان: **دول الطوائف** ، 334 ، سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 112/2 ، 113.

[5] عنان: **دول الطوائف** ، 334

[6] أخلط كثير من المؤرخين بين الجواز الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس والجواز الثاني، ويذكر بعضهم أنّ ابن عباد عبر بنفسه في المرتين الأولى والثانية لاستنهاض يوسف بن تاشفين لنجدة الأندلس من النصارى، لكنّ الأمير عبد الله بن بلكين وهو ممّن شارك في هذه الأحداث وعلى دراية كبيرة بتفاصيلها، يذكر أنّ عبور ابن عباد إلى العدوة المغربية كان فقط قبيل الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 136.

وقابله بالسلام والترحيب، بوجه طلق وصدر رحب، وإكرام جمّ، وقال له: ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا، وهلاّ كتبت بحاجتك، فقال له: جئتك احتسابًا وجهادًا، وانتصارًا للدين، وقد أجرى الله الخير على يديك، وحظّك ممّا جئت به الحظّ الأوفر، وقد اشتدّ ضرر النصارى المستولين على حصن لييط، وعَظُم أذاه بالمسلمين، لتوسّطه بلادهم ولا جهاد أعظم منه أجرًا، ولا أثقل في الميزان وزنًا...))[1].

وبالفعل، لم يتردّد يوسف بن تاشفين في إجابة المعتمد بن عباد، ووعَدَه بالجواز إليه مرّة أخرى لوضع حدّ لتهديدات حصن لييط. وهكذا عاد ابن عباد إلى اشبيلية بعد أن اطمأنّ لوعود يوسف بن تاشفين وتأكيداته، وأخذ في إعداد السلاح وآلات الحصار[2].

وفَى يوسف بن تاشفين بوعده، وعبر البحر إلى الأندلس في شهر ربيع الأول سنة 481هـ/يونيو 1088م[3]، ونزل بالجزيرة الخضراء، فتلقّاه المعتمد بن عباد على عادته بما يقدر عليه من الهدايا والتكريم[4]. ويبدو أنّ ملوك الطوائف قد اعتادوا المبالغة في إكرام يوسف بن تاشفين بالأموال والتحف والهدايا، وكان مصدر هذه الأموال، الضرائب المفروضة على الأهالي، وسنرى بعد ذلك كيف أثّر امتناع الأندلسيين عن دفع الضرائب على مستقبل ملوك الطوائف.

بادر أمير المسلمين بإرسال الكتب إلى رؤساء الأندلس يستدعيهم للجهاد معه، حيث يذكر الأمير عبد الله بن بلكين في هذا السياق قوله: ((...وأتتنا كتب الأمير يأمرنا عند جوازه، بالاستعداد للقتال وما شاكل ذلك ففعلنا، وبادرنا رغبة في الجهاد ومحبّة فيه، وإيثارًا له، وخرجنا إليه ولقيناه في حيّز من بلدنا، بما يُطابقُ مثله من الهدايا والتّحف، وأجمعنا على المسير إلى لييط))[5].

لم تذكر المصادر التاريخية التي استطعت الوصول إليها شيئاً عن عدد القوات التي تمكّن يوسف بن تاشفين من حشدها، ولا عدد القوات الأندلسية المشاركة في الحصار، ويبدو لي من سياق الأحداث أنّ القوات المرابطية لم تكن كبيرة، بدليل أنّ هذا الحصن استعصى على المحاصرين، وهذا يعني أنّ يوسف بن تاشفين استهان بأمر حصن لييط، ما دامت قوّاته استطاعت إلحاق الهزيمة والتغلّب على الحشود الضخمة التي جمعها ألفونس أثناء معركة الزلاقة سنة 479هـ/1086م، لهذا بدا له أنّ مسألة

---

(1) مجهول: **الحلل الموشية** ، 67 ، 68.

(2) نفسه ، 68 ، عنان: **دول الطوائف** ، 335 .

(3) ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 152 ، عنان: **دول الطوائف** ، 335 .

(4) مجهول: **الحلل الموشية** ، 68.

(5) **التبيان** ، 136

القضاء على حصن من حصون النصارى أمر هيّن وهو ما أثّر بشكل أو بآخر في فشل المهمّة في نهاية المطاف.

ب- حصار حصن لييط وتجدّد الخلافات بين ملوك الطوائف:

كان الجواز الثاني للمرابطين إلى الأندلس وحصار حصن لييط، فرصة ليوسف بن تاشفين ليكشف النوايا الحقيقية لملوك الطوائف[1]، وعليه بادر أمير المسلمين باستدعائهم وأمرهم باللّحاق به. فاستجاب له عبد الله بن بلكين وأخوه تميم، والمعتصم بن صمادح، وبعض رؤساء الأندلس من شقورة، وبسطة وجيان[2].هذا و لم تأت المصادر التاريخية على ذكر المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس الذي تخلّف على ما يبدو عن الحضور، ولا ندري على وجه اليقين ألذلك علاقة بحلف جديد أقامه مع ألفونس السادس، أن أنّه فضّل عدم إقحام نفسه في أمر لا يعنيه بشكل مباشر، ما دام الحصن بعيد عن بلاده و لم يلحق منه ضررًا عليه كما ألحقه بباقي مدن شرق الأندلس؟!.

يذكر الأمير عبد الله –وكان ممّن شاركوا في هذه الحملة- حول حصار هذا الحصن وامتناعه على المسلمين قائلا: ((فنازلناه على أتمّ ما يمكن من الرجال والعُدد، كلّ رئيس يقاتلُهُ على حسب مجهوده وما تبلغ استطاعتُه وحيلتُه، وهو قد امتلأ برعية الجهة كُلُّها من النصارى، وأعدّوا فيه ما يحتاج من كلّ شيء، فِعْلَ من نظر على سَعَةٍ، وهم في ذلك يُهَدّدون بمجيء ألفونس، ويُريعون الحيلة بالتنيير كلّ ليلة، والقتال عليهم كلَّ يوم لا يفتر، مع البُنيان في المواضع المهمة عليهم. ونصب المجانيق والعرّادات[3] حتى لم يبق عمل يُرام به افتراضُ المعاقل إلاّ وصُنِع...وفي كلّ ذلك لا ينجَحُ عمل، ولا تظهر فيه للمسلمين فرصة، بما شاء الله من اختلاف الكلمة))[4].

ويفهَمُ من هذا النص أنّ الحصن كان في غاية المنعة، ما جعل كل الوسائل والأساليب التي استخدمت تفشل أمامه، وهو ما تسبّب في طول حصاره[5].

ويضيف صاحب الحلل قائلا: ((واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين، وظهر لهما من

---

[1] يذكر الأمير الزيري عبد الله بن بلكين، إنّ حصار لييط سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس. أنظر: **التبيان**، 137.

[2] مجهول: **الحلل الموشية**، 68 ، 69.

[3] العرّدات :وهي آلة تقذف بالحجارة والنار المحرقة. أنظر: دوزي: **تكملة المعاجم** ، 5/ 159.

[4] **التبيان**، 136 ، 137.

[5] هناك خلاف بين المصادر الإسلامية في مدّة حصار المسلمين لهذا الحصن، فصاحب الحلل يذكر أنّ مدّة الحصار استمرّت شهرًا كاملاً.(مجهول: **الحلل الموشية**، 69)، أمّا صاحب روض القرطاس فيقول أنّ الحصار طال ودام مدّة أربعة أشهر. (ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 153). وأنا أميل للأخذ بالرّأي الثاني، وأستند في ذلك إلى عبارة =

حصانته ومنعته، واستعصامه ما آيسهم عنه، وأنّه لو كان دون سور لكان شفا جرفه عاصمًا لمن فيه وأنّهم لا يتأتى لهم أخذه، إلاّ بالمطاولة وقطع القوت عنهم...))[1].

ولا شكّ أنّ منعة الحصن وشدّة تحصينه ليست السّبب الوحيد الذي أعاق المسلمين ومنعهم من اقتحامه وفتحه، بل هناك أسبابًا أخرى أعطاها ليوسف بن تاشفين الأهمية الكبرى، وجعلته يرفع الحصار ويعود إلى المغرب وهو ممتلئ غيظًا وخنقًا على ملوك الطوائف، بل عازم على خلعهم، فقد تبيّن له أثناء حصار الحصن مدى الخلافات العميقة التي كانت قائمة بين هؤلاء الملوك.

ومن الخلافات التي كشفت ليوسف بن تاشفين حقيقة ملوك الطوائف، تجدّد التراع بين الأخوين الزيريين، الأمير عبد الله صاحب غرناطة وأخيه تميم صاحب مالقة، حيث كرّر تميمٌ هذا شكواه السابقة بأخيه متّهمًا إيّاه باغتصاب حقّ جدّه باديس لنفسه، وكان قد رفعها إلى يوسف بن تاشفين عقب معركة الزلاقة، وظنّ أنّ عودة الأمير المفاجئة إلى بلاد المغرب منعته من إجابته لشكواه، لكنّ يوسف بن تاشفين، فضّل في حقيقة الأمر عدم إقحام نفسه في هذه الخلافات والمشاحنات الشخصية وربّما رأى أنّ الأمير عبد الله أفيد له من أخيه تميم، فهو في حاجة لعبور أراضي غرناطة أثناء تنقله بين المغرب والأندلس، لهذا لم يلتفت لمطالب تميم، وألهاه بالمماطلة والتسويف[2].

هذا إلى جانب الخلاف الذي كان قائمًا بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح صاحب المرية حيث يذكر الأمير عبد الله أنّ سبب الخلاف بينهما كان حول بعض المعاقل[3] . وتمّ رفع هذا الخلاف أيضا إلى أمير المسلمين للنظر فيه، وكلّ يأمل لأن يكون الحكم لصالحه.

على أنّ أخطر خلاف وقع بين ملوك الطوائف أثناء هذا الحصار، وأثّر بشكل كبير في علاقات ملوك الطوائف بألفونس السادس، بل في علاقات ملوك الطوائف بالمرابطين أيضا، كان بين المعتمد بن عباد وابن رشيق صاحب مرسية[4]، ويمكن أن نستنتج من خلال بعض النصوص التاريخية، أنّ المعتمد بن عباد شكا ضمنيا ابن رشيق لأمير المسلمين، عندما عبر إليه بالعدوة يطلب مساعدته، لذلك سارع

=جاءت عند صاحب التبيان الذي شارك بنفسه في حصار الحصن حيث يذكر: ((وشاحت المحلة وطال مكثها)) وهذا يعني أنّ الحصار طال مدّة حتى ملّ الناس منه. أنظر:ابن بلكين: **التبيان** 140.

[1] مجهول: **الحلل الموشية** ، 69.

[2] أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 141.

[3] ذكر الأمير عبد الله الزيري في مذكراته حول الخلاف بين المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح قوله: ((ووقعت بين المعتمد والمعتصم صاحب المرية مشاجرات وتباعات باردة في معاقل من نظر الجبل ومن أمر شُربة، ما وقع فيه الشكوى إلى الأمير، وانفصلا على غير موافقة: كل ذلك من المنحسة المقضية عليهما)). أنظر: **التبيان** ، 141.

[4] سبق ورأينا في الفصل الثاني كيف تمكّن ابن رشيق هذا من انتزاع مرسية من يد ابن عمار بعدما خرج هذا =

ابن رشيق إلى التودّد للمرابطين أثناء هذه الحملة وقدّم لهم الأموال طمعا في استمالتهم إليه[1]. بل ذهب أبعد من ذلك، حينما قام برشوة سير بن أبي بكر وكان من أقرب القواد ليوسف بن تاشفين، من أجل الدفاع عنه أمام الأمير، أمّا المعتمد بن عباد، فعوّل على قرور[2] في هذه القضية، وبذل له أموالاً جسيمة على حدّ تعبير عبد الله بن بلكين[3].

ومن المهم هنا أن نذكر أنّ ابن عباد لم يكتف باتهام ابن رشيق بانتزاع مرسية منه وحسب، بل اتهمه أيضا بالتعاون مع الحامية النصرانية للحصن في الخفاء ضدّ المسلمين[4]، ودفع جباية المدينة مصانعة لألفونس[5]. وبهذا استطاع أن يقنع يوسف بن تاشفين أنّ خيانة ابن رشيق هي السبب الحقيقي الذي أخّر سقوط هذا الحصن في أيديهم حتى ذلك الحين[6].

وإذا استندنا إلى تحليل الأمير عبد الله السليم للأحداث، يتبيّن أنّ ابن رشيق كان في وضع حرج للغاية فهو يعلم أنّ أعداءه يحيطون به من كلّ جانب، فالمعتمد بن عباد يتهدّده كلّ حين[7].

ولا يعوّل كثيرًا على إنصاف المرابطين له ما دامت ليست لهم مصلحة في ذلك. فلجأ على ما يبدو للتودّد لألفونس السادس بالأموال وتقديم المساعدات اللازمة لحاميته الموجودة داخل الحصن[8].

وعلى كلّ حال لا أستغرب منه هذه الخطوة، فالعلاقة بينه وبين ألفونس السادس كانت وثيقة منذ أن تمكّن من استمالته إثر انقلاب ابن رشيق على ابن عمار، وذهب هذا الأخير يشكو مصابه

= الأخير على المعتمد بن عباد وشقّ عصا الطاعة في وجهه، وانتزى بهذه المدينة لنفسه، وقام عليه ابن رشيق وفعل الشيء نفسه مع ابن عمار ثم مع المعتمد بن عباد.

(1) ابن بلكين: **التبيان** ، 138.

(2) يبدو أنّ قرور هذا هو نفسه جؤدر الحشمي الذي ذكره صاحب الحلل الموشية، وكان من قواد يوسف بن تاشفين. أنظر: مجهول: **الحلل الموشية** ، 73.

(3) ابن بلكين: **التبيان** ، 138.

(4) سالم سحر: تاريخ **بطليوس** ، 115/2.

(5) مجهول: **الحلل الموشية** ، 69.

(6) سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 115/2.

(7) يذكر الأستاذ عنان مستندًا إلى رواية Gaspar ، أنّ المعتمد بن عباد حشد حملة عسكرية من جنده ومن المرابطين الذين تركهم يوسف عنده، وسار أوّلاً إلى لورقة، فامتنعت عليه، فغادرها إلى مرسية، وضرب حولها الحصار، لكنّ ابن رشيق استطاع أن يستميل المرابطين إليه، وأقنعهم أن يتركوه بسلام، وهكذا فشلت حملة ابن عباد في استعادة مرسية. أنظر: **دول الطوائف** ، 334- 335. هذا ولم تأتِ المصادر الإسلامية على ذكر هذا الخبر.

(8) ابن بلكين: **التبيان** ، 139.

لألفونس دون طائل[1].

وعلى كلّ حال، فقد مال يوسف بن تاشفين في النهاية لتصديق المعتمد بن عباد، سواء لاقتناعه بالحجج المقدّمة له، أو لتوافق مع مصلحته، حيث يطلعنا صاحب كتاب التبيان على مبرّرات الأمير المرابطي لاتخاذ هذا الموقف قائلاً: ((وإنّ أمير المسلمين لّما رأى حال ابن عبّاد مع ابن رشيق واختلاف ما بينهما، أعمل في ذلك عقله، ودبّره برأيه، وقال: ما تنبغي لنا مفاسدة ابن عباد من أجل ابن رشيق لاحتياجنا إليه فيما نحن بسبيله، ونحن لم نأمن أمرَ الروميّ والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عبّاد، حتى ترينا الأمور وجوهها!))[2].

ويبدو من كلامه عدم الرضى من موقف الأمير يوسف رغم حذره الشّديد في الحديث عنه، ومن ذلك قوله: ((فتعسّف (يعني يوسف بن تاشفين) على ابن رشيق في الذي أظهر من الخلاف على صاحبه))[3]، ومع ذلك فهو يختم كلامه بالحديث عن الأهداف الحقيقية لابن رشيق من وراء ربط علاقات مع النصارى بالقول: ((ولا سيّما أنّ معونته (يعني ابن رشيق) للّروم بلييط لم تخْفَ على أحد، يعتقد أنّ ببقائها (أي الحامية) يثبت في مرسية!، فكان أبدًا يميرهم ويقوّيهم بما يعجزون عنه إبقاءًا لرمقهم، وخوفًا من الداخلة عليه بفقدهِم))[4].

ومع هذه الأدلّة، لم يقطع يوسف بن تاشفين 145 في هذا الخلاف حتى شاور الفقهاء، فحكموا على ابن رشيق، حيث تمّ القبض عليه وتسليمه لابن عباد، وأمره بعدم قتله، فهرب أصحابه وقرابته وعادوا إلى مرسية وتحصّنوا بها[5].

---

[1] راجع الفصل الثاني من هذا البحث،ص82.

[2] ابن بلكين: **التبيان** ، 139.

[3] نفسه ، 139.

[4] نفسه ، 139.

[5] نفسه ، 140 ، مجهول: **الحلل الموشية** ،69، 70، سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 115/2.

ويذكر ابن أبي زرع أنّ رجال ابن رشيق وقواده، عمدوا بعد فرارهم من معسكر المسلمين إلى قطع المؤونة أو الميرة عن المحلة، فوقع بها الغلاء. أنظر: **روض القرطاس** ، 153.

وبذلك يمكننا أن نتبيّن الأثر السيّئ الذي ترتّب عن هذا الحادث، وصداه الكبير على ما تلا ذلك من أحداث، فقد انسحب قادة مرسية من الميدان، وكان معظمهم من أقارب ابن رشيق ورجاله فاختلّ التوازن في معسكر المسلمين، وانتهى الأمر بأن فضّل أمير المسلمين رفع الحصار عن لييط حين عَلِم بقدوم ألفونس السادس لنجدته، لعدم كفاية قواته، وتيقُّنه من عدم جدوى المواجهة[1].

وكان لهذا الإخفاق في افتتاح الحصن، أكبر الأثر في نفس يوسف بن تاشفين، الذي وجد نفسه في حرج بالغ أمام أهل الأندلس من جهة، إذْ كيف يفشل صاحب انتصار الزلاقة الكبير، أمام حصن من حصون النصارى، رغم ما تمّ إعداده من وسائل لفتحه؟.

ومن جهة أخرى، اهتزّت مكانته أمام ألفونس السادس صاحب قشتالة، بعدما تجنّب مواجهته والسماح له بدخول الحصن وانقاذ من تبقى فيه من النصارى[2].

لا شكّ أنّ تجنب يوسف بن تاشفين مواجهة ألفونس، وإن كان عملاً تكتيكيا فرضه مقتضى الحال حسب أحد المؤرخين، قد رفع معنويات ملك قشتالة، الذي اعتبره اعترافًا ضمنيا من يوسف بن تاشفين بقوته[3].

ولا شكّ أيضا أنّ المرابطين قد ألقوا باللائمة في هذا الإخفاق على ملوك الطوائف، لوهنهم الشديد أمام العدو، وانشغالهم عن الجهاد بأطماعهم الشخصية وخلافاتهم المتواصلة، وتآمرهم في الخفاء مع الملك النصراني، أملا في المحافظة على عروشهم من الزوال[4].

لقد ترسّخت القناعة لدى يوسف بن تاشفين في إزاحة ملوك الطوائف، لأنّ الإبقاء عليهم سوف يعرقل بلا شكّ مشروع الجهاد في الأندلس ووقف الزحف النصراني عليها. ومن منطلق الغيرة على الإسلام والرغبة في توحيد الصفّ الإسلامي، عقد أمير المرابطين العزم على التخلّص نهائياً من هؤلاء

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ،140 ، مجهول: **الحلل الموشية** ، 70 ، ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 153. سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 115/2.

[2] تذكر المصادر التاريخية أنّ حصن لييط كان يضمّ ألف فارس وإثني عشر ألف راجل، هذا عدا العيال والذرية ومن انحاز إليه من نصارى المنطقة، (مجهول: **الحلل الموشية** 69، ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ، 153)، ولما وصله ألفونس لانقاذه، لم يجد فيه غير مائة من الرجال، وهم الذين أخرجهم ألفونس حين أخلاه، أنظر: ابن أبي زرع: **روض القرطاس** ،153، وتبدو هذه الرواية للوهلة الأولى مبالغًا فيها، على اعتبار أنّ مدّة الحصار لم تتجاوز أربعة أشهر على أكثر تقدير.

[3] مجهول: **الحلل الموشية** ، 70.

[4] سالم سحر: **تاريخ بطليوس** ، 116/2.

الملوك، وقرّر العودة إلى العُدوة المغربية لإعداد العدّة لهذا الهدف الجديد، بعدما ترك أربعة آلاف مقاتل في شرق الأندلس، تحت قيادة داوود بن عائشة [1]، ويبدو أنّ الهدف منها هو التصدّي لمغامرات السيّد الكمبيادور في شرق الأندلس بعد استفحال خطره هناك.

(1) مجهول : **الحلل الموشية** ، 70.

4- زوال ملوك الطوائف:

أ- محالفة ألفونس وبداية المواجهة مع المرابطين:

لقد غيّر إخفاق حصن لييط، نظرة يوسف بن تاشفين إلى ملوك الطوائف، من حلفاء وحّدهم هدف مشترك هو صدّ التقدّم النصراني، إلى خصوم أو أعداء أعاقوا مشروعه في الأندلس، وانعكس هذا التحول بشكل مباشر على علاقاته بهؤلاء الملوك. وبطبيعة الحال، كان تأثير هذه النظرة الجديدة ليوسف بن تاشفين أكبر على علاقات ملوك الطوائف بألفونس السادس.

كان ملوك الطوائف على يقين أنّ يوسف بن تاشفين لن يقف مكتوف اليدين أمام الخلافات والصّراعات الحادة التي أبدوها أمامه، وحاولوا في أحيان كثيرة إقحامه فيها، والتي لم يجنِ المسلمون من ورائها سوى فقدان مزيد من المدن الأندلسية وتراجع نفوذ المسلمين في شبه الجزيرة، أمام الزحف النصراني الذي لا يتوقّف.

لا شكّ أنّ رغبة ملوك الطوائف، كانت تتلخّص في العودة إلى الوضع الذي سبق سقوط طليطلة حينما كان ألفونس يقبل منهم المال مقابل شراء السلم منه، وحاولوا جاهدين جعل المرابطين أداة في أيديهم لإجبار ألفونس على التخلّي عن سياسته الجديدة التي تهدف إلى الاحتلال العام[1]. لكنّ الأمر الذي فاجأهم هو تطلّع يوسف بن تاشفين بدوره للقضاء عليهم، وبالتالي أصبحوا ينظرون إليه بنفس نظرتهم لألفونس السادس[2] ما دام كلّ منهما يسعى لاستئصالهم من الوجود، ومع ذلك لم يأخذ ملوك الطوائف بتاتًا بعين الاعتبار فكرة اتخاذ تدابير الدفاع الجماعي، بل إنّهم لم يتصوّروا احتمال توحيد مجهوداتهم ضدّ ألفونس عندما كان مطلوبًا منهم الحفاظ على بقائهم، فكيف نتوقّع منهم تحالفًا من أي نوع ضدّ المرابطين[3].

لقد رفض يوسف بن تاشفين أثناء عودته من حصار لييط إلى بلاده، أن يترك لملوك الطوائف

---

[1] سبق ورأينا كيف كانت سياسة ألفونس السادس مقبولة بالنسبة لملوك الطوائف، ما دامت تقتصر على طلب الأموال دون التطلّع بشكل علني لأخذ المدن والحصون، وبعد تحول ألفونس عن سياسته هذه، إلى محاولة احتلال الأندلس والقضاء على الوجود الإسلامي فيها، كان الاستنجاد بالمرابطين.

[2] لم يجد المعتمد بن عباد حرجًا في التصريح بتحالفه مع ألفونس ضدّ المرابطين، ما دام يوسف بن تاشفين يسعى لخلعه وإزالة ملكه. وقد عبّر عبد الله بن بلكين عن هذه الفكرة على لسان المعتمد بن عباد فقال: ((لو فعلْتُهُ (يعني التّحالف مع ألفونس) قبل أن تؤخَذَ بلادي بطرًا وأشرًا، كنت أُلام**!** وأمّا بعد أن رأيت طلبي في الروح، اضطرّتني الضرورة إلى ذلك للمدافعة ولو يومًا واحدًا**!**)). أنظر: **التبيان** ، 204.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 201.

بعضًا من قواته لدفع خطر النصارى إن تعرّضوا لهم، وردَّ على طلبهم قائلاً: ((أصْلِحُوا نيّاتِكُمْ تُكْفَوا عدوّكم!))، و لم يُجبهم لمطلبهم[1]. والظّاهر أنّ يوسف بن تاشفين كان في غاية الغضب والنّقمة على هؤلاء الملوك، وفي الوقت نفسه، كان يبحث عن المبرّر الشّرعي والأخلاقي لإزاحتهم عن طريقه وأعتقد أنّ التّفكير نفسه كان يدور في أذهان ملوك الطوائف، فهم أيضًا يبحثون عن مبرّر يقنعون به أنفسهم لإعادة ربط علاقات جديدة مع ألفونس السادس، علّه اعتبر من درس الزلاقة، وتوقّف عن سياسة التوسّع والاحتلال العام.

لقد كان ضغط النصارى على شرق الأندلس أكثر من غيره من المناطق، خاصة بعد معركة الزلاقة وعودة يوسف بن تاشفين السريعة إلى المغرب، وكان الشرق الأندلسي آنذاك في غاية الاضطراب والفوضى، ممّا سهّل مهمّة ألفونس السادس وقواده لإخضاع هذا المناطق، والانتقام من المسلمين، وردّ جزء من هيبته العسكرية الضائعة، لذلك لا نستغرب أن يعتبر يوسف بن تاشفين من أخطائه السابقة ويبعث بقواته التي تركها خلفه إلى شرق الأندلس، بعدما قفل عائدًا إلى المغرب عقب فشله في حصن لييط[2].

ويبدو أنّ مهمّة هذه القوات في البداية، كانت صعبة بل وفاشلة، بدليل خضوع معظم هذه المناطق لضغوطات ألفونس، حيث اضطرّ كثير من الملوك والأمراء إلى معاقدة الملك النصراني مثلما يخبرنا بذلك عبد الله بن بلكين: ((وعاقد صاحب سرقسطة ومن يليه من الشّرق، فدافعوا شرّه (يعني شرّ ألفونس) ودَفَعُوا إليه ما سلف له عندهم))[3].

وجاء دور صاحب غرناطة الأمير عبد الله الزيري، الذي خضع لسياسة الملك النصراني ألفونس واستسلم لتهديدات مبعوثه البرهانس[4]، وأرضاه بالمال على ألاّ يقرب بلاده بعد هذه الدفعة[5].

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 153.

[2] مجهول: **الحلل الموشية** ، 70.

[3] **التبيان** ، 153.

[4] يبدو أنّ البرهانس Alvar Hanez في هذه الفترة، كان مكلّفًا بجهة غرناطة والمرية من قِبَل سيّده ألفونس، و لم يكن مجرد رسول للأمير عبد الله، ونلمس ذلك من حواره مع الأمير الزيري، حينما طلب مالا لنفسه في البداية، ثمّ المطالبة بالجزية لسيّده ألفونس. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 153 ، 154.

[5] طلب البرهانس من الأمير عبد الله مبلغًا من المال مقابل تركه بسلام، ومع أنّ الأمير الزيري خضع وقدّم المال (الذي لم يذكر قيمته)، كان لا يزال يثق في وعود النصارى، ومن الغريب أنّ البرهانس طالب بالجزية لسيّده ألفونس بعدما أخذ لنفسه ما شاء من الأموال وقال للأمير: ((هأنا قد صَلُحَ جانبي! والأوكد عليكم أمر ألفونش، الذي هو على الحركة عليكم وإلى غيركم، فمن أنصفه نجا، ومن حاد عنه، فسلّطني عليه! فإنّما أنا عبدُه، لابدّ من إتيان مرغوبه =

وهنا نستطيع القول أنّ الأوضاع السياسية في الأندلس عادت بالفعل إلى فترة ما قبل معركة الزلاقة، فالملك ألفونس لم يجد صعوبة أو حرجًا في طلب ما شاء من الأموال من المسلمين تحت وطأة التهديد والضّغط العسكري، بل حاول تعويض ما فاته من أموال على إثر توقّف المسلمين عن دفع الجزية خلال السنوات الثلاث التي أعقبت معركة الزلاقة. وهذا يؤكّد أنّ ألفونس أدرك استحالة احتلال الأندلس بالكامل في ظلّ وجود المرابطين، وفضّل التريث والعودة إلى سياسته السابقة.

ويحاول الأمير الزيري أن يسوق لنا مختلف الحجج والذّرائع التي يبرّر بها مسلكه هذا، وأنّه فيما قام به إنّما كان مجبرًا لا مخيّرًا [1]. ويبدو أنّ الهدف من ذلك هو تبرئة ذمّته أمام المرابطين.

في هذه الأثناء، لجأ ألفونس إلى استخدام أسلوبه القديم، وهو أيضا أسلوب أبيه فرديناند، في الضّغط النفسي على ملوك الطوائف وتخويفهم، لتحقيق التفوّق والغلبة أثناء المفاوضات، ويتّضح ذلك من خلال الاستعدادات العسكرية التي قام بها قُبيل إرسال مبعوثه إلى الأمير عبد الله للمطالبة بالجزية[2]، وبالفعل نجح هذا الأسلوب من جديد، إذْ لم يستطع صاحب غرناطة سوى قبول الشروط كما هي، بدفع مبلغ ثلاثين ألف مثقال ، وحينها وجد أمير غرناطة نفسه بين مطرقة ألفونس وسندان المرابطين، فارتأى دفع مبلغ الجزية من حرّ ماله، حتى لا يُكلّف رعيته شيئًا، خوفًا أن تشكوه للمرابطين[3]. وظنّ بهذا العمل، أنّه يُرضي جميع الأطراف ، لكنّ النتائج التي ترتّبت عنه جاءت عكسية تمامًا.

أثار هذا الاتفاق غضب يوسف بن تاشفين على الأمير عبد الله، واعتبره من قبيل الخيانة الصريحة التي تستوجب إزالته والقضاء على حكمه، وردّ عليه برسالة ملأها بالتّهديد والوعيد قال فيها:
((أمّا مُداَهَنَتُكَ وقولك الباطل، فقد علمناه!وسنعلم عن قريب كيف ترضى الرّعية، وما تصنعُ إذا

= والوقوف عند أمره، ولا ينفعكم هذا الذي أعطيتموني إن خالفتموه، وليس بنافع إلاّ فيما يخصّني دون رئيسي إن حدّ لي ضدّه!))، والطريف في الأمر أنّ الأمير عبد الله أَتْبَع هذا الكلام بقوله: ((فعلمنا أنّ قوله حقّ يقبله العقل)). أنظر: **التبيان** ، 154.

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 154.

[2] تتّضح هذه السياسة من خلال عبارة مهمة للأمير عبد الله في مذكراته، يقول فيها: ((وتأهب ألفونس إلى الحركة وقدّم رسوله بين يدي حركته...)) إلى أن قال: ((...حتى بلغ من الجزع أنّنا لم نصدّق أن يقبل منّا المال دون ملازمة لنا، طالبا لإحنَة لبيط ومعاقدة المرابطين)). أنظر: **التبيان** ، 115، ومن العبارة السابقة يتبيّن مدى الخوف الذي أصاب صاحب غرناطة، فكان مهيّئًا ليقبل بأيّة شروط تُفرض عليه من النصارى.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 155.

زَعمْتَ أنّك نظرت لها، ولا تُسَوِّفْ: فإنّ هذا قريب غير بعيد!))[1].وهنا، اقتنع صاحب غرناطة أنّ يوسف بن تاشفين عازم على خلعه، فأخذ في تحصين بلاده[2]،استعدادًا للمواجهة القريبة مع المرابطين.

لم يصرّح الأمير الزيري بحقيقة هذه التّحصينات، كي لا تقوم عليه الحجة أمام يوسف بن تاشفين وادّعى في مذكراته[3]، أنّ الهدف منها هو دفع الخطر النصراني عن بلاده، وزعم أنّ التحصين من المرابطين لا ينفع[4]، مع أنّ هذه التّحصينات جاءت عقب تدهور علاقاته بالمرابطين، وخضوعه للملك النصراني ألفونس.

أمّا المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، فكان الرقم الثاني على لائحة ألفونس السادس، الذي ما إن فرغ من غرناطة، حتى وجّه قواته صوب إشبيلية لإجبار المعتمد بن عباد على الخضوع لهم مجدّدًا. ويبدو أنّ اهتمام ألفونس بمضايقة اشبيلية وكفّه عن غرناطة قد أثار شكوك المعتمد في احتمال حدوث اتفاق بين الملك النصراني ألفونس وعبد الله بن بلكين على غزو اشبيلية[5]، وأنّ هذه الفكرة تبادرت لألفونس بوحي من الأمير الزيري[6]، الأمر الذي أدّى إلى تدهور العلاقة بين اشبيلية وغرناطة، وهذا ما يُفسّر شهادة المعتمد بن عباد ضدّ عبد الله بن بلكين بعدما شاع من أخبار عن تحالفه مع النصارى[7].

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 158.

[2] سارع الأمير الزيري عبد الله لتحصين غرناطة، ببناء الحصون وإصلاحها وإقامة الأجباب وإعداد المطاحن، وأنواع العُدَد من التّراس والنّبل والرّعادات وجميع الأقوات، وجعل لكلّ حصن قوته لأزيد من عام، وأَوْلى حصن المنكّب أهمية خاصة، ليكون جوازه منه إلى المغرب إذا ما داهمه الخطر، وفعل أكثر من ذلك في مدينة غرناطة. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 151.

[3] لا نعلم على وجه الدقّة، تاريخ تأليف هذه المذكّرات، إذْ لم يُشر صاحبها إلى ذلك، كما لم يفعل محقق هذا الكتاب وناشره، ليفي بروفنسال ومع ذلك، فالثابت أنّه ألّفها في منفاه بمدينة أغمات المغربية، والرّاجح أنّ تأليفها كان في حياة يوسف بن تاشفين، لذلك لا نجد ما يشير إلى وفاته في المذكرات كالتّرحم عليه مثلا، كما نلحظ أنّ عبد الله كان حذرًا في حديثه عن يوسف بن تاشفين، وهذا يدلّ على أنّها أُلّفت ما بين(484هـــ- 495هـــ)/(1091م-1101م)، ولهذا لم يذكر الحقيقة كاملة خوفا من تغيّر يوسف بن تاشفين عليه.

[4] ابن بلكين: **التبيان** ، 151.

[5] نفسه ، 158.

[6] تبرّأ الأمير عبد الله من هذه التهمة، ودافع عن نفسه في مذكراته قائلا: ((لو كان عن اتّفاق لأدّيت عليه مالاً فوق الجزية!...)). أنظر: **التبيان** ، 158 ، 159.

[7] ابن بلكين: **التبيان** ، 181.

ومع ذلك فليس هناك ما يثبت خضوع المعتمد بن عباد لضغوط الملك النصراني أو التحالف معه خلال الفترة التي سبقت السقوط النهائي لغرناطة في يد المرابطين أي قبل 483هـ/1090م، والأمر نفسه ينطبق على المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس.

ب- دور الفقهاء في سقوط ملوك الطوائف:

كان لعبور المرابطين إلى الأندلس، الدور الكبير في تفجير القوى الاقتصادية والاجتماعية الداخلية التي كانت مستاءة من الوضع القائم، وتسعى إلى سحق نظام دول الطوائف والقضاء عليه. و لم تكن لهذه القوى، بما في ذلك الفقهاء، الجرأة على معارضة السلطة بشكل صريح وعلني قبل قدوم المرابطين لكنّ الأوضاع سرعان ما تغيّرت عندما ظهرت هذه القوة الجديدة التي يمكن تحكيمها في هذا الصّراع بل وتهديد ملوك الطوائف بها[1].

جاء الهجوم الذي قاده الفقهاء، ورجال الدين على ملوك الطوائف، في شكل حملات إعلامية تهدف بالدرجة الأولى إلى تأليب الجماهير ضدّهم، وكان أخطر التُهم التي وجّهوها إليهم هي فرضهم ضرائب مجحفة على رعاياهم، تتنافى وأحكام الشرع الإسلامي، وطالبوا يوسف بن تاشفين بوضع حدّ لهذه التّجاوزات[2].

لقد قام الفقهاء بدور بارز في مساندة يوسف بن تاشفين ومناصرته ضدّ ملوكهم، والغريب أنّ مبعوثي هؤلاء الملوك إلى يوسف بن تاشفين قبل معركة الزلاقة، كانوا من الفقهاء، و لم يتردّد أحدهم في انتقاد ملكه بشكل لاذع، ورغم ذلك، وجد أولئك الملوك أنفسهم عاجزين عن القيام بأي رد، مع إدراكهم لخطورة تلك التطورات[3].

لا شكّ أنّ الفقهاء، قد ذاع صيتهم في هذه الفترة، التي تزامنت مع ظهور المرابطين بشكل قوي على الساحة الأندلسية، و لم يكن ذلك محض الصدفة، بل كان له علاقة مباشرة بمكانة الفقهاء في دولة المرابطين، لذا حاول ملوك وأمراء الطوائف التقرّب من المرابطين في البداية عن طريق الفقهاء[4].

كان خلاف الفقهاء مع ملوك الطوائف، ينطلق في غالب الأحيان من مبادئ شريفة، كالغيرة على

---

[1] استطاع القاضي ابن القليعي الجهر بمعارضة الأمير الزيري عبد الله، والدعوة علنًا للعصيان المدني عن طريق الامتناع عن دفع الضرائب. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 137 ، 138.

[2] ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 261.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 148، 149.

[4] كان رسل ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين من الفقهاء لإقناعه بضرورة النهوض لمساعدة إخوانه المسلمين في الأندلس، وكان منهم القليعي، وابن مُقانا، وابن أدهم. أنظر: ابن الأبار: **الحلة السيراء**، 99/2.

الدّين، وحرصهم عل مدافعة الخطر النصراني أمام التّراخي الذي أبداه ملوك الطوائف في هذا الجانب وهذا لا ينفي وجود عداءات شخصية دافعها الأساسي هو الانتقام من بعض هؤلاء الملوك، مثلما كان الحال بالنسبة للقاضي ابن القليعي، الذي كان على خلاف مع باديس بن حبوس، وأراد الانتقام منه بعد وفاته، بواسطة حفيده عبد الله بن بلكين[1].

واتهم الفقهاء، ملوك الطوائف، زيادة على الضرائب المُرهقة، بتهمة أخرى أخطر من سابقتها وهي التآمر مع الملك النصراني ألفونس على الإسلام والمسلمين، و لم يستطع ملوك الطوائف دفع هذه التهمة عنهم، بعدما تبين خضوعهم مجدّدًا للملك النصراني، وقبولهم بدفع الجزية له. ورغم جهود الأمير عبد الله بن بلكين في الدّفاع عن نفسه وتبرير موقفه بأنّ الجزية المقدّمة لم تكن ترهق رعيّته لأنّها كانت من حرّ ماله، فإنّ هذا المبرّر لم يُقنع يوسف بن تاشفين، الذي ازداد غضبًا عليه وقرّر إسقاطه والقضاء على حكمه[2]. أمّا ملوك الطوائف الآخرين كالمعتمد بن عباد، والمتوكل بن الأفطس، فقد بقيا على ولائهما الظّاهري ليوسف بن تاشفين، واتّصلا في المقابل بألفونس السادس لتجديد معاهدات التحالف معه. واستمرّا في سياستهما هذه إلى غاية سقوط غرناطة في يد المرابطين سنة 483هـ/1090م، حينها فقط، أدركا أنّ يوسف بن تاشفين عازم على خلعهما، وأنّه سوف يسقيهما من نفس الكأس التي سقى بها عبد الله بن بلكين[3].

استند يوسف بن تاشفين على هذه المبرّرات لخلع ملوك الطوائف، لكنّه وجد نفسه أمام التزام أخلاقي كبير منعه من تنفيذ خطّته، ويتمثّل هذا الالتزام في العهد الذي قطعه لهؤلاء الملوك بعدم الاعتراض لهم أو خلعهم عن عروشهم أثناء الاتصالات التي سبقت معركة الزلاقة. لكنّ الفقهاء قدّموا له المبرّر الشرعي الذي كان يبحث عنه لرفع أي اتّهام قد يوجه إليه، وقالوا له: ((هؤلاء الرؤساء لا تحلّ طاعتهم، ولا تجوز إمارتهم، لأنّهم فسّاق، فجرة فاخلعهم عنّا، فقال لهم: وكيف يجوز لي ذلك وقد عاهدتهم وارتبطت معهم على إبقائهم!؟، فقالوا له: إن كانوا عاهدوك فهاهم قد ناقضوك وأرسلوا إلى ألفنش (يعني ألفونس السادس) أن يكونوا معه عليك، حتى يوقعوك بين يديه ويعود أمرهم إليه، فبَادِرْهُم بخلعهم بجمعهم، ونحن بين يديّ الله المحاسبون، فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون

---

[1] بلغ الأمير الزيري عبد الله، أنّ القاضي ابن القليعي قال فيه: ((والله لأُبْلِغَنَّ حفيد باديس الطينة السوداء، ولأُشوّقه إلى درهم ينفقه، وذلك على صنيع جدّه بي وبغيري!))، وهذا يؤكّد أنّ أسباب العداء بين القليعي والأمير عبد الله كانت شخصية في الأساس. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 148 ، ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 262.

[2] ابن بلكين: **التبيان** ، 158 ، ابن عبود: **التاريخ السياسي** ، 262، 263.

[3] مجهول: **الحلل الموشية** ، 72.

فإنّك إن تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم، وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى))[1].

ويبدو لي أنّ يوسف بن تاشفين كان شديد الحذر والتردّد في الإقدام على خلع ملوك الطوائف بدليل أنّه لم يكتف بالفتوى التي صدرت عن فقهاء الأندلس، وقد يُفهم من ذلك، أنّه كان يشعر بالبغض الشّديد الذي يكنّه الفقهاء لملوك الأندلس، فلا غرابة أن تأتي فتاويهم في غير صالح هؤلاء الملوك، لذلك أرسل إلى المشرق، يطلب فتاوى كبار علماء ذلك العصر، مثل الغزالي والطرطوشي[2].

وهكذا اجتمعت ليوسف بن تاشفين المبرّرات المادية والشرعية التي كانت تعوزه لقتال ملوك الطوائف والقضاء عليهم، فبدأ بصاحب غرناطة الأمير عبد الله بن بلكين ثمّ ثنّى بالمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية[3].

جـــ- موقف ألفونس السادس من خلع المرابطين لملوك الطوائف:

بعدما قرّر يوسف بن تاشفين وضع نهاية لحكم ملوك الطوائف، كان يدرك حجم الصعوبات التي تواجه هذا الهدف. وقد سبق وأشرت إلى الاحتياطات التي اتّخذها لتدليل هذه الصعوبات، كاستفتاء الفقهاء والعلماء من أجل الحصول على مبرّرات شرعية من شأنها كسب ولاء الشعب الأندلسي أو حيّاده على الأقل وعدم اعتراضه على هذا المشروع[4].

وجاء تركيز يوسف بن تاشفين منذ البداية على أمير غرناطة، فحاول عزله عن باقي ملوك الطوائف ونجح في ذلك إلى حدّ بعيد[5]، و لم يكن اختياره لغرناطة مصادفة، بل كان على تمحيص دقيق للواقع السياسي لدول الطوائف، ومعرفة تامة بموازين القوى الموجودة هناك، فإمارة غرناطة، كانت تتمتّع بموقع إستراتيجي هام بالنسبة لبلاد المغرب، فحصول المرابطين عليها من شأنه أن يؤمّن لهم عبورًا

---

[1] ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 106 ، 107.

[2] ابن خلدون: **العبر** ، 221/6.

[3] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 163.

[4] وقف الشعب الأندلسي إلى جانب المرابطين أثناء خلعهم لملوك الطوائف، لأسباب مختلفة، ممّا أدّى إلى تمكّن المرابطين من القضاء على معظم ملوك الطوائف بسرعة وفعالية تدعو للدّهشة، وقد قدّم الأمير عبد الله الزيري في مذكراته وصفًا دقيقًا لسرعة سقوط الحصون والمدن في مملكة غرناطة وربطها بتحالف الشعب الأندلسي مع المرابطين. أنظر: **التبيان** ، 182 ، 183 ، 184.

[5] استطاع يوسف بن تاشفين عزل صاحب غرناطة ومنعه من التحالف مع ملوك الطوائف الآخرين، بأن حافظ على صفو علاقته بهم ولو ظاهريا، ممّا دفعهم إلى الاستمرار في إرضائه بالابتعاد عن صاحب غرناطة، الذي أصبح محل غضب المرابطين. أنظر: ابن بلكين: **التبيان** ، 200.

سهلاً إلى الأندلس دون أن يكونوا تحت رحمة ابن عباد صاحب اشبيلية، إضافة إلى ضعف أميرها عبد الله بن بلكين، وعدم قدرته على المقاومة لفترة طويلة، وكلّها عوامل جعلت يوسف بن تاشفين يفضّل البدء بالإمارة الأضعف والأقرب إلى بلاده.

وفي المقابل، كان يوسف بن تاشفين يتخوّف من التحالف الذي عقده عبد الله بن بلكين مع ألفونس السادس، فالأمير الزيري، لم يستطع إنكار هذا الحلف، لكنّه حاول أن يصوّره في شكل خضوع طرف ضعيف لطرف قوي، ليرفع اللّوم عنه عند المرابطين[1]. كما لا يمكن أن نقلّل من شأن السّعايات والدّسائس لبعض الأندلسيين من غرناطة الذين صوّروا أميرها عبد الله لدى يوسف بن تاشفين، بمظهر المتآمر الذي ينوي تسليم البلد للنصارى والتواطؤ معهم على المسلمين[2].

ويبدو أنّ هذه التّهم وجدت قبولاً عند الأمير المرابطي، الذي قرّر الجواز سنة 483هـ/ 1090م إلى الأندلس في نيته التخلّص من عبد الله الزيري ومَنْعِه من تسليم غرناطة للنصارى[3].

بعد وصول القوات المرابطية إلى أطراف غرناطة، أرسل يوسف بن تاشفين كُتبه إلى مدنها وحصونها، يأمر فيها بالطاعة والتسليم، ولم ترد هذه الكتب على معقل منها، إلاّ وألقى بيده، ومن امتنع منها قاتلته الرعية مع المرابطين، حتى تناثرت المعاقل كلّها كانتثار العقد، حسب وصف الأمير عبد الله بن بلكين[4].

وبعد حصار دام شهرين[5]، استسلم الأمير الزيري للمرابطين سنة 483هـ/1090م، بعدما أمّنوه في النفس والأهل دون المال ونُقل منفيا إلى مراكش ثمّ إلى أغمات، وكذلك فُعل بأخيه تميم صاحب مالقة[6].

ومن الغريب أن يقف الملك النصراني ألفونس السادس موقف المتفرّج على عزل المرابطين لحليفه صاحب غرناطة،دون القيام بجهد يذكر لمساعدته على مواجهة المرابطين وتركه يواجه مصيره المحتوم!.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 156.

[2] ساهم ابن القليعي ، وأبو بكر بن مسكّن في تشويه صورة الأمير عبد الله بن بلكين لدى المرابطين.أنظر :ابن بلكين: **التبيان** ، 158.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 158.

[4] نفسه ، 182.

[5] ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، 154.

[6] ابن بلكين: **التبيان** ، 194 ، 195 ، 196 ،206، مجهول: **الحلل الموشية** ، 71، ويذكر ابن الكردبوس رواية مختلفة، مفادها أنّ يوسف بن تاشفين تمكّن عن طريق الغدر من القبض على الأمير عبد الله والحصول على غرناطة. أنظر:**الاكتفاء** ، 105.

من الثّابت أنّ الملك ألفونس لم يكن راضيا عن التدخّل المرابطي في شؤون الأندلس، لأنّ هذا التدخّل أعاق حركة الاسترداد في اسبانيا وأربك سياسته التوسعية فيها، ومع ذلك لم يحاول وقف المشروع المرابطي منذ البداية، ووجد نفسه عاجزًا عن مساعدة الأمير عبد الله، مع أنّ هناك اتفاقية تربط بين الرجلين، تعهّد خلالها ألفونس السادس بمساعدة صاحب غرناطة، إذا ما دهمه خطر المرابطين[1]. لكنّ الأمير عبد الله، شكّك منذ البداية في جدّية هذا الوعد الذي قطعه ألفونس واعتبره من قبيل التّطمين لأخذ المال[2].

ويبدو لي أنّ السبب الحقيقي الذي منع ألفونس من التّدخل، هو الخطّة الذّكية ليوسف بن تاشفين الذي تظاهر أثناء جوازه الثالث إلى الأندلس سنة 483 هـ/1090م، بأنّ هدف حملته هذه، هي مدينة طليطلة، حيث تذكر إحدى المصادر في هذا الصّدد، أنّه بلغ أطراف مدينة طليطلة وألفونس متحصّن داخلها لم يجرؤ على الخروج لمواجهته، ثمّ عاد مسرعًا وفرض حصاره على غرناطة[3]، وبذلك لم يترك الفرصة لألفونس ليساعد حليفه لأنّه انشغل بالدفاع عن نفسه.

كما لا يمكن أن نقلّل من أهمية العامل الجغرافي في استراتيجية ألفونس الدفاعية أمام الزحف المرابطي، لأنّ سقوط غرناطة في يد المرابطين، وهي الإمارة الصغيرة والضعيفة، لا يقارن بسقوط الممالك الكبرى المجاورة له، كاشبيلية أو بطليوس[4].

وبعد مرور عام واحد على سقوط غرناطة في يد المرابطين، قرّر يوسف بن تاشفين استكمال خطته التي ترمي إلى ضمّ الأندلس، والتخلّص من حكم ملوك الطوائف، حيث تحرّك سنة 484هـ/1091م إلى مدينة سبتة للإشراف على عبور قواته إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم، فقدّم ابن عمّه الأمير سير بن أبي بكر على عدد من العسكر، وأمره بمحاصرة ابن عباد باشبيلية، وأوعز إليه أنّه إذا فرغ من شأنه، أن يتقدّم لمحاصرة المتوكّل بن الأفطس صاحب بطليوس[5]

---

[1] قال عبد الله بن بلكين لرسول ألفونس أثناء تجديد التحالف معه: ((إنّا مغرّرون في هذه الفعلة معك، وستدركنا تباعاتها عند المرابطين، ونُطالَب بذلك!))، فقال، تسهيلاً لأخذ ماله: ((متى أدرككم في ذلك منه طلب، فعليّ الذّب عن مدينتكم)). أنظر: **التبيان** ، 156

[2] ابن بلكين: **التبيان** ، 156.

[3] ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، 153 .

[4] على خلاف سقوط غرناطة في أيدي المرابطين، سارع ألفونس السادس لإنقاذ إشبيلية من السقوط. أنظر: ابن أبي زرع : **روض القرطاس** ، 155.

[5] مجهول: **الحلل الموشية** ، 72 ، وتختلف رواية صاحب الحلل الموشية مع رواية ابن أبي زرع التي يذكر فيها أنّ يوسف بن تاشفين فوّض أمر الأندلس إلى قائده سير بن أبي بكر وقفل عائدًا إلى العدوة دون أن يأمره بشيء في =

وأمر أبا عبد الله بن الحاج بمنازلة الفتح الملقب بالمأمون ابن المعتمد بن عباد، الذي كان واليا على قرطبة[1]، وكلّف جؤذر الحشمي[2] بمنازلة الراضي ولد المعتمد برندة[3]، أمّا مملكة المرية، فأُسند أمر حصارها إلى أبي زكريا بن واسينو وكان بها يومئذ المعتصم بن صمادح[4].

كان المرابطون يدركون أهمية إشبيلية الاستراتيجية والمعنوية، فسقوطها يعني سقوط غرب الأندلس في أيديهم، لذلك كلّف يوسف بن تاشفين أفضل قوّاده وهو سير بن أبي بكر بهذه المهمّة، و لم يتوقّع المرابطون أن تستعصي عليهم هذه المدينة كل ذلك الحد. حتى قال سير بن أبي بكر: ((لو أنّني أقصد مدينة الشرك، لم تمتنع هذا الامتناع!)) [5].

وعندما اشتدّ الحصار على المعتمد بن عباد، أرسل إلى ألفونس السادس يستغيث به ويستصرخه على المرابطين، فسارع لنجدة حليفه المعتمد، بجيش كبير من قواته[6]. مع أنّ هذه المساعدة لم تُغن عن المعتمد بن عباد شيئا، فقد انهزمت قوّات ألفونس أمام المرابطين قرب حصن المدوّر[7]، وفقد المعتمد الأمل في مساعدة النصارى، واستبسل في الدفاع عن مدينة اشبيلية، حتى تمكّن المرابطون من اقتحام المدينة في 22 رجب 484هـــ/7 سبتمبر 1097م، وقبضوا على المعتمد بن عباد وساقوه أسيرًا

= شأن ابن عباد. أنظر: **روض القرطاس** ، 154، ويفهم من هذا النص أنّ سير بن أبي بكر قام باقتحام اشبيلية من تلقاء نفسه وهو ما يصعب قبوله، وأنا أميل إلى النص الأوّل لصاحب الحلل، لأنّه من الصّعب القبول بأنّ سير بن أبي بكر قام بإسقاط ملوك الطوائف دون أن يتلقّى أوامر من يوسف بن تاشفين.

(1) قتل المرابطون الفتح بن المعتمد بعد دخولهم قرطبة، وفرّت زوجته زايدة إلى النصارى وهي حانقة على المرابطين فتنصّرت، ثم تزوجها ألفونس وأنجب منها ولده الوحيد شانجه، وسبق لي وناقشت قصة ادّعاء المصادر النصرانية أنّها ابنة المعتمد بن عباد.

(2) ذكره الأمير عبد الله بن بلكين باسم قرور. أنظر: **التبيان** ، 205.

(3) راجع تفاصيل دخول المرابطين رندة ودوافع جؤدر الحشمي أو قرور لقتل صاحبها الراضي ابن المعتمد. في: ابن بلكين: **التبيان** ، 205.

(4) مجهول: **الحلل الموشية** ، 72.

(5) ابن بلكين: **التبيان** ، 205.

(6) ينفرد ابن أبي زرع بين المصادر بذكر عدد القوات النصرانية التي أرسلها ألفونس السادس لمساعدة المعتمد بن عباد في حربه مع المرابطين، وقال أنها تكونت من عشرين ألف فارس وأربعين ألف راجل، والظاهر أنّ هذا العدد مبالغ فيه. أنظر: **روض القرطاس** ، 155.

(7) حصن المدوّر:حصن يقع بين قرطبة واشبيلية . أنظر: الإدريسي: **نزهة المشتاق** ، 574/2.

إلى أغمات في صحبة زوجته اعتماد الرميكية وبناته، وهناك نظَم قصائده الشهيرة التي يرثي فيها مُلكَه الضائع، وبقي هناك حتى توفي في سنة 488هـ/ 1095م[1].

لقد تمكّن سير بن أبي بكر وباقي قواد يوسف بن تاشفين من تنفيذ المهام التي كلّفوا بها وسقطت في أيديهم معظم ممالك وإمارات جنوب وغرب الأندلس، ولم يبق سوى مملكة بطليوس، وبقي شرق الأندلس مسرحًا لمغامرات السيد الكمبيادور تارة وألفونس السادس تارة أخرى[2].

أمّا مملكة بطليوس، فقد استطاعت الصّمود لثلاث سنوات أخرى بعد سقوط اشبيلية. ويرى أحد الباحثين أنّ الفضل في ذلك يعود إلى جهود المتوكل الأفطس، الذي وثّق أواصر المودّة مع المرابطين خاصة مع سير بن أبي بكر فاتح اشبيلية وحاكمها الجديد[3].

وفي أوائل سنة 488هـ/1095م، بعث حاكم اشبيلية سير بن أبي بكر جيشًا إلى بطليوس لافتتاحها، ولم يجد صعوبة في اختراق أراضيها، ولم يتمكّن ألفونس من تقديم أيّة مساعدة لحليفه المسلم[4]. والظّاهر أنّ المتوكّل بن الأفطس قد أعاد علاقاته مع الملك النصراني قبل هذه الفترة، حيث تذكر المصادر أنّه تنازل للملك ألفونس عن ثلاث مدن هامّة من أملاكه، وهي أشبونة Lisbona وشنترة Cintra وشنترين Santarem ، كثمن لهذا التحالف الجديد[5]، ولا شكّ أنّ هذا التّصرّف قد جلب عليه غضب المرابطين وقبلهم أهل بطليوس وأعيانها الذين لم يتردّدوا في استدعاء المرابطين لتخليصهم من حكم بني الأفطس[6]. كما لا أستبعد أن يكون لقتل المتوكل بن الأفطس مع ولديه الفضل والعباس، علاقة بتسليم هذه المدن للنصارى[7].

ومع ذلك لا يبدو لي أنّ هذا السبب كافٍ ليقوم سير بن أبي بكر بالتّنكيل بالمتوكل بن الأفطس وولديه، ولابدّ من وجود أسباب أخرى انضافت إلى السبب السابق، جعلت المرابطين يقرّرون قتله خلافًا لما قاموا به مع ملوك الأندلس الآخرين[8].

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 205 ، ابن خلدون: **العبر** ، 222/6 ،(طبعة دار الفكر).

[2] سبقت الاشارة إلى أوضاع شرق الأندلس، وعلاقته بالنصارى في الفصل الثاني من هذا البحث، ص105-113.

[3] عنان: **دول الطوائف** ، 368.

[4] نفسه ، 369.

[5] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 185 ، 186 ، عنان: **دول الطوائف** ، 368 ، 369 .

أنظر أيضا: Dozy. **Histoire**. T4. p. 244.

[6] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 186 ، ابن بلكين: **التبيان** ، 206 ، 207.

[7] راجع تفاصيل سقوط بطليوس وإعدام صاحبها مع ولديه في: ابن بلكين: **التبيان** ، 208 ، 209.

[8] يُعدّ المتوكل بن الأفطس الوحيد بين ملوك الطوائف، الذي تعرّض للقتل على أيدي المرابطين.

لقد أبدى المتوكل بن الأفطس شجاعة كبيرة في الدفاع عن مدينته، دفعت بالمرابطين إلى استخدام الحيلة والاستعانة بابن رشيق لتأليب الناس على مَلِكِهم، حيث استطاع إقناعهم بضرورة فتح الأبواب للمرابطين ليلاً، فتمكّن المرابطون من دخول المدينة[1]. ويذكر ابن الخطيب أنّ عمر المتوكّل بعث بولده المنصور إلى حصن شانجش ليتحصّن به وجعل عنده ذخائره[2]، وهذا قد يفسّر لنا الغضب الشديد الذي أبداه سير بن أبي بكر نحوه، فقرّر قتله صبرًا مع ولديه، بعد أن عَذّبوه لاستخراج أمواله مع حبّ قواد المرابطين للمال كما يذكر الأمير عبد الله بن بلكين[3].

لم يستطع الملك النصراني ألفونس السادس تقديم المساعدة لإبن الأفطس أثناء حصار المرابطين للمدينة، رغم أنّ الخطر المرابطي أصبح قريبًا جدًّا من بلاده، وهذا بلا شك يؤكّد عجزه التام عن مواجهة قوة المرابطين، بعدما أدهشته سرعة انتشارهم في فتح مدن الأندلس، لذلك اقتصر سعيه على استضافة المنصور بن عمر المتوكل الذي لجأ إليه بأهله وماله واعتنق النصرانية حسب إحدى الروايات[4] واشترك معه في محاربة المسلمين انتقامًا — فيما يبدو- من المرابطين، لما جري على أيديهم من قتل أبيه وأخويه[5].

وقد تركت محنة بني الأفطس أثرها العميق في الشعر الأندلسي، وقام وزير بطليوس وشاعرها عبد المجيد بن عبدون برثاء مُلكِهم الضائع بقصيدته الغرّاء التي مطلعها: [البسيط]

الدّهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور[6].

و لم يستثن المرابطون في توسعاتهم سوى مملكة سرقسطة والثغر الأعلى، التي كانت تتمتّع بأوضاع خاصة، بحكم موقعها المنعزل في أقصى الشمال الشرقي للأندلس.

أثار إبقاء المرابطين على حكم المستعين بن هود (478- 503هـ)/(1085- 1110م) صاحب سرقسطة تساؤل العديد من المؤرخين ، فحاولوا البحث عن الأسباب التي تقف وراء هذه السياسة غير المعهودة للمرابطين نحو ملوك الطوائف!.

---

[1] ابن بلكين: **التبيان** ، 208.

[2] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 186.

[3] ابن بلكين: **التبيان** ، 187.

[4] ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 186.

[5] ابن بلكين: **التبيان** ، 209. ويذكر ابن عذاري أنّ المنصور بن عمر المتوكل عاد إلى اشبيلية بعد مغادرة أرض النصارى، وانتقل بعد ذلك إلى المغرب ومَثَلَ بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف، حيث قرّبه وأدناه منه ورفع مترلته. أنظر: **البيان المغرب** ، 56/4.

[6] راجع القصيدة في: ابن خاقان: **قلائد العقيان** ، 38 – 41، ابن بسام: **الذخيرة** ، ق2 ، مج2 ، 425- 427.

فذكر النويري أنّ يوسف بن تاشفين تعمّد الإبقاء على المستعين بن هود في سرقسطة ليكون له حاجزًا بين المرابطين والنصارى، واستمرّ في نفس السياسة معه حتى اقتربت منيته فأوصى ابنه علي بن يوسف بعدم التعرض إلى بلاد بني هود، وقال له: ((أتركهم بينك وبين العدو فإنّهم شجعان))[1].

ويضيف ابن بسام سببًا آخر، يتلخّص في السياسة الدّقيقة التي اتّبعها المستعين بن هود نحو المرابطين منذ أن شعر بخطرهم يقترب منه شيئًا فشيئًا، فتحالف مع السيّد الكمبيادور وساعده في احتلال بلنسية عام 487هـ/1094م، ليجعلها حاجزًا بينه وبين المرابطين[2].

أمّا ابن الخطيب فيوافق النويري فيما ذهب إليه، لكنّه لم يهمل الجهد الكبير الذي بذله المستعين بن هود في موادعة يوسف بن تاشفين وملاطفته بالرسائل والهدايا[3]. حتى نال رضاه، واستطاع بذكائه وحسن تدبيره، البقاء في مملكته يهدّد النصارى بالمسلمين ويهدد المسلمين بالروم[4]، حتى استشهاده في سنة 503هـ/ 1110م[5]، ودخول المرابطين إلى سرقسطة في نفس السنة[6].

وبسقوط سرقسطة، استطاع المرابطون القضاء على آخر ملوك الطوائف، وتوحيد الأندلس تحت رايتهم، بعدما استمر عصر الفرقة بها ما يقارب الثمانين عامًا، لتعود الوحدة من جديد إلى الأندلس تحت لواء دولة المرابطين.

---

(1) النويري: **نهاية الأرب** ، 270/24.

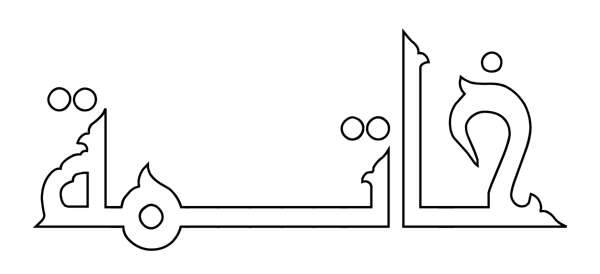
(2) ابن بسام: **الذخيرة** ، ق3 ، مج3 ، 59 ، أنظر أيضًا مؤنس: **الثغر الأعلى** ، 16.

(3) **أعمال الأعلام** ، 173 ، سالم: **تاريخ المغرب الكبير** ، 733/2 ، 734. أنظر نص الرسالة التي ردّ بها يوسف بن تاشفين على رسالة المستعين بن هود، يجيبه فيها إلى طلبه ويَقْنَع منه بمسالمته في: مجهول: **الحلل الموشية** ، 74 ، ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 174.

(4) مجهول: **الحلل الموشية** ، 75 ، أنظر أيضا: ابن الكردبوس: **الاكتفاء** ، 110.

(5) استشهد أحمد المستعين في معركة حاسمة دارت بينه وبين ملك أراغون ألفونسو الأول (498-529هـ)/(1105-1134م) المعروف بالمحارب Alfonso el Batallador ، وهي الموقعة التي تعرّفها الرواية النصرانية باسم معركة فالتييرا (Valtierra) في رجب ، 503هـ/ يناير 1110م ، وخلفه في الحكم ولده عبد الملك الذي اعتمد على النصارى بشكل كلّي ممّا جلب عليه نقمة الرعية التي قرّرت استدعاء المرابطين الذين تمكّنوا من دخول المدينة في نفس السنة أي في 10 ذي القعدة 503هـ/01 جوان 1110م . أنظر: ابن عذاري: **البيان المغرب** ، 55/4 ، عنان: **دول الطوائف**، 291 مؤنس : **الثغر الأعلى** ، 18.

(6) ابن الخطيب: **أعمال الأعلام** ، 175.


خاتمة

خاتمـــــــــة:

إنّ دراستي لموضوع العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف قادني في نهاية المطاف إلى استنتاجات هامة يمكن تلخيصها فيما يأتـــي:

قامت السياسة الخارجية لملوك الطوائف على الاستعانة بالنصارى الاسبان والاستقواء بهم على بعضهم البعض، وعادة ما كان دافعها الرغبة في التوسع الخارجي، لأنّ هذه الممالك الاسلامية الضعيفة، لم تكن قادرة على تنفيذ مشاريع توسعية منفردة، فلا قوتها العسكرية ولا إمكاناتها الاقتصادية كانت تسمح بذلك، ورأى ملوك اسبانيا النصرانية في هذه الخطوة فرصة ثمينة لعرض خدماتهم على المسلمين وتأجير جيوشهم وقوادهم لملوك الطوائف،في سياسة تقوم على من يدفع أكثر، فكانت علاقاتهم بالمسلمين في البداية تعتمد على الارتزاق، ونلحظ هذه الصورة من العلاقات عند أمراء برشلونة بوجه خاص.

إنّ تطور سياسة ملوك الطوائف الخارجية نحو ملوك اسبانيا جاءت في شكل خضوع مع تسليم بالضعف، بإرادتهم تارة، أو لظروف واقعية فرضتها قوة الطرف الآخر تارة أخرى، لكنّ الهدف يبقى نفسه، وهو تحقيق أطماع توسعية. وحينما كانت هذه السياسة تفشل، لجأ بعض ملوك الطوائف للتلويح بالرفض ومحاولة التصدر للضغوط النصرانية .

أمّا سياسة ملوك النصارى فكانت واضحة الأهداف وإن تعدّدت وسائل تحقيقها، تُحَرّكُها فكرة استرداد الأندلس من المسلمين ، ولما أدرك ملوك اسبانيا صعوبة تحقيق هذا الهدف عن طريق الاحتلال العام للأندلس، ومحاربة ملوك الطوائف دفعة واحدة، فقد اعتمدوا على التدرج في إضعاف المسلمين وكانت وسيلتهم الأساسية، هي تحصيل أكبر قدر من الأموال في شكل جزئَ، حتى إذا فرغت الأموال وانهار الاقتصاد كان القضاء على الوجود الاسلامي أمرًا سهلاً وبأقل التكاليف. و لم تكن أبعاد هذه السياسة تخفى على ملوك الطوائف، لكنّ شهوة الحكم أعمت بصائرهم، فلم ينتبهوا إلاّ ونهايتهم أضحت وشيكة على يد النصارى الاسبان.

لقد فقد المسلمون في عصر ملوك الطوائف حماستهم، التي انعكست بشكل سلبي على قوتهم العسكرية، ممّا أضعف موقفهم أمام النصارى أثناء المفاوضات، التي غالبًا ما كانت تنتهي في غير صالح المسلمين، وعلى العكس من ذلك كان ملوك اسبانيا النصرانية في معظمهم أكثر تدينا من ملوك الطوائف، وكان الدين محرّكًا أساسيا لحركة الاسترداد، التي ميّزت سياسة ملوك النصارى نحو المسلمين طيلة القرن 5هـــ/11م.

لكنّ الإفراط في هذه الحماسة الدينية التي ظهرت على ألفونس السادس بوجه خاص، جعلته يتبنّى سياسة متعسّفة نحو ملوك الطوائف -بعد سقوط طليطلة سنة 478هـ/1085م- تهدف إلى القضاء على وجودهم واحتلال أراضيهم، ممّا دفع بهم إلى إشراك طرف خارجي في هذا الصراع والاستنجاد بدولة المرابطين لوضع حدّ لأطماع هذا الملك النصراني، ومع أنّ هذا التصرّف انعكس سلبا على مستقبل ملوك الطوائف وعجّل بنهايتهم المحتومة، لكنّه في المقابل ساهم بشكل أو بآخر في استمرار الحكم الاسلامي للأندلس أربعة قرون أخرى.

وفي الأخير يمكن القول، أنّ التناقض والفوضى التي ميّزت السياسة الخارجية لملوك الطوائف بالقوى النصرانية، كانت السبب الأساسي في انهيار حكمهم ونهاية وجودهم، فاسحين المجال للحكم المرابطي الذي استطاع توحيد الأندلس من جديد تحت راية الاسلام.

ملاحـــــق البحـــــث:

- الرسائل.
- الجداول.

ملحق رقم 01:

مقتطف من الرسالة التي وجهها المتوكل بن الأفطس إلى يوسف بن تاشفين يشكوا فيها من اعتداءات النصارى على بلاده:[1]

((لما كان نور الهدى -أيّدك الله- دليلك وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنّك لدولة الاسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تستدعى، لما أعضل الداء، وتستغاث فيما أحاط بالجزيرة من البلاء.

فقد كانت طوائف العدو تطيف بها عند إفراط تسلطها واعتدائها وشدة ظلمها، واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستترل بالأموال، ويخرج لها من كل ذخيرة وتسترضى بكل خطيرة.

و لم يزل دأبها التشطط والعناد، ودأبنا الاذعان والانقياد، حتى نفد الطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، وأضرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم، فإنما هم في أيديهم أسارى وسبايا يمتحنوهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا لله، ويا للمسلمين، أيسطو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكشف هذه البلية إلا النصر.

ألا ناصرا لهذا الدين المهتضم، ألا حاميا لما استبيح من حمى الحرم ؟ وأنا لله على ما لحق عبيده من ثكل،وعزه من ذل ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك، أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية، أعادها الله للإسلام، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد حتى تخلطت القضية، وتضاعفت البلية، وتحصلت بيد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصن والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة، تدركها من جميع الجهات، دائرة بنواحيها ويستوي فيء الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خانق، ورمق زاهق، استولى عليه عدو مشرك، وطاغية منافق، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالا، وتبادروا ركبانا ورجالا، وتنفروا نحوها خفافا وثقالا، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله، فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنكم إلى معرفته أهدى، وفي كتابي هذا (الذي يحمله إليكم) الشيخ الفقيه الواعظ (مسائل مجملة) يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكت هو يبينها لكم ويوضحها، فإنه

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 34- 36.

– لما توجه نحوك احتسابا، وتكلف المشقة إليك طالبا ثوابا– عولت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسلام)).

ملحق رقم 02:

رد المتوكل بن الأفطس على رسالة التهديد التي تلقاها من ألفونس السادس: [1]

((وقد وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مدع في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق ويجمع تارة يفرق، ويهدد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة، ولو علم أن لله جنودا أعز بهم ملة الاسلام وأظهر بهم دين نبينا محمد عليه السلام: ((أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ))[2]، بالتقوى يعرفون وبالتوبة يتضرعون وينصرون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة فبإذن الله ((وَلِيَعْلَمَ الْمُؤمِنِينَ))[3] ((لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ))[4] ((وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ))[5].

وأما تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم، فبالذنوب المركوبة، والفرقة المكتوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك، لعلمت أي مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع أبنائنا تتجرعه، فلم تزل تذيقها من الحمام، وضروب الآلام، شر ما تراه وتسمعه، وأداء المال تتوزعه وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك اهداء ابنته إليه، مع الذخائر التي كانت تفد في كل عام عليه.

وأما نحن، وإن قلت أعدادنا، وعدم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلا سيوفا تشهد بحدها رقاب قومك، وجلادا تبصره في ليلك ويومك، وبالله تعالى وملائكته المسومين، نتقوى عليك، ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما ((تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ)) [6]: نصر عليكم، فيا لها من نعمة ومنة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض ممّا به هددت، وفرج يبتر ما مددت، ويقطع بك فيما أعددت)).

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 36- 37.

[2] **المائدة** : 56.

[3] **آل عمران**: 166.

[4] **الأنفال**: 37.

[5] **العنكبوت**: 10.

[6] **التوبـــة** : 52.

ملحق رقم 03:

رسالة ألفونس السادس إلى المعتمد بن عباد يطلب منه الطاعة والخضوع و تسليم أعماله :[1]

((... من الكنبيطور، ذي الملتين، الملك المفضل، الأذفنش بن شانجه، إلى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد:

سلام عليك، من مشيد ملك شرفته القنا، ونبتت في ربعه المنى، فاعتز اعتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها، وما صار بأهلها حين حصارها فأسلمتم إخوانكم، وعطلتم بالدعة زمانكم، والحذر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلا من يخاف الفوت فيما يرومه، أو يخشى الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا الرسالة إليكم القرمط ألبرهانس، وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدق ويجل، وفيما يصلح لا فيما يخل وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك يسعى بيمينك وبين يديك)).

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 38- 39.

ملحق رقم 04:

رد المعتمد بن عباد على رسالة ألفونس السادس :[1]

((من الملك المنصور بفضل الله، المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله، أبي عمرو بن عباد، إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجة، الذي لقب نفسه بملك الملوك، وسماها بذي الملتين، قطع الله دعواه.

سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإنه أول ما نبدأ به من دعواه، أنه ((ذو الملتين)) والمسلمون أحق بهذا الاسم، لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، ومجبى المملكة، لا تملكه قدرتكم، ولا تعرفه ملتكم، وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز نسخه الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة، قلت في أثنائها: ليس، ولا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك وانا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد ولدينا من كماة الفرسان، وجيل الإنسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار، وتنعاهم الهام في القفار، يديرون رحى المنون بحركات العزائم ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقوكم جلادا، رتبة الاتفاق وشفارا حدادا شحذها الاصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقضت من نومة تجدد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة أو وقفة متساعدة، إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر: ((لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ))[2]، ظنوا المعاقل تعقل والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة، ما أوجب العقود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم، وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك، بما الموت دونه، وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرتنا إليك والله ينصر دينه الكريم: ((وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ))[3]، والسلام على من علم الحق فاتبعه واجتنب الباطل وخدعه)).

---

(1) مجهول : **الحلل الموشية** ، 39- 41.

(2) **الحشر** : 14.

(3) **التوبة**: 32.

ملحق رقم 05:

رسالة ألفونس السادس إلى يوسف بن تاشفين :[1]

((من أمير الملتين أذفنش بن شانجة بن فرنداة ، إلى الأمير يوسف بن تاشفين، أما بعد:

فلا خفاء على ذي عينين أنك أمير المسلمين، بل الملة المسلمة، كما أنا أمير الملة النصرانية، و لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل، والتواكل ، والإهمال للرعية، والإخلاد إلى الراحة، وأنا أسومهم الخسف، فأخرب الديار، وأهتك الأستار، وأقتل الشبان، وأأسر الولدان، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم، ان أمكنتك فرصة هذا، وأنتم تعتقدون أن الله تبارك وتعالى، فرض على كل واحد منكم قتال عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعا، ولا تستطيعون امتناعا، وبلغنا عنك أنك في الاحتفال، على نية الإقبال، فلا أدري أكان الجبن يبطئ بك، أم التكذيب بما أنزل إليك، فان كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز إليك، وأنا أقاتلك في أحب البقاع إليك، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت إليك، ونعمة مثلت بين يديك، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا واستكملت الإمارة والله يتم الإرادة)).

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 42- 43.

ملحق رقم 06:

رسالة من يوسف بن تاشفين إلى المعتمد بن عباد يطلب فيها تسليم الجزيرة الخضراء:[1]

((من أمير المسلمين، وناصر الدين، محيي دعوة أمير المؤمنين.

إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله، المعتمد على الله، أبي القاسم بن عباد، أدام الله كرامته بتقواه ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابكم المكرم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك، ومبادرون لنصرتك وحمايتك وواجب علينا ذلك من الشرع، وكتاب الله تعالى، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء، تكون لنا، لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فأن رأيت ذلك فأشهد به على نفسك، وابعث إلينا بعقودها، ونحن في إثر خطابك، إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)).

ملحق رقم 07:

رد يوسف بن تاشفين على رسالة ألفونس السادس:[2]

((وقد بلغنا يا أذفنش أنك دعوت إلى الاجتماع بك، وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد اجتزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك: ((وَمَا دُعَآءُ الكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ))[3])).

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 50- 51.

[2] مجهول : **الحلل الموشية** ، 53.

[3] **الرعد** :14.

ملحق رقم 08:

رسالة المعتمد بن عباد إلى حضرة إشبيلية في وصف انتصار معركة الزلاقة :[1]

((لما كان يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، سنى الله أمرا يسر أسبابه وفتح لنا إلى الفرج والفتوح بابه، وعطف علينا القابل للتوب، الغافر للذنب، والتقينا مع الطاغية الباغية، الذي أجاب الموت داعيه، وأخزى التوفيق مساعيه، بعد غدر أبداه، وجرى فيه مداه، وكان تواعدنا معه لنلتقي في سواه، فأتى والنقض يجرر ذيل مخزاه، والغيب يشهد عليه بما أرداه، والغدر يعلمنا أنه طعمة من نواه، فاستبشرنا أنه ابتدأ بالغدر الذي يرديه، وتعجل سلوك طريق لا تهديه وتحققنا أنها مقدمة فتح سبقت، ونواسم سعد عبقت، والنصر لا تخفى دلائله، واليمن لا تستره غلائله، فتدارك إخواننا المسلمون بالنصاف، وتصافحوا بالاعتراف والانصاف، وجرت البسائط ذيول الزرد وشكرت الشفار فعل الصقيل الفرند، ولما احلولك ليل الحرب وأغطش، وغار ماء ثبجها فأعطش، طلع فجر السعادة فأنجح، ونادى من كتب السلامة: أصبح، أصبح، وعن قريب طلعت شمسها تشرق، وتهلك الكافرين وتحرق، ليس دونها حجاب يستر شعاعها، ويحجب لماعها، ولما تسامتت الرؤوس، وأحدق الرئيس بالمرؤوس، ظللنا نرتب الجماجم، وكأنها من أعجب أحلام نائم ولما صعد المؤذنون أكواما بنتها أيدي الأيد من هاماتهم، وحصدتها بواتر قطعتها بلاماتهم، أعلنوا بكلمة الإخلاص فوق آذان وعت، ما كانت عنه صمت، وأدمغة أنزلها الندم على ما كانت به همت وقرت العيون، وانشرحت الصدور ((وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ))[2] كلها بهذا النور، وهذا وفقكم الله فتح الفتوح، أنذر بين يدي نجواه، بنصر يعجز عنه الحصر.

وقد كان في أول اللقاء جولة على المسلمين، قضى الله بالشهادة فيها، لمن اهتم بأمانيها، ثم أنزل سكينته، فخطبت نصال المسلمين، رقاب الكافرين، فأنكحتها أبكارا صانتها حجال المغافر، وحجبتها ستور الطوارق عن عيون البواتر، ولا مهر إلا ما نووه من كرم نفوس، جادت متطوعة، ومشت إلى الخيرات مسرعة فنفلهم الله أنفالهم، ووعدهم بالنصر، فأوفى لهم.

فتلقوا رحمكم الله هذه النعم بالشكر، كما تلقينا، وقولوا الحمد لله رب العالمين على نعم أصبحنا فيها، وأمسينا، والله يصلها بالتأييد، ويتبعها بالتوفيق والتسديد، والسلام.

ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل، والصنع الجميل، أقام المسلمون في جمع أسلابهم، وضم عددهم

---

[1] مجهول : **الحلل الموشية** ، 64- 66.

[2] **الزمر**: 66.

مدة أيام، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة، والسبي الكثير، واكتسبت الناس فيها من آلات الحروب والأموال، وسيوف الحلي، ومناطق الذهب والفضة ما أغناهم.

وكان يوما لم يسمع بمثله من يوم اليرموك والقادسية، فيا له من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة ثبّت قدم الدين بعد زلاقها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس، واعتز بها رؤساء الأندلس، فجزى الله أمير المسلمين، وناصر الدين، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، أفضل الجزاء، بما بل من أرماق، ونفس من خناق، وصل لنصر هذه الجزيرة من حبل، وتجشم إلى تلبية دعائها، واستبقاء ذمائها، من حزن وسهل، حتى هزم على يده أعداء الله المشركون، وظهر أمر الله وهم كارهون)).

ملحق رقم 09:

رسالة كتب بها الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية ، يصف فيها بلاد المغرب ، وجوازه للأندلس للجهاد بها ، وهزيمته لملك النصارى ألفونس السادس ، في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة :[1]

((الحمد لله الذي منّ علينا بالإسلام ، وفضلنا بمحمد عليه السلام ، أحمده حمدا يوجب المزيد من آلايه ، والسبوغ من سر الله ونعمائه . كان من قضايه جل شأوه ، وتقدمت أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناتة وغيرهم من بلاد المغرب ، سبّب لنا إليهم المطلب ، فقفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين ، فقوّمنا الدّين ومهدنا بها المسلمين، فصفت لنا ضمائرهم، وخلصت إلى الله تعالى نيّاتهم ، وسراريهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب ، وأذقنا برغواطة سوم العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع الحاسبين ، لا إله غيره ، وهو أرحم الراحمين. ولّما بلغنا من استحواذ النصارى ، دمّرهم الله ، على بلاد الأندلس ومعاقلها، والزام الجزية لرؤسائهم ، واستيصال أقالمها ، وايطايهم البلاد دارًا دارًا ، لا يتخوفون عسكرا يخرج إليهم ، فيبدد جمعهم ، ويفلّ حدهم ، وهم مع ذلك كلّه يقتلون الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان . فخوطبنا عن الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرة بعد المرة، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار ولم نجد للجواز بابًا، ولا لدخول البحر أسبابًا، فانضم لنا منهم الريس الأجل المعتمد على الله، المولاّ

---

[1] عنان : **دول الطوائف** ، 446- 450. وقد نقلها عنان عن مخطوط رقم 448 الغزيري بمكتبة الاسكوريال، وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له.

بنصر الله أحسن الله في كل الأمور عونه، وأقر بكل صالحة عينه، فعزمنا على الغزو، وجوزنا للعدو أسودًا ضارية، وسباعًا عادية، شيبًا وشبانا، بسواعد قوية، وقلوب في سبيل الله نقية، قد عرفوا الحرب وجربوها، فهي المهم وهم بنوها، يتلمظون تلمظ الفهود، ويزءرون إليها زءر الأسود، فشحنا بهم القوارب، وأوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره، وفقه الله ففزع الناس من كل أفق إليهم، ووفدوا من كل قطر إليهم، متعجبين من هيأتهم، محتقرين لزيهم ونغماتهم، لا يروعهم منهم حاشى الخيل والدرق، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جف الريق ومسح العرق، وقدروا أنهم طعم للسيوف، وغرض للحتوف، وسعد للأرماح، ونهب للسلاح، فكل استصغرهم، والجميع منهم احتقرهم، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم، وتنتهي إلينا أفعالهم، ثم اتبعناهم جيشًا بعد جيش، بخيول كالفحول، عليها الكهول، وعدد من كل أمرد، على أجرد، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحين والقضاء، ومع هذا كله إنّ أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وإزاحة غمتهم بسببنا، وعساكرنا تتزيد وجوازنا يتأكد، وكان آ خر من جاز منا ومعنا قطعة قطعة من صنهاجة بني عمي، فعسر البحر حينئذ للجواز، واضطربت فيه الأمواج، فاستصرخنا الباري تعالى جده، وعظم اسمه، إن كان في جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا، فما استكملت من كلامي، حتى سهل الله المركب، وقرب المطلب. فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء الذكورة، والتأم شعبتنا مع من جاز من عسكرنا، فعملنا على السير، وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الأذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه، وفرقنا منه، نعطوه المراكب، ونسلم إليه الشواني والقوارب، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا، فلم نلتفت إليه، ولا عرجنا عليه. ووصلنا أيدينا بالريس الأجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق وبنينا معه على اللحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك كله لما نقل إلينا، وورد علينا من رؤساء الأندلس، مستبطئين سريرة المخبتين، لا بسين قسوة الصالحين، وقلوبنا شتى، حتى لحقنا إشبيلية حضرته، عمرت ببقايه، وقد تجمع له من جنوده أعداد، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد فصرنا إلى مدينة بطليوس، وأقمنا بها أيامًا منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس، فأخبرنا وصح عندنا أنّ كل واحد منهم مشتغل مع قطعة كثيرة من النصارى، وقد تغلبوهم على حصونهم وأذلوهم في بلادهم، وأضعفوهم، وشجعوهم على مرادهم، فحمدنا الله تعالى، ودعونا بتيسير المراد واستنقاذ العباد. فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله فسمع بنا، وقصدنا قصدنا، وورد ورودنا، واحتل بفنائها منتظرًا لنا، فبعثنا إليه نحضه على الاسلام ودخوله في ملة محمد عليه السلام، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما

أمرنا الله تعالى، وبين لنا في كتابه، من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبا وتمرد، وكفر ونخر وعمل على الإقبال علينا، وحث في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ، فلما كان بعد ذلك برزنا عليه أيامًا، فلم يجبنا، فبقينا وبقوا ونحن نخرج الطلايع إليه، ونتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقايه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. فلما كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتايب قد ملأت الآفاق؛ وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق؛ قد استلموا الدروع للكفاح وربطوا في سوقهم الألواح، وبطوهم ملأ من الخمور، يقدرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كل منا ساه وجميعنا لاه، فقصد أشدهم شوكة، وأصلبهم عودًا، وأنجدهم عديدًا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، وفقه الله، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لا يقدرون عسكرًا إلا عسكره، ولا رجال إلا رجاله، ولا عديدًا إلا عديده، وداود من أصحابنا منا إلى إزايه فهبطوا إليه لفيفًا واحدًا، كهبوط السيل، بسوابق الخيل، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع، استكت آذاهم، واضطربت أضلاعهم، ودهشت أيديهم وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوهم، وصاروا كركب الحمير، فروا يطلبون معقلا يعصمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هاربا منه إلا إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرامات، لما عاينوا من الأمور المعضلات وأسلموه أيده الله، وحده في طرف الأخبية، مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد استسلموا للقضاء فوثبوا عليه وثب الأسد على الفرايس، يعظمون الكنايس، فحبسهم حينًا وحده مع من إليه ممن ذكرناه، وبسطوا منهم الأرض، ولم يبق من الكل إلا البعض، ولجأ في الأخبية، بعد أن عاين المنية وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يرد عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهزم، ولا يهاهم فيسأم، ثم قصدت كتيبته سودًا كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داوود وأخبيته، فجالوا فيها جولانًا، وقتلوا من الخلق ألوانًا واستشهد الكل بحمد الله وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من وراء الشعب، كقطع اللهب، بجميع من معنا، على الخيل المسومة العراب يتسابقن الطعن والضراب، فلما رأونا ووقعت أعينهم علينا، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأنا طعم أسيافهم ولقاء رماحهم، فكبرنا وكبر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، وهضنا للمنون الذي لا بد منه ولا محيص لأحد عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا، فلنموتوا شهداء، فحملوا علينا كالسهام، فثبت الله أقدامنا، وقوى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى ولي النصر لنا، فولوا هاربين وفروا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنه تلحقه ولا ضربة تثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر، وضاقت هم الأرض بما رحبت، حتى أن هارهم لا

يرى غير شيء إلا ظنه رجلا، وفتكت فيهم السيوف، على رغم الأنوف، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشكوهم بها فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارسًا إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يجر عنانه، كأنه معقل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربي المصون، السابق اللاحق، المعد للحقائق، وما منا إلا من له جرناز فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأرض مجدلين، موتى معفرين، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلون بإزاء المحلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لا يقدر ومدد لايحزر، والتجريد فيهم، والأيدي متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون. وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أثخنوا جراحًا بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام والله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم، ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم وهم ينظرون شزرًا نظر التيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جن الليل وأرخى سدوله ، ولوا هاربين وأسلموا رحايلهم صاغرين ، فكم من دِلاص على البقاع ساقطة ، وخيول على البقاع رابضة ، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد .وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك . وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير ، والثياب والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون في الانتقال ، ولا يسئمون من تشريط الأموال ،ولحقوا قورية ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم، فصححنا ضمائرنا وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا ، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك ، وقدرنا أن الكّل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى وتراميهم للشهادة ، قدس الله أرواحهم ، وكرم مثواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعادا بيننا وبينهم وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن شهدت نجدته في المغرب ، وانقلبت خير منقلب . ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقايه ، وأقمنا عنده أياما ، ورفعنا عنه مودعين لا تودع قاطع ، لا يمنعنا منه متى أحب مانع ، ولحقنا بالجزيرة الخضراء، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها ، وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد ، ومتى تنفس منهم متنفس ، وأرجح إلى أحدهم نفس ، يذكرون ما لقوا يذكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون، وأملي لهم أن كيدي متين، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حي ، ولا يحس منهم أنسي. والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخول وأعطى وهذا كلّه منًّا منه علينا لا منًّا عليه ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم، وآله الطيبين ، وسلم تسليما ، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته)).

ملحق رقم : 10

جدول تاريخي مفصل لدول الطــوائف [1]

دولة بني جهور في قرطبة

أبو الحزم جهور محمد بن جهور: 422-435هـ / 1031- 1044م.

أبو الوليد محمد جهور: 435-457هـ / 1044 -1064م.

عبد الملك بن محمد بن جهور:457-463هـ / 1064- 1070م.

المعتمد بن عباد يستولي على قرطبة سنة 463هـ/1071م.

دولة بني عباد في اشبيلية

القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد: 414-433هـ / 1023- 1042م.

عباد بن محمد المعتضد: 433-461هـ / 1042- 1069م.

محمد بن عباد المعتمد: 461-484هـ / 1069-1091م.

اشبيلية تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني الأفطس في بطليوس

عبد الله بن محمد بن مسلمة المنصور: 413-437هـ / 1022-1045م.

محمد بن عبد الله المظفر: 437-461هـ / 1045- 1068م.

يحي بن محمد المنصور: 461-464هـ / 1068- 1072م.

عمر بن محمد المتوكل: 464- 488هـ / 1072-1094م.

بطليوس تسقط في أيدي المرابطين

دولة بني يحي في لبلة

أبو العباس أحمد بن يحي: 414-434هـ / 1023-1042م.

محمد بن يحي عز الدولة: 434-443هـ / 1042-1051م.

فتح بن خلف ناصر الدولة: 443- 445هـ / 1051- 1053م.

لبلة تسقط في يد المعتضد بن عباد

[1] عنان: **دول الطوائف** ، 460 - 464.

دولة بني مُزين في باجة وشلب

الحاجب عيسى محمد : ...-432هـ / ....1041م.

محمد بن عيسى عميد الدولة: 432-440هـ / 1041- 1048م.

عيسى بن مُزين المظفر: 440-445هـ / 1048- 1053م.

محمد بن عيسى الناصر: 445-450هـ / 1053-1058م.

عيسى بن محمد المظفر: 450-455هـ / 1058-1063م.

شلب تسقط في يد المعتضد بن عباد

دولة بني البكري في ولبة وجزيرة شلطيش

عبد العزيز البكري عز الدولة: 403-443هـ / 1012-1051م.

ولبة وشلطيش تسقطان في يد المعتضد

دولة بني هارون في شنتمرية الغرب

سعيد بن هارون: 417-433هـ / 1026- 1041م.

محمد بن سعيد المعتصم: 433-443هـ / 1041-1051م.

شنتمرية الغرب تسقط في يد المعتضد

دولة بني ذي النون في طليطلة

اسماعيل بن ذي النون الظافر: 427-435هـ / 1036-1043م.

يحي بن اسماعيل المأمون: 435-467هـ / 1043-1075م.

يحي بن اسماعيل بن يحي القادر: 467-478هـ / 1075- 1085م.

طليطلة تسقط في يد ألفونس السادس

دولة بني مناد في غرناطة

زاوي بن زيري: 403-410هـ / 1013- 1019م.

حبوس بن ماكسن: 411-428هـ / 1020-1037م.

باديس بن حبوس المظفر: 428-465هـ / 1037-1073م.

عبد الله بن بلكين : 465-483هـ / 1073-1090م.

المرابطون يستولون على غرناطة

دولة بني برزال في قرمونة

محمد بن عبد الله بن برزال: 404-434هـ / 1013-1042م.

عزيز بن محمد المستظهر: 434-459هـ / 1042-1067م.

قرمونة تسقط في يد ابن عباد

دولة بني دمّر في مورور

نوح بن أبي تزيري الدمري: 403-433هـ / 1013-1041م.

محمد بن نوح عز الدولة : 433-445هـ / 1041-1053م.

مناد بن محمد عماد الدولة : 445- 458هـ / 1053- 1066م.

مورور تسقط في يد ابن عباد

دولة بني خزرون في أركش

محمد بن خزرون عماد الدولة: 402-420هـ / 1011-1029م.

عبدون بن محمد بن خزرون: 420- 445هـ / 1029-1053م.

محمد بن محمد بن خزرون القائم: 445-461هـ / 1053-1068م.

أركش تسقط في يد ابن عباد

دولة بني يفرن في رندة

هلال بن أبي قرة اليفرني: 406-445هـ / 1015-1053م.

باديس بن هلال: 445-449هـ / 1053-1057م.

أبو نصر فتوح بن هلال: 449-457هـ / 1057-1065م.

رندة تسقط في يد ابن عباد

مملكة ألمـــرية

1- خيران العامري: 405-419هـ / 1014-1028م.

زهير العامري: 419-429هـ / 1028-1038م.

عبد العزيز المنصور: 429-433هـ / 1038-1041م.

2- معن بن صمادح: 433-443هـ / 1041-1051م.

محمد بن معن المعتصم: 443-484هـ / 1051-1091م.

أحمد بن محمد معز الدولة: 484 هـ / 1091م

المرابطون يستولون على ألمرية

مملكة مرسيـــة

1- خيران العامري: 403-419هـ / 1012-1028م.

زهير العامري : 419-429هـ / 1028-1038م.

أبو بكر بن طاهر: 429-455هـ / 1038-1063م.

أبو عبد الرحمان بن طاهر: 455-471هـ / 1063-1078م.

(حكم بنو طاهر باسم عبد العزيز المنصور صاحب بلنسية وولده عبد الملك)

المعتمد بن عباد يستولي على مرسية

2- ابن عمار : 471-473هـ / 1078-1081م.

ابن رشيق: 473-484هـ / 1081- 1091م.

المرابطون يستولون على مرسية

مملكة دانية والجزائر

1- مجاهد العامري الموفق: 400-436هـ / 1009-1044م.

علي بن مجاهد إقبال الدولة: 436-468هـ / 1044-1076م.

2- المقتدر بن هود صاحب سرقسطة: 468-474هـ / 1076-1081م.

المنذر بن هود: 474-483هـ / 1081-1091م.

المرابطون يستولون على دانية

مملكة بلنســـية

الفتيان مظفر ومبارك: 400-408هـ / 1009-1017م.

لبيب العامري: 408-411هـ / 1017-1021م.

عبد العزيز المنصور: 411-452هـ / 1021-1061م.

عبد الملك بن عبد العزيز: 452-457هـ / 1061-1068م.

المأمون بن ذي النون يستولي على بلنسية

نائبه أبو بكر بن عبد العزيز: 457-478هـ / 1065-1085م.

عثمان بن أبي بكر: 478- ...هـ/ 1085-....م.

القادر بن ذي النون: 478-485هـ / 1085-1092م.

القاضي ابن جحّاف: 485-487هـ / 1092 - 1094م.

السيد الكمبيادور والقشتاليون: 487-495هـ / 1093-1102م.

المرابطون يستولون على بلنسية

إمارة شنتمرية الشرق

هذيل بن عبد الملك بن رزين: 403-436هـ / 1012-1045م.

عبد الملك بن هذيل: 436-496هـ / 1046-1103م.

يحي حسام الدولة: 496-497هـ / 1103-1104م.

المرابطون يستولون على شنتمرية الشرق

إمارة ألبونت

عبد الله بن قاسم: 400-431هـ / 1009-1039م.

محمد بن عبد الله يمن الدولة: 431-434هـ / 1039-1042م.

أحمد بن محمد عز الدولة: 434-440هـ / 1042-1048م.

عبد الله بن محمد جناح الدولة: 440-495هـ / 1048-1102م.

المرابطون يستولون عى ألبونت

مملكة سرقسطة

1- المنذر بن يحي التجيبي : 408-414هـ / 1017-1023م.

يحي بن المنذر المظفر: 414-420هـ / 1023-1029م.

المنذر بن يحي معز الدولة: 420-430هـ / 1029-1039م.

2- سليمان بن هود المستعين: 431-438هـ / 1039-1046م.

أحمد بن سليمان المقتدر: 438-474هـ / 1046-1081م.

يوسف بن أحمد المؤتمن: 474-478هـ / 1081-1085م.

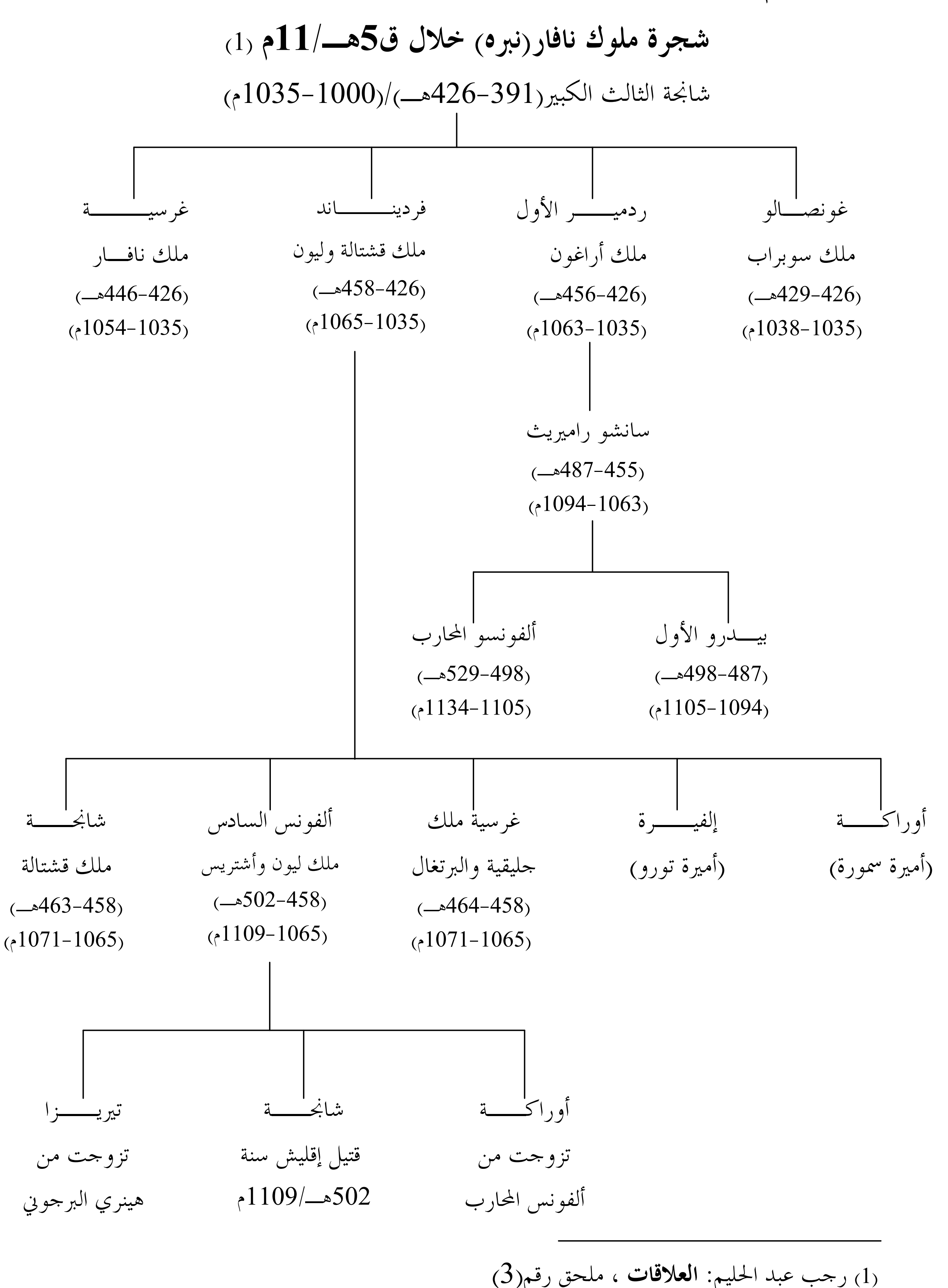
أحمد بن يوسف المستعين: 478-503هـ / 1085-1110م.

عبد الملك بن أحمد عماد الدولة: 503-...هـ/ 1110- ....م.

المرابطون يستولون على سرقسطة

ملحق رقم : 11

شجرة ملوك نافار(نبره) خلال ق5هـ/11م (1)

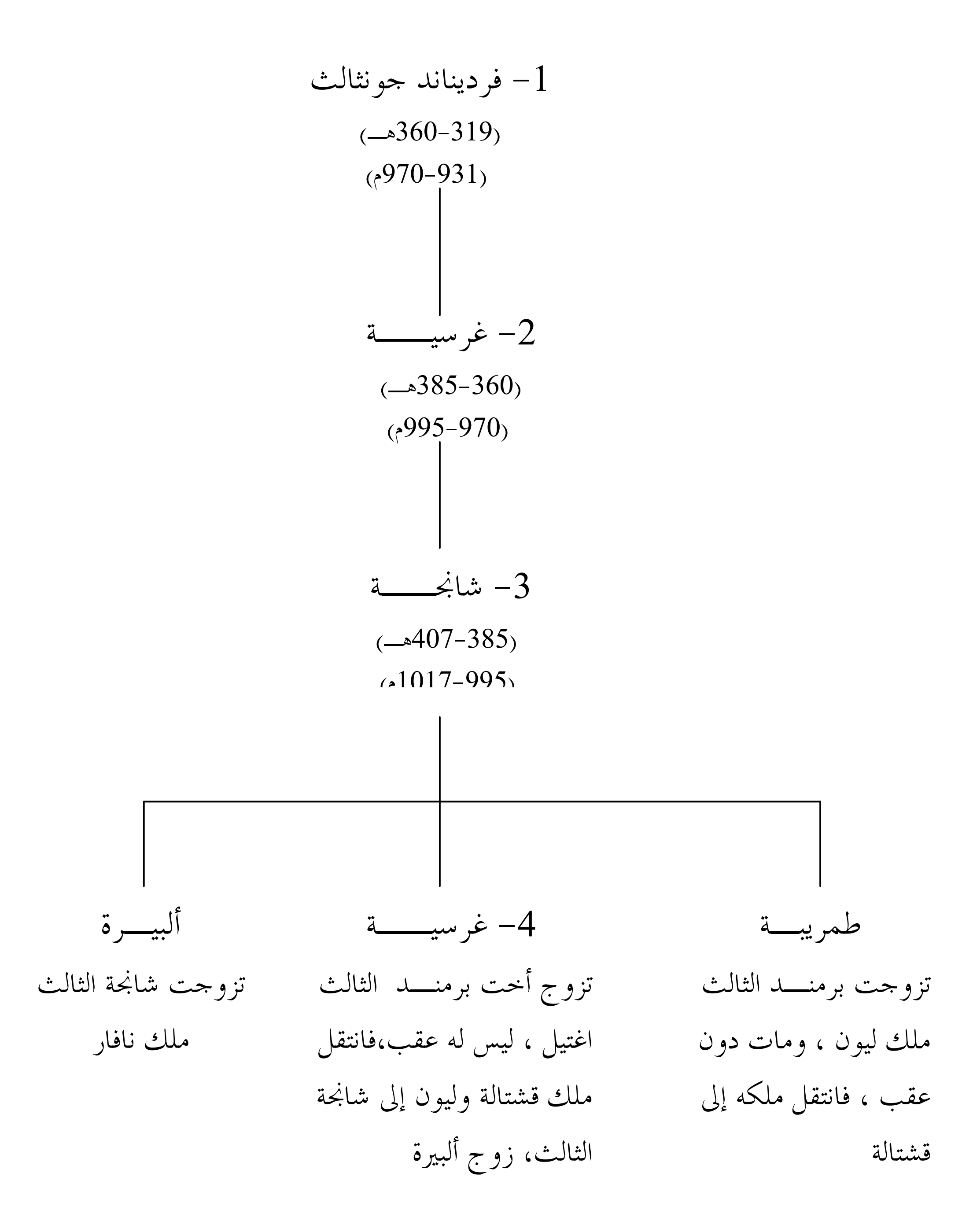


---

(1) رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، ملحق رقم(3)

ملحق رقم:12

شجـــرة ملوك قشتـــالة (1)

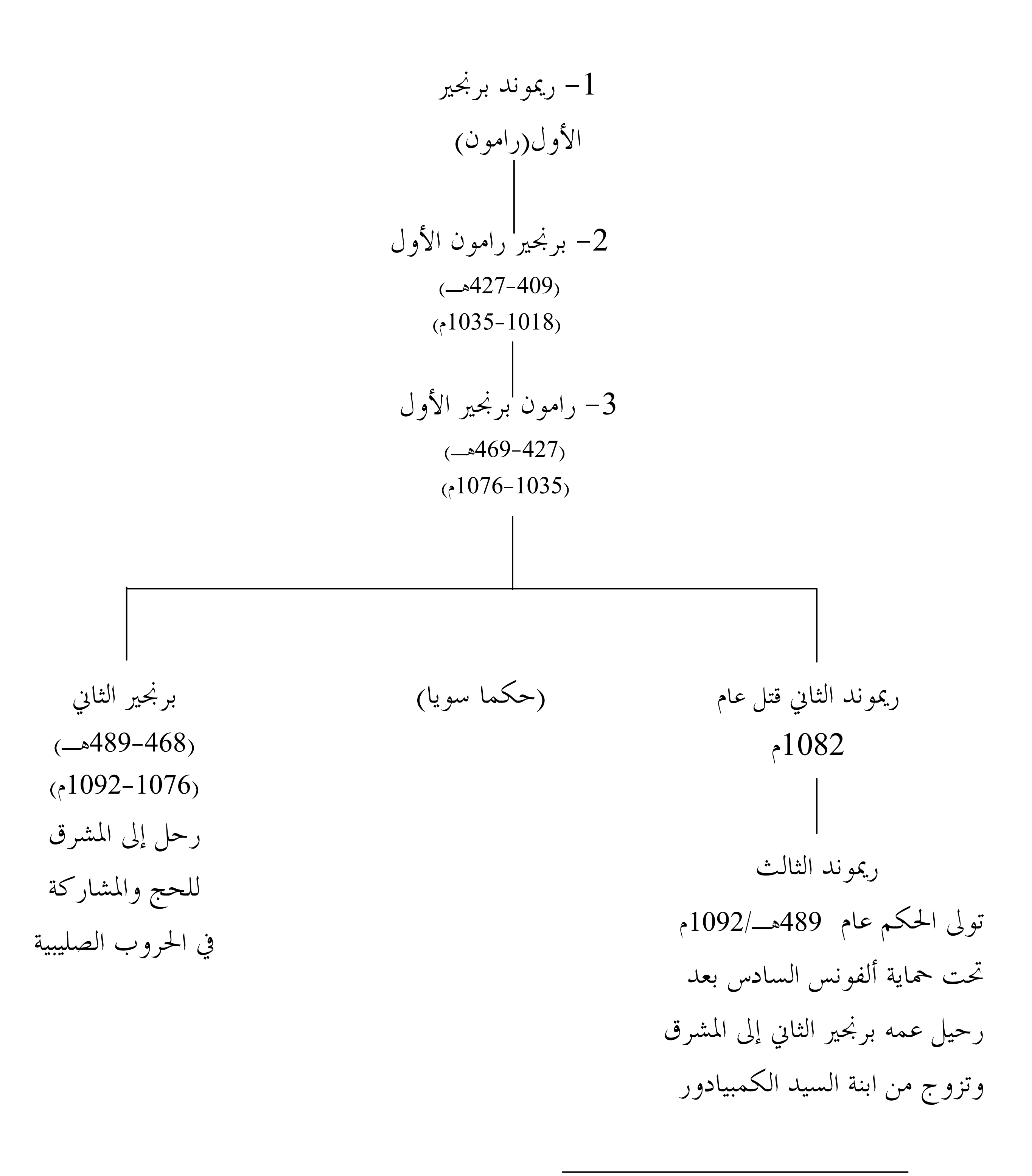


---

(1) رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، ملحق رقم(4)

ملحق رقم:13

شجـــرة ملوك برشلونة (قطالونيا) (1)



(1) رجب عبد الحليم: **العلاقات** ، ملحق رقم(5)

قائمة المصادر والمراجع:

أولا: المصادر العربية:

ثانيا : المراجع العربية والمعرّبة:

ثالثا: الحوليات والمجلات العربية:

رابعا: الرسائل الجامعية:

خامسا: المراجع الأجنبيـــة الحديثة.

سادسا: المقالات الأجنبية الحديثة.

قائمـــة المصادر والمراجـــع:

أولا : المصادر العربية:

ابن **الأبار**: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، المتوفى سنة(658 هــ/1260م).

- التكملة لكتاب الصلة ، الجزء 01، تحقيق عبد السلام الهراس ، دار الفكر ، بيروت 1415 هــ / 1995م.
- الحلة السيراء ، الجزء 1 و2، تحقيق حسين مؤنس ، ط2 ، دار المعارف، القاهرة 1985.

ابن أبي دينار: أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم القيرواني، أنهى كتابه سنة 1092هــ/1681م.

- المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ط1 ، تونس ، 1286هــ.

ابن أبي زرع: أبو العباس أحمد ، المتوفى سنة 726هــ/1326م.

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور الرباط ، 1972.

ابن الأثير : علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، المتوفى سنة 630 هــ /1233م.

- الكامل في التاريخ ، الجزء 8 ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، ط1، دار الكتب العلمية،بيروت 1407 هــ/1987م.

الادريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الادريسي، المتوفى سنة548هــ/1154م

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الجزء 2، تحقيق مجموعة كبيرة من المحققين ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ن 1422هــ/2002م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك القرطبي ، المتوفى سنة 578هــ/1182م

- كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري ، ط1، المكتبة العصرية بيروت ، 1423هــ/2003م.

ابن بسام: أبو الحسن علي الشنتريني ، المتوفى سنة 542هــ /1050م.

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أربعة أقسام في أربع مجلدات، تحقيق سالم مصطفى البدري دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1419هــ/1998م.

ابن بلّكين : الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي أمير غرناطة ، حكم ما بين (469-483) /(1076-1090م).

- كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة ، أعاد نشره علي عمر معتمدا على تحقيق ليفي بروفنسال ، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 1427هــ/2006م.

ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، المتوفى سنة 456هــ/1064م.

- جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف ، القاهرة ، 1948م.
- نقط العروس في تواريخ الخلفاء (رواية الحميدي) ، تحقيق شوقي ضيف، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد 13 ، الجزء 2 ، ديسمبر 1951.

الحميدي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح، المتوفى سنة 488هـ/1095م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر ، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط، المكتبة العصرية، بيروت ، 1425هـ/2004م.

الحميري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، المتوفى سنة 866هـ/1461م.
- صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق ليفي بروفنسال ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1937م.

ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمان بن محمد الحضرمي، المتوفى سنة 808هـ/1405م.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر والمسمى تاريخ ابن خلدون، الجزء 6 ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت 1413هـ/1992م.
- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر والمسمى تاريخ ابن خلدون، الجزء 4 ، ط1، دار الفكر، بيروت، د.ت.

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ، المتوفى سنة 681هـ/1282م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء 4،5، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر، بيروت د.ت .

ابن خاقان: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله ، المتوفى سنة 529هـ/1134م.
- قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، ط1، مطبعة التقدم العلمية ، مصر ، 1320 هـ.
- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، تحقيق محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار و مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1403هـ ، 1983م.

ابن الخطيب: أبو عبد الله لسان الدين محمد بن عبد الله السلماني ، المتوفى 776هـ/1774م
- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يتعلق بذلك من شجون الكلام، نُشر الجزء الخاص بالأندلس باسم تاريخ اسبانيا الاسلامية تحقيق ليفي بروفنسال ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1424هـ/2004م .
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء01 ، تحقيق يوسف علي طويل ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1424هـ/2003م.

ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى المغربي، المتوفى سنة 685هـ/1286م.
- المغرب في حلى المغرب، الجزء1 و2 ، تحقيق خليل المنصور ، ط1 ، دار الكتب العلمية

بيروت، 1417هـ/1997م.
السيوطي: جلال الدين عبد الرحمان ، المتوفى 911هـ/1505م
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، الجزء01 ،02، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية ، بيروت ، 1424هـ/2003م.
الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحي القرطبي ، المتوفى سنة 599هـ/1202م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ط1 ، تحقيق صلاح الدين الهواري ، المكتبة العصرية ، بيروت ،1426هـ/ 2005م.
ابن عبد الملك: المراكشي، المتوفى سنة 703هـ/1304م.
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ، السفر الخامس- القسم الثاني ، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د.ت.
ابن عذاري: أبو العباس أحمد المراكشي ،كان حيا سنة 712هـ/1312م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء 3 ، تحقيق، كولان وليفي بروفنسال ط3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983م.
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء4،تحقيق، إحسان عباس وليفي بروفنسال ط3 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1983م.
العذري: أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي، المتوفى 478هـ/1085م.
- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق، عبد العزيز الأهواني، معهد الدراسات الاسلامية بمدريد مدريد، 1965م.
ابن عسكر: أبو عبد الله محمد بن علي(توفي 636هـ/ 1238م) **وابن خميس**: أبو بكر محمد بن محمد.
- أعلام مالقة ، تحقيق ، عبد الله المرابط الترغي، ط1، دار الأمان ودار الغرب الاسلامي الرباط، بيروت، 1420هـ/ 1999م.
عيـــاض: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي المتوفى 544هـ/1149م.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود مكتبة الحياة، ودار مكتبة الفكر، بيروت، طرابلس، د.ت.
ابن غالب: محمد بن أيوب الغرناطي، من أهل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي.
- فرحة الأنفس ، نُشر تحت عنوان: نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب ، تحقيق لطفي عبد البديع ، نشر بمجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد1 الجزء 2، ربيع الأول 1375هـ/ نوفمبر 1955م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي، المتوفى سنة 821هـ/ 1418م.

- كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء 5 ، دار الكتب المصرية ، القاهرة 1322هـ/1915م.

ابن الكردبوس: عاش في النصف الثاني من القرن 6هـ/12.

- الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، المنشور في كتاب تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نصان جديدان ، تحقيق أحمد مختار العبادي معهد الدراسات الاسلامية مدريد، 1971م .

مجهول:

- ذكر بلاد الأندلس،الجزء1، تحقيق لويس مولينا، مدريد، 1983م.

مجهول: (أنهى كتابه سنة 710هـ/1310م)

- مفاخر البربر ، تحقيق عبد القادر بوباية، ط 1، دار أبي رقراق للطباعة والنشر ، الرباط 2005م.

مجهول: (ألف كتابه سنة 783هـ/1381م)

- كتاب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1399هـ/1979م.

المراكشي: محي الدين عبد الواحد بن علي، كان حيا سنة 620هـ/1223م.

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد زينهم محمد عزب ، دار الفرجاني القاهرة ، 1994.

المقري: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، المتوفى سنة 1041هـ/1631م

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق إحسان عباس ، ج 4 ، دار صادر ، بيروت ، 1408هـ /1988م.

ابن منظور:

- لسان العرب، الجزء1، دار المعارف، القاهرة، د.ت.

النباهي : ابن الحسن علي بن عبد الله بن محمد الجدامي المالقي ، المتوفى سنة 792هـ/1389م.

- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا أو تاريخ قضاة الأندلس ، تحقيق مريم قاسم طويل ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1415هـ/1995.

النويري: (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) المتوفى سنة 733هـ/1333م.

- نهاية الأرب في فنون الأدب ،الجزء22، تحقيق أحمد كمال زكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980.

ابن هشام: محمد بن هشام بن إبراهيم اللخمي، كان حيًا سنة 557هـ/1162م.
- ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة ، تحقيق عبد العزيز الأهواني مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد3، الجزء1، شوال 1376هـ/مايو1957م.
الونشريسي: أبو العباس أحمد بن يحي التلمساني، المتوفى سنة 914هـ/1508م.
- أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى و لم يهاجر، وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر،وهي نازلة جاءت في المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والمغرب ، الجزء 2، تحقيق حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات السلامية في مدريد، المجلد5، العدد1-2، 1377هـ/1957م.
ياقوت: شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الحموي، المتوفى سنة 626هـ/1228م.
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1397هـ/1977م.
ابن يوسف الحكيم: أبو الحسن علي .
- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد، المجلد6، العدد1-2 ، 1378هـ/1958م.

ثانيا : المراجع العربية والمعرّبة:

أبو الفضل أحمد محمد:
- تاريخ مدينة المريـــة الأندلسية في العصر الاسلامي ، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، 1996.
أبو مصطفى كمال السيّد:
- تاريخ الأندلس الاقتصادي في عصر دولتي المرابطين والموحدين، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، د.ت.
أشباخ يوسف :
- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان ، ط3 مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1417هـ/1996م.
بالنثيا آنخيل جونثالث:
- تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت.
الحجي عبد الرحمان علي :
- التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط الخلافة ، ط5، دار القلم ، دمشق

1418هـ/1997م.

حقي محمد :

- البربر في الأندلس ، ط1، شركة المدارس ، الدار البيضاء ، 1422هـ/2001م.

خالص صلاح :

- إشبيلية في القرن الخامس الهجري، دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، دار الثقافة ، بيروت ، 1965م.

دوزي رينهارت :

- تكملة المعاجم العربية ، ترجمة محمد سليم النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1992م.
- المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي ، الهيئة المصرية لصناعة الكتاب القاهرة 1995م.
- ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ، ترجمة كامل كيلاني ، ط1، نشر عيسى البابي الحلبي القاهرة ، 1351هـ/1933م.

سالم سيّد عبد العزيز:

- تاريخ المغرب الكبير ، ج2 ، العصر الاسلامي ، دار النهضة العربية، بيروت 1981م.

سالم سيّد عبد العزيز سحر:

- تاريخ بطليوس الاسلامية أو غرب الأندلس في العصر الاسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، د.ت.

السحيباني محمد بن صالح :

- الضعف المعنوي وأثره في سقوط الأمم ، عصر ملوك الطوائف أنموذجا ، دار الكتب ، القاهرة، 2002م.

السلاوي : أبو العباس احمد بن خالد الناصري.

- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،الجزء 1 ، المطبعة المصرية ، القاهرة 1312هـ.

سيسالم عصام سالم :

- جزر الأندلس المنسية (التاريخ الإسلامي لجزر البليار)، ط1، دار العلم للملايين بيروت ، 1984م.

عباس إحسان :

- تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، ط7، دار الثقافة ، بيروت 1985م.

العبادي أحمد مختار:

- صور من حياة الحرب والجهاد في الأندلس ، ط1، منشأة المعارف ، الإسكندرية 2000م.
- في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية ، بيروت ، د.ت.

عبد الحليم رجب محمد :

- العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ، بيروت ، د.ت.

ابن عبود أمحمد :

- التاريخ السياسي والاجتماعي لاشبيلية في عهد دول الطوائف ، المعهد الجامعي للبحث العلمي ، تطوان ، 1983م.
- جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، ط3، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية ، تطوان ، 1999م.

العربي اسماعيل:

- دولة بني زيري ملوك غرناطة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1982م.

علي سليمان سلمى :

- المرأة في الشعر الأندلسي ، عصر الطوائف، ط1، مكتبة الثقافة الدينية 1426هـ/2006.

عنان محمد عبد الله:

- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط3، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1408هـ/1988م.

عويس عبد الحليم:

- ابن حزم الأندلسي وجهوده في البحث التاريخي والحضاري، ط2، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 1409هـ/1988م.

فيلالي عبد العزيز:

- العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

كحيلة عبادة:

- تاريخ النصارى في الأندلس، ط1، نشر على عاتق المؤلف، 1414هـ/1993م.

مؤنس حسين:

- الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1413هـ/1992م .

محمد حسين حمدي عبد المنعم:

- دراسات في التاريخ الأندلسي دولة بني برزال في قرمونة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990م.

محمود حسن أحمد:

- قيام دولة المرابطين: صفحة مشرقة في تاريخ المغرب في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ت.

ليفي بروفنسال:

- الاسلام في المغرب والأندلس، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1990م.

ثالثا: الحوليات والمجلات العربية:

العبادي أحمد مختار :

- من التراث العربي الاسباني ، نماذج لأهم المصادر العربية والحوليات الإسبانية التي تأثرت بها. مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام بالكويت ، المجلد 8 ، العدد1 ، أفريل ، مايو ، يونيو 1977. ص39 ص88.

مؤنس حسين:

- بلاي وميلاد أشتريس وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال اسبانيا ، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول ، المجلد 11، الجزء 1 ، مايو 1949، من ص57-83.
- السيد القنبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية المصرية ، المجلد3 ن العدد 1 ، مايو 1950. ص37 ص87.

مكي أحمد الطاهر :

- دراسة ببلوغرافية لكتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، حوليات كلية دار العلوم جامعة القاهرة ، العدد 5 ، 1994-1995. ص 23- ص34.

رابعا : الرسائل الجامعية:

بوباية عبد القادر:

- البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي): 300-422هـ/912- 1031م ، رسالة غير منشورة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار بجامعة السانيا وهران سنة 1422-1423هـ/2001-2002م.

محمد عباسي يحي أبو المعاطي:

- الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس (238- 488هـ)/(852-1095م) ، رسالة غير منشورة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه ، بكلية دار العلوم ،جامعة القاهرة ، سنة 2000.

خامسا: المراجع الأجنبيـــة الحديثة

Altamira Rafael :

- A history of spain, from the beginning to the present day. Translated by Muna lee . fourth printing. D.Van Nostrand company Toronto, New York, London.

Buresi. P :

- La Frontière entre chrèstienté et Islam dans la péninsule ibérique, éditions publibook. Paris. 2004.

Chapman Charles :

- A History of Spain . the free press .New York.

Cicourt Albert :

- Histoire des Mores Mudéjares et des Morisque , ou des Arabes d’Espagne sous la domination des Chrétiens.T 1 . Paris.1846.

Conde Joseph:

- Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Potugal ,depuis l’invasion de ces peuples jusqu’à leur expulsion définitive .T 2.

Paris .1825.
Constable Olivia :
-Trade and Traders in Muslim Spain.university press .Cambridge.1996.
Dozy Reinhardt :
- Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711-1110).T 3 & T4. Leyde.1861.
- Le Cid ,d'après de nouveaux documents .Leyde.1860.
- Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyen age. T 2.Leyde .1860.
Dufourcq Charles Emamnuel :
- La vie quotidienne dans l'Euroupe Médiévale sous domination Arabe. Paris .1981.
Florian. M :
- Moors in Spain. The new werner company. Ohio.
Gayangos Pascual:
- The history of The Mohammedan dynasties in Spain.Vol 2. London.
Khalis Salah:
- La vie littéraire à Séville au XI siècle .éditions nationales Algériennes .s n e d. Alger .1966.
Lévi Provençal E :
- L'Espagne Musulmane au X siècle .institutions et vie sociale . Larose. Paris. 1932.
Lucas Hippolyte :
- Documents relatifs à l'histoire du Cid .Paris.1860.
Piquet Victor :
- L'Espagne des Maures. Paris . 1945.
Terrasse Henri :
- Islam d'Espagne . librairie Plon. Paris .1958.
Viardot Louis :
- Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne. T 1. Paris . 1851.

سادسا : المقالات الأجنبية الحديثة:

Miranda Huici :
- El Cadi de Valencia Ibn Ŷahãf quemado vivo por El Cid. Revista del instituto Egipcio de estudios Islãmicos en

Madrid. Volumen XI y XII. Año 1963-1964. p 149- 166.
Terrasse Henri :
- Caractères généraux des émirats espagnols du XI siècle. Revue de l'occident Musulman et de la Méditerranée . Volume 2 Numéro 1 .Année 1966. p189- 198.

Turk Afif :
- El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de Hegira) . Revista del instituto Egipcio de estudios Islãmicos en Madrid. Volumen XVIII. Año 1974 -1975.

فهرس عام:

فهرس الأعلام:

– أ–

- ب -

- د -

- ر -

- ز -

– س–

– ش–

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

– ف –

– ق –

– ك –

– م –

– ل –

– ن –

– هـ –

– و –

– ي –

فهرس الأماكن :

- أ -

- ب-

- ت -

- ث -

- ج -

- ك -

- م -

– ي –

فهرس الخرائـــــط:

فهرس الموضوعـــات: